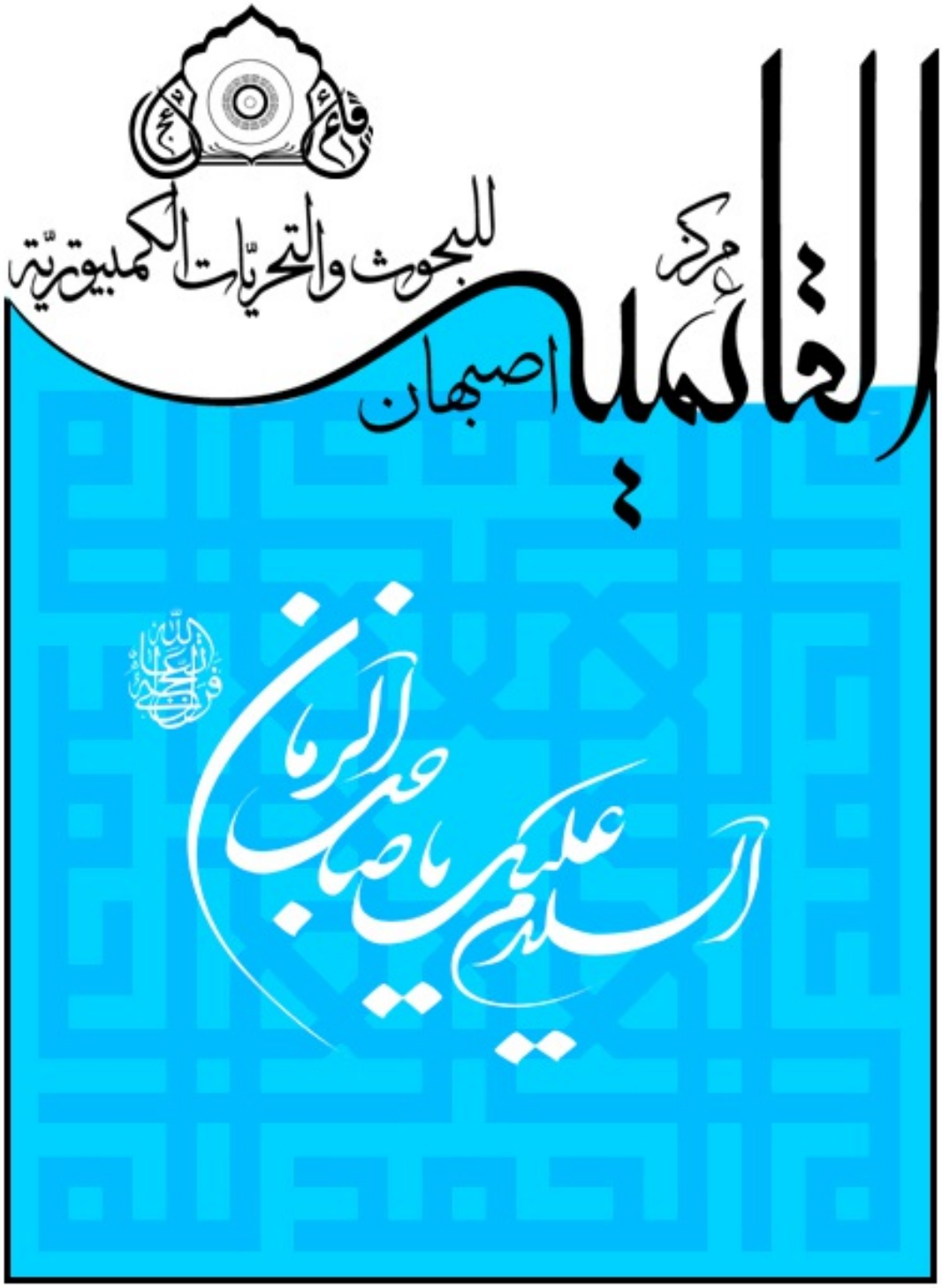

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر
شريف مكة المكرّمة

في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م

تأليف
شارل هيوجيه

تَرْجَمَهُ وقَدَّمَ له وعَلَّق عليه
أ. د. محمد خير البقاعي

الدار العربية للموسوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة الى رحاب الشريف الاكبر

كاتب:

چارلز ديديه

نشرت فى الطباعة:

الدار العربية للموسوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة الی رحاب الشریف الاکبر ----- ۷
اشارة ----- ۷
الکلمة الأولی ----- ۷
مقدمة المترجم ----- ۷
۱- لمحة تاریخیة: ----- ۷
۲- صاحب الرحلة: ----- ۸
۳- أهمیة الرحلة و مصادرها: ----- ۸
۴- ملابسات الرحلة ----- ۸
۵- عملی فی الترجمة ----- ۹
مقدمة الناشر الفرنسی ----- ۹
الفصل الأول صحراء السویس ----- ۹
الفصل الثانی السویس ----- ۱۱
الفصل الثالث الطور ----- ۱۲
الفصل الرابع جبل سیناء ----- ۱۳
الفصل الخامس البحر الأحمر ----- ۱۸
الفصل السادس جدّة ----- ۲۰
الفصل السابع لوحة نابضة بالحیاة ----- ۲۳
الفصل الثامن الأشراف و الوهابیون ----- ۲۵
الفصل التاسع من جدة إلی الطائف ----- ۲۸
الفصل العاشر الطائف ----- ۳۱
الفصل الحادی عشر من الطائف إلی جدة ----- ۳۴
الفصل الثانی عشر بعض التأملات ----- ۳۷

الفصل الثالث عشر مغادرة جدة ----- ۳۸
فهرس الأعلام ----- ۳۸
فهرس الأماكن ----- ۴۰
المصادر و المراجع ----- ۴۲
أولا- اللغة العربية: ----- ۴۲
ثانيا- اللغة الأجنبية: ----- ۴۳
فهرس المحتويات ----- ۴۳
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۴۳

رحلة الى رحاب الشريف الاكبر

اشارة

نام كتاب: رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي
نويسنده: ديديه، چارلز
تاريخ وفات مؤلف: ۱۸۶۴ م
موضوع: سفرنامه
زبان: عربي
تعداد جلد: ۱
ناشر: الدار العربية للموسوعات
مكان چاپ: بيروت
سال چاپ: ۱۴۲۷ ه. ق
نوبت چاپ: دوم

الكلمة الأولى

لم يعد من المشكوك فيه أن الرحلات تعدّ مصدرا من المصادر التاريخية؛ و إن كان هناك تفاوت في مدى صحة المعلومات التي يوردها الرحالون، و تأثرها بالمهمات الموكلة إليهم، أو بالاتجاه السياسي و الرؤية الإيديولوجية للكاتب، إذا صح كل ذلك، فإن معرفة هذه المعلومات، و دراستها، يظل من الأعمال العلمية المهمة التي ينبغي على المؤسسات الثقافية و الجامعات، و كل الجهات التي تهتم بتاريخ بلد ما أن تنشرها و تيسرها للباحثين.

لقد شهدت المملكة العربية السعودية عبر رحال الثقافة و روادها فيها اهتماما بهذا الجانب، أرهصت له ندوات و إصدارات، اهتمت بالوثائق الأجنبية و الرحلات، للإطلاع على رؤية الآخر لتاريخ الجزيرة العربية عموما، و المملكة العربية السعودية بأطوار نشوئها الثلاثة، خصوصا الدولة السعودية الأولى، و الثانية، ثم توحيد المملكة على يد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود.

إن متتبع التأريخ للدولتين السعوديتين، و للمملكة يلاحظ أن الباحثين صرفوا جهودهم إلى معالجة الوثائق البريطانية، و الرحلات التي كتبت بالإنكليزية، سواء كان كاتبها بريطانيين أم لا. و لم تلق الوثائق الفرنسية، و الرحلات الفرنسية، و الأبحاث الجغرافية الفرنسية عن الجزيرة العربية

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۶

عموما، و عن التاريخ السعودي بأطواره المختلفة خصوصا، اهتمام الباحثين، و ربما كان الحاجز اللغوي هو السبب، مع أن تاريخ الوجود الفرنسي في المنطقة، متراقي مع الوجود البريطاني الذي يمكن القول: إنه في جانبه الرسمي، ركز على الجوانب السياسية بداية، و الاقتصادية لاحقا، أما الوجود الفرنسي فقد كان عسكريا و اجتماعيا و ثقافيا. نقول هذا اعتمادا على الوثائق الفرنسية التي نشرت ضمن موسوعة «الملك عبد العزيز آل سعود، سيرته و فترة حكمه في الوثائق الأجنبية» .

و قد نبه الباحثون السعوديون إلى ذلك، فوجدنا الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة يقول: «... و عالم البحث في دور المخطوطات الفرنسية، و كذلك في أرشيف الجرية عدا فيها من وثائق تتعلق بأحداث قيام الدولة السعودية الأولى، و توسع نفوذ تلك الدولة الذي شمل معظم أنحاء الجزيرة العربية، و ما تلاه. ذلك من اهتمام الباحثين الفرنسيين بأحوال الجزيرة العربية حتى بعد سقوط الدولة السعودية الأولى التي أسهم الخبراء الفرنسيون العسكريون خاصة في إسقاطها أثناء. صفهم في خدمة محمد علي باشا، و مشاركتهم في كثير من حملاته العسكرية، بدءا بحملة إبراهيم باشا على الدرعية عام ۱۲۳۳ / ۱۸۱۸ م، و دور هؤلاء الخبراء في رسم الخرائط لطرق الحملة، و تحديد المواقع على تلك الخرائط، و كتابة تقارير مطولة عن أحوال البلاد الاقتصادية و السكانية و غيرها. فكانت تقاريرهم المادة الأولية التي استقى منها من تفرغ من الفرنسيين لكتابة تاريخ و جغرافية مصر في عهد محمد علي باشا، و ما امتد إليه من نفوذ من بلدان خارج مصر مثل المؤرخ فيلكس مانجانMengin. F ، و إدوارد جـــوانEdward Jouen ، و الجغرافي جومارد.Jomard M ، و كذلك لم تخل حملة من حملات محمد علي العسكرية على

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۷

عسير، التي قدرتها بعض المصادر بسبع عشرة حملة، من خبراء فرنسيين إضافة إلى غيرهم من خبراء أوروبيين من جنسيات أخرى، لا يزال مع الأسف بعيدا عن اهتمام الباحث السعودي، و لم ينقض عنها الغبار حتى هذا التاريخ، و سيكون لكشفها أثر بالغ في سد ما زال ناقصا من كتابة تاريخنا الوطني، و إجلاء ما زال غامضا في بعض فتراته. كما أنه لم يترجم أي من أعمال المؤرخين، أو الجغرافيين الفرنسيين المتعلقة بالجزيرة العربية، ما عدا كتابا واحدا هو كتاب إدوارد جوان الذي جاء مشتملا على فصول ممتعة و مهمة لحملات محمد علي المبكرة على الجزيرة العربية. لقد تمت ترجمته إلى اللغة العربية، و طبع في القاهرة عام ۱۹۳۱ م. و لكنه أصبح في عداد الكتب النادرة.

نقلت هذا النص الطويل تأكيدا لما قلته: من انصراف الباحثين في تاريخ الجزيرة العربية عن المؤلفات الفرنسية، و الوثائق الفرنسية على اختلاف أنواعها و مشاربها.

و من المفارقات اللطيفة، أن الكتاب الذي مهد الطريق لمؤلفات كثير من الغربيين عن الجزيرة العربية، و عرفها، كتب بالفرنسية، و ترجم في وقت مبكر نسبيا إلى اللغة العربية، أعني كتاب جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة و العلم ، و على الرغم من ذلك، فقد ظل الاهتمام منصبا على المؤلفات المكتوبة بالإنكليزية.

و ما دمنا في سياق الحديث عن كتاب «بيرين» فإنا نقول: إنها تقدم فيه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۸

ملامح واضحة لبداية اهتمام الفرنسيين بالبحر الأحمر، و الجزيرة العربية.

و تشير إلى كثير من الرحالين الفرنسيين الذين يحتاج البحث في تاريخ الجزيرة إلى تفصيل ما أوجزته عنهم، و عن أعمالهم لما في ذلك من أهمية لا تخفى، و لنا بحث قيد الإنجاز، يفصّل ما أوجزته جاكلين بيرين، و يَخلُد من كتابها مطلقا إلى الحديث عن الرحالة الفرنسيين إلى الجزيرة العربية.

لقد ترجم إلى العربية عن الفرنسية، ناهيك عن كتاب «جوان» و «بيرين» بعض الرحلات منها: رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، لفيليب لينز ، و لكن هذا فيض من فيض، فما ذكرته جاكلين بيرين يوضح مدى المسؤولية الملقاة على عاتق الباحثين ممن يتقنون الفرنسية لنقل الكتب و الوثائق الفرنسية إلى العربية مترجمة بأمانة، ثم إقامة الأبحاث حول تلك الدراسات لاستجلاء حقيقة ما فيها، و اكتشاف مدى أهميتها و ما تضيفه من جديد.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹

و تأتي ترجمة رحلة ديديه إسهاما في نشر الكتابات الفرنسية عن الجزيرة العربية، و نرجو أن تكون فاتحة خير لتقديم أعمال أخرى بالاشتراك مع بعض الزملاء، الذين يهتمون بذلك.

و لا بد لي في ختام هذه الكلمة من أن أشكر الأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد الأمين العام لمركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية الذي اقترح علي ترجمة هذا الكتاب، و قدم لي نسخة مصورة منه، بادرت فور الاطلاع عليها بالموافقة على ترجمته لما وجدته فيه من فائدة و نفع عميمين.

كما أشكر للدكتور عوض البادي، مدير إدارة البحوث و الدراسات في المركز المذكور اهتمامه، و استيفاءه الأخوي، و حرصه على الإجابة عن كل أسئلتي العلمية التي كانت تجد على الدوام إجابات شافية من علمه الغزير، و أخلاقه السمحة، و حبه للتعاون، و احترامه رأي الآخر.

أما الأخ الصديق عبد الله المنيف، مدير إدارة المخطوطات و النوادر في مكتبة الملك فهد الوطنية، فقرأ هذه الرحلة مخطوطة، و أفدت من ملاحظاته السديدة التي كان يبديها.

و أخيرا، فإن الصديق يوسف العتيق، الباحث في مركز الملك فيصل، لم يألُ جهدا في توفير المصادر و المراجع التي كنت أطلبها منه، و لم يخل بمعلومة أو مساعدة لتخرج هذه الرحلة إلى الناس كما ينبغي، و ليس ذلك بغريب عليه، و قد نذر نفسه لمعاونة أهل العلم فيما يرومون.

لكل هؤلاء شكري و اعترافي بالجميل، و لعل في اجتماعنا و تعاوننا خدمة لتاريخ هذه البقعة المباركة؛ المملكة العربية السعودية خصوصا، و الجزيرة العربية عموما، لما لها من منزلة في قلب كل عربي و مسلم.

أ. د. محمد خير البقاعي

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱

مقدمة المترجم

۱- لمحة تاريخية:

بدأ ديديه رحلته بتاريخ ۱۶ يناير (كانون الثاني) ۱۸۵۴ م/ ۱۲۷۰ ه من مصر. و يذكر ناشر الرحلة في مقدمته: أن ديديه كان في طريق عودته إلى بلاده، عبر أثينا، و لكن رحلا إنكليزيا تعرف عليه آنذاك، اقترح عليه رحلة إلى جبل سيناء يقاسمان تكاليفها، فرحب ديديه بالفكرة، و قاما بالرحلة معا، و من هناك قررا السفر إلى الحجاز، و زيارة شريف مكة المكرمة عبد المطلب بن غالب، الذي كان موجودا آنذاك في الطائف.

كان يحكم مصر إذن زيارة ديديه، عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي (۱۸۴۸ م- ۱۸۵۴ م)، و قتل عباس في يوليو (تموز) عام ۱۸۵۴ م، أي سنة قيام ديديه بالرحلة. و يسجل ديديه ظروف مقتل عباس الذي يلقى من ديديه هجوما عنيفا، و انتقادا لاذعا ساخرا، شأنه شأن الكتاب و الرحالة و السياسيين، و العسكريين الفرنسيين الذي يالفوا في انتقاد عباس باشا بسبب ميله إلى البريطانيين، و استبعاده الفرنسيين من خدمته، فأقصى معظم الخبراء الذين كانوا في خدمة جده محمد علي، فتضاءل النفوذ الفرنسي في عهد عباس، و لم يعد إلى الظهور إلا في عهد سعيد باشا. و يندرج نقد ديديه لعباس باشا في هذا الإطار، و إن كان ديديه يلبسه ثوبا إنسانيا يبدو من خلاله حريصا على البلد و مواطنيه، و يردد ما ذكره الفرنسيون عن عباس مثل قول غاربل

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲

هانوتوGabriel Hanotaux ، الذي يرى أنه لم تتم في عهد عباس أي إنجازات ضخمة أو عظيمة «باستثناء بناء القصور في المناطق المتنزهة» .

أما في الحجاز، فقد كان شريف مكة عبد المطلب بن غالب في فترة شرفه الثانية التي امتدت من عام ۱۸۵۱- ۱۸۵۶ م/ ۱۲۶۷- ۱۲۷۳ ه، و كان عبد المطلب يقضي الصيف في الطائف، عندما نشب خلاف بينه و بين باشا جدة، و تجد فيما يقوله ديديه، أصداء ذلك الخلاف بين الباشا و الشريف.

و يقول ستوكت هورخرونيه عن سياسة عبد المطلب في هذه الفترة: «... و عندما تسلم عبد المطلب زمام الأمور في مكة، أظهرت تصرفاته، أنه لا يحسن تقدير أولئك الأشخاص الذين كان يتملقهم في اسطنبول كلما لزم الأمر. فما أن وصل إلى مكة حتى توجه إلى بلاد حرب، حيث بنى لنفسه بعض الحصون في هذه المنطقة المحمية من هجمات الحكومة، يقصد اللجوء إليها في حالة وقوع صراع في المستقبل. و قد دخل في خلاف مع الباشا الذي حضر احتفال تنصيبه في السلطة. و تمكن بواسطة نفوذه عند الصدر الأعظم، من تغيير الباشا و تعيين باشا آخر. غير أن الصداقة بينهما لم تدم طويلا أيضا فقد انتهت بسرعة.

فعندما أطلقت بعض العبارات النارية التي اخترقت طربوش الباشا، في أثناء وجوده في المثناة بالطائف التي كان يقضي الشريف فيها فترة الصيف لم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳

يستطع الباشا أن يتصور أن حدوث ذلك كان صدفة، بل إنه أمر وقع بتدبير من الشريف نفسه. و مرة أخرى تم تغيير الباشا، و السبب هو شكّ الشريف في أن الباشا كان يريد اعتقاله. لقد أخطر الشريف أصدقاؤه بأن الوالي سيحتال للإمساك به في أثناء تمرين على السلاح، كان من المفروض أن يحضره مع الباشا نفسه. لهذا ابتعد الشريف دون أن يلحظه أحد، و توجه نحو الطائف، حيث جهز نفسه لمقاومة الهجمات المتوقعة من الدوائر التركية. و بناء على تقرير سريع من الوالي، الذي غادر إلى جدة، قدم في أكتوبر من عام ۱۸۵۵ م (۱۲۷۱ ه) مبعوث خير عادي، أرسله الباب العالي، لإعادة تعيين الشريف محمد بن عون الأمير السابق المطرود ...» .

أما في نجد، فقد كان الإمام فيصل بن تركي في ولايته الثانية ۱۸۴۳- ۱۸۶۵ م/ ۱۲۵۹- ۱۲۸۲ ه عندما وصل ديديه إلى الحجاز، و قابل في جدة خالد بن سعود الذي تولى الحكم في البلاد النجدية بين عامي ۱۸۳۸- ۱۸۴۱ م/ ۱۲۵۴- ۱۲۵۷ ه، و لكنه لم يستمر في الحكم، بسبب حركة المقاومة السعودية الوطنية التي قادها الأمير السعودي عبد الله بن ثنيان، الذي تولى الحكم من عام ۱۸۴۱- ۱۸۴۳ م/ ۱۲۵۷- ۱۲۵۹ ه قبل أن يعود الإمام فيصل بن تركي إلى الحكم ثانية .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۴

أما على المستوى الدولي فقد كانت تركيا في حرب مع روسيا، و كانت فرنسا تقف إلى جانب تركيا بسبب مصالحها، و خلافها مع روسيا و ليس حبا بتركيا. تجد أصداء هذا الموقف في رحلة ديديه، الذي يبدو أنه غير راض عن هذا الموقف، و يستنكره و يقول: إن تركيا لا تستحق ذلك، يقول ديديه:

«... لقد كنت متزعجا كل الانزعاج من عدم التقدير الذي يلقاه ممثل فرنسا من ذلك التركي، في الوقت الذي تبذل فيه فرنسا دماء

أبنائها، و ذهبها من أجل تركيا ...» .

أما في فرنسا فقد كانت مرحلة ما يسمى الإمبراطورية الثانية (١٨٠٨- ١٨٧٣ م)la Seconde Empire ، و حكم خلالها نابليون الثالث الذي أصبح في البداية رئيس جمهورية خلفا للويس نابليون بونابرت الذي أربح عن الرئاسة بسبب خلافه مع المجلس الوطني بعد انقلاب (٢ ديسمبر ١٨٥١ م)، و قد حول نابليون الثالث الجمهورية إلى إمبراطورية وراثية (١٨٥٢- ١٨٧٠ م)، و اتخذ من الضغوط الخارجية وسيلة لإلهاء الناس فخاض عددا من الحروب (حرب القرم ١٨٥٤- ١٨٥٥ م) ضد روسيا، مما أكسب فرنسا دورا رئيسيا في أوروبا، و لكنه خسر الحرب الفرنسية الروسية، فخلع عن العرش عام ١٨٧٠ م. و كانت

تحكم بريطانيا إيان مجي، ديبديه إلى الجزيرة العربية الملكة فكتوريا الأولى ١٩٠١ -١٨١٩) (Alexandrine Victoria ١ re م) التي توجت في عام ١٨٣٧ م و ظلت تحكم حتى مائت عام ١٩٠١، و قد أصبحت إمبراطورة الهند من (١٨٧٧- ١٩٠١ م) و اتسعت في عهدها رقعة الإمبراطورية البريطانية. أما في روسيا فقد كان يحكم القيصر نيقولا الأول (١٧٩٦- ١٨٥٥ م) الذي تولى الحكم في عام (١٨٢٥- ١٨٥٥ م) و قد عرف برجعيته الشديدة، و سحق ثورة الديسمبريين في عام (١٨٢٥ م) و في عهده جرت الحرب الروسية التركية، التي تدخلت فيها فرنسا و بريطانيا لصالح الإمبراطورية العثمانية، و انتهت بتوقيع معاهدة السلام في باريس عام ١٨٥۶ م. أما في تركيا فقد كان في الحكم السلطان عبد المجيد الأول (١٨٢٣- ١٨۶١ م)، الذي تولى الحكم من عام (١٨٣٩- ١٨۶١ م) و قد حاول إجراء إصلاحات عرفت بالتنظيمات، و قد جرت في عهده حرب «القرم» مع روسيا، و وقعت معاهدة باريس ١٨۵۶ م. تلك كانت لمحة سريعة عن الحالة السياسية التي كانت سائدة إبان رحلة ديبديه إلى الحجاز في عام ١٨۵۴ م.

٢- صاحب الرحلة:

شارل ديبديCharles Didier ، أديب، و شاعر و صحفي سويسري من أصل فرنسي، ولد في جنيف عام ١٨٠۵ م، و كانت أسرته البروتستانتية قد هربت إليها طلبا للحرية الدينية، درس ديبديه في جنيف: القانون، و علم النبات، و الرياضيات، ثم عاد إلى باريس و استقر فيها، و اكتشف ميله إلى الرحلات، و نشر أولى قصائده الشعرية في جنيف عام ١٨٢۵ م، و في عام ١٨۴٨ م أرسلته حكومته في مهمة رسمية إلى بولندا، فأصبح خبيرا بشؤون تلك البلاد، و كذلك ألمانيا و ما جاورها، و عمل في الصحافة ، و أدار جريدة

سياسية و أدبية اسمها: Le Courrier du Leman «لو كوريه دولومان»، و كانت له صلاته مع مشاهير عصره، و خصوصا الروائية الفرنسية التي برعت في تصوير الحياة الريفية جورج صانة(١٨٠۴- ١٨٧۶ م)George Sand ، و تعاون معها لإصدار جريدة «العالمين» Les Deux Mondes، و في عام ١٨۴٩ م أصدر كتيبا عنوانه: زيارة لدوق بوردوUne Visite M Je Duc de Bordeaux أحدث ضجة و طبع خمس عشرة طبعة خلال أسبوعين. و كان المغرب أول بلد عربي يزورها في عام ١٨۴٣ م. ثم ذهب بعد ذلك إلى إيطاليا و إسبانيا، و عندما أصابه الإجهاد و الإحباط من عمله، و من مجموعة من المشكلات العامة و الخاصة كما تشير مقدمة ناشر الرحلة، قرر القيام بمجموعة من الرحلات إلى إسبانيا، و مراكش، و الجزيرة العربية، و سنار، و مصر. و نستنتج مما ورد في الرحلة/ ٢٧۴ و ٣٠۵، (من الأصل الفرنسي) أن المؤلف كان على و شك أن يفقد بصره إبان الرحلة، و قد شكا في غير موضع منها ضعفه، يقول في/ ٢٧۴/: «... أرخيت العنان لبصري، ليجول في قبة السماء الواسعة المتلألئة، التي لم تكن قد انطفأت بعد في نظري كما هي الحال عليه اليوم» و هذا يعني أن المؤلف كان في عام ١٨۵۶ م قد فقد بصره لأن هذا التاريخ (٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨۵۶ م) هو تاريخ مقدمة الناشر، و يبدو أن ديبديه فقد بصره قبل هذا التاريخ، و أملى رحلته إملاء. و يقول في (ص/ ٣٠۵/): إن فقدان بصره منعه من الذهاب إلى بغداد عبر دمشق و حلب و صحراء الرافدين الواسعة، ليصل بعد ذلك إلى إستانبول، و لم يتجز من ذلك إلا مرحلة صغيرة.

و قد تلقى رسالة من أسرة محمد علي شمس الدين في ١۵ فبراير (شباط) ١٨۵۵ م، و كان قد نزل في بيت أسرة شمس في الطائف، و ظل على علاقة بهم، و أثبت ترجمة الرسالة (إلى الفرنسية بالطبع) في نهاية الفصل الأول الذي تحدث فيه عن الطائف (ص/ ٢۶۵- ٢۶۶/). و جاء في ترجمته في معجم

لاروس القرن العشرين أنه مات منتحرا في ١٣ مارس (آذار) في باريس عام ١٨۶۴ م بعد أن أصيب بالعمى. و له كتب عديدة؛ منها عدد من قصص رحلاته و أشهرها: سنة في إسبانيا (طبع في بروكسل عام ١٨٣٧ م)، حملة على روما (١٨۴٢ م)، جولة في المغرب (١٨۴۴ م)، و رحلته هذه (١٨۵٧ م)، و خمسون يوما في الصحراء (١٨۵٧ م)، و خمسة فرسخ على النيل (١٨۵٧ م)، و ليالي القاهرة (١٨۶٠ م) و غير ذلك . و قد راجعنا كتب رحلات ديبديه غير

المترجمة فوجدناه كما يقول كتابه في كتابه عن الرحالة و الكتاب الفرنسيين في مصر: لا يهتم بوصف الآثار و القصور، و إنما يركز على البشر و الجوانب الاجتماعية، و خصوصا في كتابه «خمسمائة فرسخ على النيل»، الذي يتحدث فيه عن مشاهداته على ضفاف النيل، و عن زيارته للخرطوم، و سنار و مقابلته رفاعة الطهطاوي . و له رواية سماها: روما تحت الأرض (١٨۴٣ م)Rome Souterraine ، قدم فيها صورة حية و طريفة عن الحياة الاجتماعية و السياسية في إيطاليا، و عن الحركة الثورية، و هي في مجلدين صدرت لها طبعة معدلة عام ١٨۴١ و ١٨۴٨ م.

لقد التقى ديبديه خلال رحلته من القاهرة إلى السويس بالرحالة الإنكليزي المشهور ريتشارد بيرتون (١٨٢١- ١٨٩٠ م)Richard Burton الذي كتب رحلته بعنوان: قصة رحلة شخصية للحج إلى مكة و المدينة، و ترجم ألف ليلة و ليلة و غيرها إلى اللغة الإنكليزية، و لما طبعت رحلة بيرتون لم يشر هذا

الأخير إلى ديبديه إلا في حاشية علمنا منها اسم الإنكليزي الذي كان يرافق ديبديه، و لم يذكر اسمه أبدا، و لكنه تحدث عنه فقال : «... يتحدث العربية، و يكتبها عند الحاجة، و كان يتجول منذ عدة سنين في الشرق ...» ثم أعاد الحديث عنه باستفاضة في الفصل الذي خصصه للطائف، لأنه كان مترجما من تصرفاته و استعلاماته .

٣- أهمية الرحلة و مصادرها:

وصف ديبديه في كتابه مسار الرحلة من القاهرة إلى السويس، و جبل سيناء، و دير سانت كاترين، و مدينة الطور، ثم تحدث عن البحر الأحمر، و ينبع، و جدة، و الطائف التي قابل فيها شريف مكة المكرمة عبد المطلب بن غالب، ثم وصف طريق جدة- الطائف، و الطائف- جدة، لأنه عاد من طريق أخرى تختلف عن طريق الذهاب، و تحدث عن معادنه جدة إلى سواكن عبر البحر الأحمر، و تضمنت الرحلة فصلا عن الأشراف، و الوهابيين تحدث فيه عن الأشراف و تاريخهم و علاقاتهم بالدعوة الوهابية، و أنحى باللائمة على الشريف غالب، الذي أسهم في رأيه بانتصار محمد علي باشا على الدولة السعودية الأولى التي كانت، كما يقول ديبديه، وحدها قادرة على الوقوف في وجه السيطرة التركية. و تتضمن الرحلة فصلا آخر، سماه الوحة ناطقة بالحياة،

تحدث فيه عن الأشخاص الذين قابلهم في جدة، خصوصا مثل الوالي العثماني، و خالد بن سعود، و غيرهم من العسكر و التجار. و نجده في فصل آخر سماه «بعض التأملات» يتحدث عن رحلته، و صدفه في حكاية الأحداث، و عرض لبعض المقارنات بين العرب و الأتراك، و قال: إن الأمة العربية يحق لها الطموح إلى التخلص من الأتراك، كما هو شأن كل الشعوب التي تخضع لسلطتهم. يحتوي الكتاب على ذكريات ديبديه الشخصية، و ملاحظاته التي كان يدونها يوميا في أثناء الرحلة بكل أمانة و إخلاص، و على الرغم من أهمية الرحلة في معرفة أحوال الحجاز في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإننا لا نجد له ذكرا في الكتب التي تحدثت عن الرحالة في الجزيرة العربية و خصوصا كتاب مواطنته جاكلين بيرين: اكتشاف الجزيرة العربية La Dcouverte de L? Arabie

(١٩۵٩ م). و قد رأينا أن بيرتون لم يشر إليه إلا في حاشية صغيرة. و قد وجدت ناصر الدين دينه في كتابه: الحج إلى بيت الله الحرام، يذكر ديبديه في الفصل الذي خصصه للحديث عن الوهابيين، الذي وضع له عنوانا كلمة الملك عبد العزيز آل سعود، يرحمه الله، «لست أصحاب مذهب جديد» . و قد أشار إلى ديبديه جورج ريتز George Snavely Rentz

في مصادر رسالته المعنونة: محمد بن عبد الوهاب و بداية إمبراطورية

الموحدين في شبه الجزيرة العربية .

و يبدو أن نوال سراج شتة هي أول من أشار بالعربية إلى رحلة ديبديه و وصوله إلى جدة في عام ١٨۵۴ م، و ذلك في كتابها: جدة في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، لم أشار إليه و ترجم مقاطع من رحلته (عن الإنكليزية) الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر في كتابه: التراث الشعبي في أدب الرحلات ، و أشارت إليه، و ترجمت له و تحدثت عن بعض أحداث حياته، و عن كتبه التي لها علاقة بمصر الدكتورة إلهام محمد علي ذهني في كتابها: مصر في كتابات الفرنسيين في القرن التاسع عشر .

إن أهمية هذه الرحلة تكمن في أنها تقدم صورة واضحة عن الحياة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و هي فترة تقل مصادرها، و تحتاج إلى مثل هذه النصوص، لزيادة معرفتنا بها، و للرحلة أهمية لا تنكر في مجال المعلومات الجغرافية و الاجتماعية و الاقتصادية عن الأماكن التي مر بها ديبديه انطلاقا من السويس حتى الطور، و جبل سيناء، و البحر الأحمر، و ينبع، و جدة، و الطائف؛ إذ نجده

يصف الأماكن و الأسواق و الميناء و الأشجار، و يركز على البشر بطباعهم و لباسهم و مساكنهم، و سيجد علماء الأستر و بولوجيا (الإناسة)، و علماء الاجتماع، و الجغرافيون فائدة جلى في رحلة ديبديه.

لقد التقى ديبديه بأشخاص من الطراز الأول إبان رحلته مثل: خالد بن سعود، و عبد المطلب بن غالب شريف مكة المكرمة، و غيرهما من الأشراف، و بالقنصل الفرنسي في جدة روشيه ديريكور Rochet D ?Hericourt ، و القنصل البريطاني فيها السيد كول M Cole ، و الوالي العثماني أحمد عزت باشا، و كره عثمان باشا، أحد القادة العسكريين الأتراك. و غيرهم من التجار من ذوي الأصول الهندية و الأوروبية، و يجد القارئ، في الرحلة تحليلا سلوكيا رائعا لكل تلك الشخصيات المختلفة في أخلاقها و طباعها و الحضارات التي تنتمي إليها. إن المعلومات التي يقدمها ديبديه، بأسلوب رائع، و مقدرة على الوصف هائلة، تذكرنا بالكتاب الفرنسي الكبير إميلا زولا، الذي كان يبلغ من العمر (١۴) عاما عندما قام ديبديه برحلته، و كان عمره (١٧) عاما عندما نشرت رحلة ديبديه، فهل قرأ زولا ما كتب ديبديه؟ و قد ضمن ديبديه رحلته كثيرا من معالم ثقافته، و هو الشاعر الذي بدأ نشر قصائده في سن مبكرة. لقد قرأ ديبديه كما يبدو من رحلته الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد، و قرأ روايات الأدباء اللاتينيين و اليونان، و أشعار شعراء الأمثين، و اطلع على الفنون التشكيلية لهما، و ألقن الأدب الفرنسي، و قرأ كتب المفكرين و الفلاسفة في عصره، كل ذلك يجده القارئ، في هذه الرحلة.

أما بخصوص العرب، فهو بلا شك قرأ ألف ليلة و ليلة مترجمة، و اطلع على كتب الرحلات، خصوصا رحلات بوركهارت، الذي يستشهد به ديبديه في مكان واحد من رحلته ، و لكنه اعتمد عليه كلية في الفصل الذي

كتبه عن الأشراف و الوهابيين). و قد وضحنا كل ذلك في حواشي الترجمة.

لقد كان ديبديه مطلعا على رحلة تايبزيه ، و على رحلة روشيه ديريكور، الذي توفي في جدة يوم ٩ آذار (مارس) ١٨۵۴ م و شارك ديبديه في دفنه.

و تظهر الفقرات التي تحدث فيها عن الأمة العربية أنه مطلع على تاريخ الحضارة العربية و إنجازاتها الأدبية و العلمية فهو يقول: «إنها أمة عالمة و مثقفة؛ نبغت في العلوم قدر ما نبغت في الفن و الحروب. لقد كانت خلال أمد طويل، أمة مبتكرة حيثما قادها حماسها الديني، لقد كان لها مدارس تزدهر فيها دراسة الطب و العمارة و الرياضيات و الفلك. و في هذه المدارس تعلم الغرب، و أبدعت روائع أدبية ما زالت حتى اليوم متعة العقول المثقفة كلها» .

تنوعت مصادر ديبديه التي استخدمها أحسن استخدام، فأغنت ملاحظاته الشخصية، و مدوناته اليومية، و كان مآل ذلك كله هذه الرحلة الممتعة.

۴- ملاءمات الرحلة

يكرر ديبديه في غير موضع من رحلته، أنه ليس في مهمة رسمية، و أن رحلته ليس لها أي هدف سياسي، و أن المضادفة و حدها هي التي قادته إلى

الجزيرة العربية، و أنه، نفسه، اعتراه الدهشة من الاستقبال الحافل الذي لقيه من الشريف الأكبر، يقول على سبيل المثال: «... إن وجود بريطاني و فرنسي بجوار الحجاز في هذه الفترة السياسية السائدة فيه، مدعاة للشكك، مما يجعل الناس يظنون أن حكومة كل منهما أرسلت مواطنها لدراسة الأوضاع في الحجاز، و استطلاع مدى ارتباطه بالباب العالي، و موقفه منه. و على الرغم من أن ذلك غير صحيح، و لكنه غير مستبعد، و لا مبالغ فيه، و إن ذلك الشريف الأكبر في ذلك، جعله يعاملنا تلك المعاملة اللائقة ...» .

يمكن أن يصدق المرء، للوهلة الأولى ما يدعيه ديبديه، و لكن حياة الرجل، و اطلاعه على الأحداث الدولية، و اهتماماته السياسية، و ارتباطه القوي بهويته المسيحية، و كرهه الشديد للإمبراطورية العثمانية، و لكل من يرتبط بها (محمد علي و أبناءه)، و انعكاس ذلك

الكره الذى يقلب فى بعض الأحيان إلى عنصرية، كل ذلك يجعلنا نتساءل، عما سميناه ملابسات الرحلة.

لقد سبق لديديه أن تولى مهمات سياسية لصالح بلده كما رأينا فى أطوار حياته، و ليس بالغريب أن تسند إليه مهمات أخرى!

إن تدخل القنصل البريطانى السيد كول، و موافقة المترجم فى القنصلية الفرنسية و موقع العقود فيها السيد دوكي Deque. M؟ لديديه و رفيقه البريطانى، و الاستقبال الحافل الذى لقياه فى الطائف، و الحراسة التى أرسلها الشريف، كل ذلك يدفعنا إلى طرح سؤال ربما يجد إجابة فى أبحاث لا حقة ليس مكانها هنا. يتحدث ديديه عن أحداث هامة على المستوى الفرنسى المحلى (انقلاب الثانى من ديسمبر ۱۸۵۱ م)، و عن موقف فرنسا من الإمبراطورية العثمانية الذى يصفه بأنه (كوميديا) ، ثم يتحدث عن حرب (القرم) بين تركيا و روسيا التى جرت بين عامى (۱۸۵۳ م- ۱۸۵۶ م)، و وقوف بريطانيا و فرنسا إلى جانب تركيا لا حبا بها، و إنما للوقوف فى وجه روسيا، و بخيل إليه من خلال حديثه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵

مع الشريف عبد المطلب؛ أن هذا الأخير يميل إلى دعم روسيا لا حبا بها أيضا، و إنما لأنه فى رأى ديديه لا يمكن لعربى أن يتمنى انتصار تركيا التى تستعبد الأمة العربية، و تعامل العرب أسوأ معاملة: إن هذه الإشارات التى تصدر عن ديديه تجعل السؤال التالى مشروعا: هل كان ديديه فى عام (۱۸۵۴ م) مع القس هاملتون Abbe ?Hamilton رفيقه فى الرحلة فى مهمة لاستطلاع آراء الشريف و الشخصيات الأخرى فى الحجاز فى الدولة العثمانية، و مدى ارتباط الشعب بتلك الدولة التى كانت على و شك السقوط أمام الزحف الروسى؟ فقد أكدت الأحداث اللاحقة أن فرنسا و بريطانيا تدخلتا لصالح تركيا طمعا فى اقتسام تركتها بعد ذلك،و إبعاد روسيا عن مناطق نفوذهما، و دفعتا روسيا قسرا إلى توقيع معاهدة باريس (۱۸۵۶ م)، تاهيك عن أن سياسة نابليون الثالث (الإمبراطورية الثانية) كانت تقوم على إيجاد ضغوط خارجية للاستمرار فى الحكم، و كان ديديه كما يقول هو نفسه شاهد عيان على انقلاب (۲ ديسمبر ۱۸۵۱ م) فى فرنسا. فهل كان ديديه مبعوث نابليون الثالث لاستكشاف منطقة الحجاز؟ و الإجابة تحتاج إلى مكان أوسع، و دراسة تتركك للمختصين القيام بها، و نكتفى بطرح القضية هنا، و نختم بالإشارة إلى ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل فى تعليقه على رحلة بلحريف «... و لما كان نابليون الثالث

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶

إمبراطور فرنسا مهتما بكشف خبر جزيرة العرب، و بحاجة إلى شراء خيول من أصول عربية لجنوده، عثر هذا على بلحريف الذى كان يرغب فى القيام برحلة إلى بلاد العرب ليكشف عن حقيقة الوضع فيها ... و قد قيل: إن بلحريف كان يمثل نابليون الثالث الذى كان مهتما اهتماما خاصا بمصر و الشام، و ربما كان قد وجه اهتمامه إلى تجد لعلاقتها بموضوع قناة السويس الذى كان قد تم اقتراحه آنذاك بالفعل».

و إذا علمنا أن بلحريف جاء إلى الرياض حسب ما يدعى فى عام ۱۸۶۳ م/ ۱۲۸۰ ه) أى بعد تسع سنوات من رحلة ديديه الذى لم يذهب إلى نجد فهل كانت رحلة بلحريف، إن صحت، امتدادا لاهتمام نابليون الثالث بأوضاع الجزيرة العربية و القوى السياسية فيها؟

۵- عطى فى الترجمة

إذا كانت الترجمة هى نقل المعلومات من نظام لغوى إلى نظام لغوى.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷

آخر، فهى تمثل ثقافة النص المترجم و ثقافة النص المترجم إليه أيضا، تاهيك عن عمليات أخرى معقدة تتراقق مع الانتقال من نظام لغوى إلى نظام لغوى آخر، لأن اللغة فى واقع الأمر هى كالموقع الأثرى تجد فيها عند التنقيب أحيار مستخدميها، و تاريخهم، و معتقداتهم، و عاداتهم، و تقاليدهم مما يتيقى الانتباه إليه إذا أردنا ترجمة نصوص تنتمى إليها.

كان كل ذلك يجول فى خاطرى و أنا أقرأ نص ديديه، و حاولت فى أثناء الترجمة أن أتقيد فى نصه عما يريد قوله، و كنت أتقيد فى العربية أيضا لأجد مقابلات نص ديديه، لكى لا يكون القنى العربى فى الترجمة غريب الوجه و اليد و اللسان.

لم أكتف بالترجمة، و إنما علقت عليها بما يريدها وضوحا؛ فوقفت بأشخاص الرحلة، و ما غمض من أمكنتها و حوادثها، و وثقت النصوص قدر الطاقة من كتب الرحالة الآخرين، و أحلت إلى القرآن الكريم فى الموضوعات الدينية لتتضح الحقيقة فى كتاب الله. و رأيت من المناسب أن أثبت فى متن النص المترجم صفحات الأصل الفرنسى للرحلة فوضعتها بين// لتسهل المقابلة بالأصل، و ليسهل اختيار دقة الترجمة على من أراد.

كتبت الأسماء الأجنبية بالعربية، و بقيتها الأصلية عند أول ورود لها، و تحققت من أسماء الأماكن بالاعتماد على المعاجم الجغرافية، و قد نقيت من ذلك عنا سبب أن ديديه لم يكن يحسن العربية، و كان يكتب الأسماء، كما يسمعها من أصحابها الذين كانوا لا يراعون فى الغالب النطق الفصيح فالسكارى يكتبها Al- Sakara، Al و المهر يكتبها Al- Mahr. أما الحروف الحلقية فيخبط فى كتابتها خبطا كبيرا، و قد أشار هو نفسه إلى صعوبة كتابتها ، تاهيك عن الأخطاء المطبعية عند ما يتحول: صبح، إلى Loubh ، و القيم إلى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۸ Goum

، و العباسى إلى العباري Abbari- Al . و قد أثبتُ فى الحواشى الأسماء كما كتبها ديديه لأن بعضها استعصى على بسبب تغير أسماء المواضع أو بسبب خطأ الكتابة . لقد اجتهدت فى قراءة ما استعصى على ثم تركته فى الأصل مكتوبا كما ورد.

و حرصت على أن يكون للرحلة فهرس يتضمن أسماء الأعلام و الأماكن المذكورة فى الرحلة لكى تزيد الفائدة منها بإذن الله.

إن هذه الرحلة إسهام فى تاريخ الحجاز فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، و كل ما نأمله أن يجد القارئ، فيها المتعة و الفائدة، و أن نكون قد أفلحنا فى تقديم نص يدفع بالمعرفة خطوة إلى الأمام؛ و إلا فإن «مبلغ نفس عذرها مثل منجح»، و الله من وراء القصد.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹

مقدمة الناشر الفرنسي

لقد ذهب مؤلف الرحلة إلى الشرق بحثا عن الطمأنينة و النسيان، بعد أن كره باريس، و فرنسا، و أوروبا كلها، بسبب ظروف خاصة و عامة لا جدوى من ذكرها، و ليس بالإمكان التعرض لها فى هذا المكان. و بعد أن أمضى فى القاهرة شتاء لا بدا به شيء، فى الرومة، و ظلت ذكراه متمكنة فى نفسه، كان يستعد للعودة إلى أوروبا. و كان قد مهر جواز سفره بتأشيرة إلى أثينا، عند ما عرض عليه أحد البريطانيين الذى ربطه به علاقات اجتماعية محدودة، أن يقوما برحلة يقتسمان تكاليفها إلى جبل سيناء، مع إمكانية متابعة الرحلة من هناك إلى مدينة جدة فى الجزيرة العربية؛ بهدف زيارة الشريف الأكبر - شريف مكة المكرمة الذى كان حينئذ يقيم فى الطائف.

لقد طلب المؤلف مهلة أربع و عشرين ساعة للتفكير، و لكن ميوله إلى الترحال// دفعته إلى اتخاذ قرار عاجل: فلم تمض ساعة حتى كان موافقا على ما عرضه البريطانى عليه. و عمدا فى الحال إلى إعداد لوازم الرحلة، و حدد موعد الانطلاق بعد يومين، ۱۶ يناير (كانون الثانى) ۱۸۵۴ م؛ و بذلك وجد المؤلف نفسه منطلقا إلى الجزيرة العربية، بدلا من الذهاب إلى اليونان.

و هو يشير هنا قصة تلك الرحلة أملا فى أن تجد بعض الاهتمام، إذا كان هناك عدا المال شيء يهتم به الناس اليوم.

لا يدعى المؤلف أنه يقدم لوحة تاريخية، و لا لوحة صغيرة، و إنما يقدم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۰

مجرد رسم بسيط لأحداث الرحلة، و يعلن بصراحة، مخلصا بذلك لما اعتاده فيما سبق، أنه لم يسمح لنفسه، و هو يرسم الأشخاص و الأشياء، باستخدام أى تجميل، و لا تعديل، إن لم يكن متوافقا مع الواقع. لقد استطاع بذلك أن يتعمد عن كل ما يغرى الجهلة أو المحرفين، و عزاؤه فى ذلك، أنه يعتقد اعتقادا راسخا أن الرحلة المنتجلة أسوأ الروايات كلها.

و مهما يكن من أمر، فإنه يستطيع القول مع مونتيني Montaigne : إن هذا كتاب صادق، و إنه بحاله الراهنة، كتابه. لم يؤلفه مستعينا بكتب أخرى، و لا بحسب اطلاعات الآخرين، و لكنه يحتوى على ذكريات شخصية، و على ملاحظات سجلت يوما VII/ بيوم فى أماكن حدوثها.

و لكى يطمئن القارئ، (نقول): إن الهدف من نشر هذه الرحلة يتحقق إذا استطاعت الأحداث التى تتضمنها أن تجعل بعض الأذكياء يطلعون على المهولة التى تقوم بها أوروبا لصالح تركيا.

باريس، فى ۲۰ أكتوبر (تشرين الأول) ۱۸۵۶ م

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱

الفصل الأول صحراء السويس

يفصل القاهرة عن السويس صحراء مساحتها ۱۰۰ ميل. كان الناس فى الماضى يخشونها؛ إما بسبب انعدام الماء فيها بتاتا، و إما بسبب البدو الذين كانوا ينهبون القوافل فيها. و لكن مظاهر الحضارة دخلت الصحراء، فلم يعد من المناسب معه إطلاق اسم الصحراء عليها؛ فقد قامت حكومة محمد على الحازمة بتطهيرها من اللصوص الذين كانوا ينتشرون فيها، و انتشر الأمن فيها أنتشاره فى طريق باريس فى فرساى، بل ربما أصبحت أكثر أمنا منها. ثم إن إدارة العبور (الترانزيت) المكلفة نقل الأمتعة و الركاب إلى الهند عبر مصر أنشأت لهذا الغرض طريقا، ۲/ و سترت عليه عربات، و أقامت محطات (مراكز) بريدية يبلغ عددها خمسة عشر مركزا، زودتها بماء النيل الذى يباع بأسعار مرتفعة، و أهم تلك المراكز: هى الرابع، و الثامن، و الثانى عشر، و الثانى على وجه الخصوص. و تعد تلك المراكز مجموعة من النزل، نعم، أيها القارئ، إنها نزل فى قلب الصحراء، و سيكون التحول فى هذه المنطقة جذريا عند الانتهاء من أعمال سكة الحديد التى يجرى العمل فيها لإتمام السكة المقامة بين الإسكندرية و القاهرة، و التى تسير القطر عليها منذ زمن. و ستربط السكة الجديدة البحر الأحمر بالبحر المتوسط بالانتظار أن يأخذ شق القناة فى المستقبل يد مصر القديمة إلى مصير جديد.

أما عربات النقل فهى علب بشعة، مطلية باللون الأبيض، لتعكس أشعة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۲

الشمس و يتقاضى أصحابها (۹) جنيهات وسطيا من كل راكب، و تحمل كل عربة ستة ركاب فى مكان لا يكاد يتسع لأربعة، يقود العربة أحصنة يرخى لها العنان فتقطع مسافة (۱۰۰) ميل فى تسع ساعات، و لا يحتاج البريد المحمول على الحصان لقطع تلك المسافة ست ساعات، و يمكن أن تتقلص إلى خمس.

و سيكون الفارق الزمنى بينها و بين القطار ضئيلا كما هو واضح. تلك هى أحوال الذين هم فى عجلة من أمرهم.

لم أكن فى عجلة من أمرى، و لم يكن هدفى من الرحلة قطع أطول مسافة فى أقصر زمن ممكن، لذلك لم ألجأ إلى أىّ من وسيلتى النقل اللتين ذكرتهما، بل عمدت إلى وسيلة أكثر بطئا، و لكنها أكثر إثارة و تشويقا، لقد رافقت السكان الأصليين، نصبت خيمتى على الطريق، و قضيت فيها ثلاث ليال، ۳/، و استغرقت الرحلة منى زمنا يزيد على وقت العربات بثماني مرات.

غادرت القاهرة ثالث اثنين على ظهر واحد من تلكه الحمير الجميلة التى تكثر فى مصر، و التى ليس لها ما تشترك به مع الحمير الأوروبية إلا الاسم؛ هذا الحيوان المعذّب الذى يحتقره الفلاحون بغير حق، و يعاملونه معاملة قاسية.

إن المسلمين أكثر رفقا بالحيوان من النصارى. إن لون الحمار المصرى أسمر داكن، و هو رشيق، حسن الهيئة، مراح، قدماه دقيقتان، و أذناه مستقيمتان مدببتان، ذلكم مظهره، أما مخبره فهو حيوان لا يقف شيء فى وجه شجاعته، و لا ينال التعب من همته، أنا قناعته بالمأكل و المشرب فهى مضرب المثل؛ فهو يكتفى بقبضة من الفول فى اليوم، و يمكن أن يسير ثلاثة أيام دون أن يشرب فى جو ترتفع فيه درجة الحرارة ما بين ۳۵ و ۴۰ درجة، و لا. يمكن لأى حصان أن يقدره، و هو يناقص فى ذلكه الجمل نفسه. و إن لهذه الحمير القوية قيمة مادية كبيرة، و إن أحد الأطباء من أصدقائى تلقى هدية من أحد نواب الملكة (فى مصر) حمارا أبيض اللون قدّر ثمنه من ۱۲۰۰ إلى ۱۵۰۰ فرنك.

تجتمع آلاف من هذا الحيوان الأثير فى الساحات و الشوارع، كما تجتمع الفياكر فى مدن أوروبا، و الأخصة فى إستانبول: يستخدمه كل الناس دون حرج، و ليس لسيدات المجتمع من ذوات الخدم و الحشم من ركوب

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۳

سواه. و مع أن براذع تلكه الحمير قاسية، و تشبه كل الشبه ۴/ البردعة المستخدمة فى أوروبا، إلا أن لها سمات خاصة بها، و لا تشعر بالضيق و نحن نجلس فوقها. و تنشر التزيينات الأنيقة فوق السجاد ذى الطرز الذهبية، التى يكون لها وقع فى النفوس عجيب. و أضيف فى هذا السياق أن مكارى القاهرة هم أطفال حيويون و أذكياء، و لكنهم يصبحون فى سنوات قليلة بلهاء: إذ إن ضررا من الطيش المبكر هو الذى يجعلهم يتحولون هذا التحول المؤسف.

كانت قافلتنا الصغيرة تألفت من أربعة من الأحمار، و من عشرة جمال لازمة لنقل خدمنا و عددهم خمسة، و كانت أمتعتنا ذات حجم مقبول، لأننا مقدمون على رحلة طويلة، و ينبغى أن نحمل معنا كل لوازمها من خيام و أسرة، و سجاد، و مؤن من كل الأنواع، و النيلة حتى الماء، كان ينبغى أن نحمل كل شيء، حتى آنية الطعام و أدواتها و لوازم المطبخ.

كان قصر العباسية، آخر مكان مسكون نراه بعد مغادرة القاهرة، و العباسية قصر فخم، رهيب، بناه الخديوى عباس باشا على حدود الصحراء

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۴

ليكون سكنا له. إن هذا القصر بالنسبة إلى عباس باشا هو كجزيرة كابرى Capre ?e بالنسبة إلى تيبيريوس Tibe ?re ، و عباس ليس إلا نسخة مصغرة عن تيبيريوس و هو نصف نمر و نصف ضبع، لا يحد من وحشيته إلا الخوف.

كان هذا الحجر الغاشم و المنيع، فى أثناء حياة الخديوى عباس، مسرحا لمقاسد لا تصدق، و لجرائم لا تغتفر. و إن آخر جرائمه التى عاقبه الله عليها لأنه أهلك شابين من المماليك كانا يسهران على ملذاته؛ فاشترك الشابان اللذان خلفاهما/ ۵/ خوفا من أن يلقيا المصير نفسه، بحثق سيدهما فى ظروف شنيعة لا يستطيع تصويرها إلا قلم بيترون Pe ?tron أو مارسيال Martial ؛ هذه المأساة الفظيعة التى لا نجد مثيلا لها إلا فى سدوم وقعت فى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۵

بلدة بنها- العسل في وجه مصر البحري، و قد اختفى القتالان فترة من الزمن، ثم عادا للظهور، و يعلم الناس كلهم أنهما اليوم موظفان في القلعة؛ باعتبار أن الأطباء الشرعيين أفادوا في تقاريرهم الرائعة أن سقوه قضبي بتزيف دماغي (سكتة دماغية)، و قد كان من آخر ما قام به في حياته، بل ربما كان آخر أعماله، أنه أخاط شفتي خادم مسكين من خدم حريمه ارتكب خطأ بسيطا، و لم ينفذ موت ذلك الحاكم الفظ الخادم المسكين الذي قضى نحبه هو الآخر جوعا بعد ساعات من موت سيده، و كان قبل ذلك بفترة وجيزة قد أمر خدمه بذبح أحد المساكين أمام عينيه؛ لأنه كان يجري قرب سيارته ليسلمه عريضة؛ لأن عباسا كان يخاف من كل شيء، و ينكث في كل الناس. لقد شاهدنا على طريقنا قبل مغادرة الأراضي المصرية آثرا آخر من آثار ذلك الأمير الإفريقي الذي لم يترك وراءه إلا أسوأ الذكريات؛ إذ أقيم قرب القصر مسجد كان يحتفل فيه بعيد أحد الأولياء المسلمين/ ۶/ و كان يحتفل منه الصراخ و الأغاني، و ضرب من الموسيقى البشعة.

إن الشعب المصري، و أهل القاهرة على وجه الخصوص، يمشقون الاحتفالات بكل أنواعها: دينية أم دنيوية، عامة أم خاصة، و يسمونها جميعا دون تمييز باسم «فتازا» و هي كلمة لاتينية تتردد على الأفواه و هم يطلقونها على كل شيء.

و هناك عدد من السواقي التي تنقل من النيل الماء البارد و الصافي الذي لم أر مثله، منذ زمن طويل، إلى هذا المكان، و يصب ذلك الماء في خزانات

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۶

من الحجارة. ارتوت الحمير و الجمال من ذلك الماء، ما يكفيها لثلاثة أيام، ثم ولجنا الصحراء أخيرا. سرنا مدة ساعات دون حوادث و دون معوقات، على أرض صلبة متموجة.

و لما كان انطلاقنا قد تأخر، فقد ضربنا الخيام في نهاية النهار قرب المحطة رقم ۳ على ست مراحل فقط من القاهرة، و بالتحديد تحت برج اللاسلكي الذي أنشئ، في هذه المنطقة، بالإضافة إلى عربات النقل، و دوريات النقل، و الفنادق و وسائل أخرى من وسائل الحضارة الغربية التي تجعلك تحس بالقرب، و التي تزيل بهاء صحراء السويس.

إلا أنه، و على الرغم من هذه المظاهر المزعجة، و من وجود المحطة؛ لم يكن هناك أحد لتعكير صفو العزلة، و كان الصمت مطبقا.

أما سلسلة المقطم الحجرية التي تسير الطريق على امتداده بمحاذاتها، و التي تمتد على يمينه من النيل إلى البحر الأحمر، فإنها كانت بلونها الأسود متباينة كل التباين مع الخليقة الفضية لغروب متلألئ.

كان/ ۷/ رمل الصحراء زهري اللون، و كان هدوء المساء يعلن بجلال نهاية يوم هادئ، و يرهص بليلة لن تكون أقل هدوءا، إلا أن الهواء كان باردا، باردا حتى إنني وجدت نفسي مدفوعا إلى ارتداء البرنس الصوفي القصفاض الذي كنت اشتريته صباح ذلك اليوم من سوق القاهرة، و ليس ذلك بغريب فقد كنا في يوم ۱۶ يناير (كانون الثاني).

نصبت الخيام بعد قليل، و قدم خدام العشاء، دون أن ننسى تقديم العشاء للحيوانات؛ إذ تلقت الجمال المتاخة حول المعسكر، و الحمير الواقعة على عراقيبها القولاذية حصتها البسيطة من الفول أو الذرة، دون أن يقدم لها قطرة واحدة من الماء.

ثم نام المكاترون و الجمالة بعد ذلك مختلطين بحيواناتهم، يلتحفون السماء، المزدانة بالنجوم، و مرت ليلتي الأولى تحت الخيمة دون أحداث تذكر، يحرسني رجال الصحراء المهرة، الذين اعتادوا الأسفار.

نهضت في اليوم الثاني مبكرا، و كان أول ما وقع تحت ناظري بعد

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۷

خروجي من الخيمة برج القطراف الذي نصب على أكمة كثيرة الحصى، كان ينتصب أمامي كأنه شبح مخيف في ثوب العسق الشاحب. لقد سررت بوجوده في هذه اللحظة، و بالمصير الذي حمله إلى هذا المكان بفضل الأثر الرائع الذي كان يضفيه على المنظر الطبيعي. بزغت الشمس بعد أن أرهص بها فجر/ ۸/ بهي، بزغت، و هي لامعة كما كانت عند الغروب، تعد يوم أكثر جمالا من سابقه، و قد وفت بما وعدت.

بدأنا نرفع الأحمال على الجمال، و ذلك عمل يقوم به الجمالة برشاقة و خفة عند ما يوافق ذلك هواهم، و لكنهم اعتادوا أن يقوموا به متثاقلين لأنهم يكرهون الرحيل في الصباح الباكر. إذا كان الوقت متأخرا عند ما أصبحت القافلة جاهزة للمسير.

لقد لفت نظري في المحطة التالية بيوت منخفضة، نصفها غائر في الأرض، يسكنها بعض الفلاحين الفقراء، القابعين بهذه الجحور كأنهم ثعالب مع إنالتهم و صغارهم، يمارسون مهنة لست أدري ما كنهها؟ و لست أدري كيف يعيشون؟ و أترك حل هذه المسألة لمن هم أكثر تبصرا. كانت إحدى نسائهم المحجبات، كما هي حال كل النساء، تجلس القرفصاء على قارعة الطريق كأنها طائر العقاء، و أمامها سلة مملوءة بالبرتقال الذي تبيعه للمارة بقليل من البارات، و إنه لمن المشكوك فيه أن تجني تلك الباعة الباسلة ثروة من

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۸

ذلك، لأن المارة قلة نادرة، و لأنه ينبغي العلم أن ثمانية من تلك البارات القريبة التي تتلهف للحصول عليها، لا تكاد تساوي فلسا من العملة الفرنسية.

إن أي حدث يحدث في الصحراء ظاهرة، أفضل حدث في السماء أو الأرض يخطف الأبصار و يأسر النظر/ ۹/ انطلاقا من الحجارArbuste المنثورة التي تأخذ على البعد حجم شجرة صلاة، حتى السحب التي تمر فوق الشمس، و التي يتساب ظلها الخفيف كأنه كائن حي على صفحة الرمال المستوية و المتموجة، ما زلت أذكر ذلك الأثر الأسر الذي أحدثه في ذلك اليوم رؤية بدوي يمتطي جمله بجلال، و يتدلى من رحله العالي المغطى بسجادة و جرابان لهما حشفات طويلة و كبيرة من الحرير الأحمر، و كانت تأرجح بانتظام حسب خطوات الحيوان المتثاقلة و كأنها رقاص ساعة الحائط. و قد رأيت في اللحظة التي تليها منظرا مماثلا و كأنه رسم كاريكاتوري (ساخر) للوحة الرائعة الأولى: رأيت جملا هزيلا يجر متثاقلا عربة قديمة؛ لكأنني كنت أرى علائم الدهشة بادية على ذلك الجمل المسكين بسبب عمله الذي لم يعتده؛ لم تكن عجلتا العربة ذواتي شكل دائري بل كانتا بيضاويتين، و تصدران جلبة و صريرا تحت الحمارَج. لقد كانت تلكما الآلة البشعة، و هي تقليد غير متقن لعربات النقل، تحتكان بقائمتي ذلك الحيوان المسكين، و تعيق حرية الحركة لديه حتى إنه لم يكن يتمكن من السير إلا بصعوبة و بارتياك يبعث على الضحك. ما أروع الشقة بين هذا التجديد البربري و الغبي، و بين المظهر الرائع الذي يبدو عليه الجمل و قد علاه الأعرابي حسب وظيفته المعادة في الطبيعة/ ۱۰/.

كان هناك أيضا منظر أكثر إثارة للاشمئزاز، إنه منظر جيف الجمال المنتشرة على الطريق، بعضها أكلت الحيوانات اللاحمة نصفها، و بعضها الآخر أفسده الشمس. عند ما يصل الجمل إلى مرحلة الإرهاق يسقط بما يحمله، و لا تستطيع قوة إنسانية أن تجعله يقف على قدميه ثانية؛ عندئذ يوزّع حمله على الجمال الأخرى التي ما زالت تحتفظ بقوتها، و يترك الجمل لمصيره المحتوم: يموت من الجوع في المكان الذي سقط فيه، و يصبح بعد موته بقليل طعاما للضباع و النسور.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۹

تلك هي النهاية الحتمية لذلك الحيوان الأثير الذي يصلح كل الصلاحية للمكان الذي ولد فيه. و بعد أن رأيت هدوءه و شجاعته و خضوعه فإنني أسميه بكل طيبة خاطر: شهيد الصحراء و ليس سفينة الصحراء.

لقد صادفنا في ذلك اليوم، و في الأيام التي تلته عددا من القوافل القادمة من الحجاز و هي تحمل الصمغ و التمر الهندي و الرقيق الذي يؤتى به ليباع في سوق القاهرة؛ و كان هؤلاء المساكين مربوطين متى متى على الرحال، و كانوا في هيئة الصبايا، و لونهم أسود يتفاوت في شدة السواد و قد جيء بهم من حدود دارفور، و من الحبشة، و كان التجار الذين يسمون (جلاب) يأتون بهم أولا إلى جدة عبر سواكن و البحر الأحمر، و لا يحملون إلى مصر إلا أولئك الذين لم يستطيعوا بيعهم بسعر رابح في الجزيرة العربية، و كان في إحدى تلك القوافل/ ۱۱/ امرأة من سكان مكة المكرمة كانت ترتدي ثيابها الفاخرة التقليدية؛ كانت على ظهر جملها تعلو عن الأرض سيعة أقدام، و تحميها من الشمس مظلة بيضاء كبيرة، و كانت محجبة بإحكام كما ينبغي على أية مسلمة ملتزمة. و مع أنها جاءت من مكة المكرمة، و ولدت فيها، فإنها لم تجد حرجا من الكشف بإدلال عن وجهها عند ما مرت بنا، لقد كانت جميلة و شابة. لقد كان فيما فعلته مخالفة دينية، و لكن ما يفظر لها ذلك هو أننا من (الجاورينGiaours) الكفار.

و لا بد من الإشارة، لكي نكتمل لائحة المقابلات في ذلك اليوم، إلى عمال البريد الذين كانوا يذهبون الطرق تاركين العنان لخيولهم التي كانوا يستبدلونها بسرعة في كل محطة، و كانوا يقطعون المسافات بينها بسرعة، كانوا يسبقونها أو يمرون بقربنا بسرعة البرق فلا نكاد نراهم حتى يختفوا عن الأبصار. تسير الجمال بسرعة أقل و لكن إلى مسافات أطول.

كانت أعيارنا القوية تسبق الجمال التي لا تقطع إلا ميلين أو ميلين و نصفا في الساعة؛ لذلك توقفنا في منتصف النهار لمدة ساعتين للاستراحة و انتظار القافلة، لقد بدأنا و نحن مستلقون على الرمال على قارعة الطريق الرئيسي بالإعداد لتناول غداء نقشفي، كان يعتمد أساسا على البرتقال الذي اشتريناه من الباعة المسكينة في المحطة رقم (۴)/ ۱۲/ و كانت أسراب الغربان و الصقور

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۴۰

الآبية من المقطم تحوم فوق رؤوسنا، مستعدة كل الاستعداد و قد نفد صبرها، لكي تنقض على فضلات طعامنا، مع أنها قليلة، و كانت في هذه الأثناء، بعض الفقرات التي لا تكاد ترى تغني بنغمة فرحة في طبقات الهواء العليا، و كان القطا، عصفور الصحراء الذي سمى بذلك محاكاة لصوته الرتيب الذي يشبه النواح، و هو خاص به، و يكرره آلاف المرات و هو يطير من حولنا.

كان الجو جميلا، و الهواء، طيلا حتى إننا لم نستطع أنا و أحد رفاق الرحلة مقاومة الرغبة في السير؛ و قد كان ذلك رغبة في التسلية، و لاعطاء، حميرنا استراحة هي بالتأكيد مستحقة كل الاستحقاق لها. لقد تمكنا من السير لأن الطريق كانت صلبة، و كان بالإمكان أن تنقلب تلك التسلية إلى تعب لا يحتمل، لو أننا كنا نسير على الرمال المتحركة. لقد سرنا لأميال عدة دون أن نلحظ ذلك، و نحن نتجاذب أطراف الحديث. لقد كان رفيقي يحب المشي شأنه شأني، و كان رحالة مجربا، إنكليزيا و ضابطا في جيش بومباي، و اشتهر في بريطانيا بكتبه عن الشرق؛ أحدها عن الصيد بالصقور في سوريا، و كان عائدا إلى فرقته العسكرية بعد عطلة عدة أشهر خصصها لأداء الحج إلى مكة المكرمة شأنه شأن أي مؤمن حقيقي، كان يتكلم العربية بإتقان، و يحفظ القرآن/ ۱۳/ و كان يرتدي بسهولة عجيبة الزي التقليدي، و لا يخلعه أبدا، إنه باختصار تمثل آخلاق هذه البلاد و عاداتها حتى إنه أصبح ذا سحنة شرقية، و أصبح من المستحيل على أي كان أن يقول: إنه أوروبي، و كان العلماء و الأئمة في مكة المكرمة يثقون من هوية أنه أحد الهنود المسلمين.

لقد استطاع بفضل تبكره المنقن أن ينتم دون خطر مشروعه المحفوف بالمخاطر؛ لأننا نعلم أن مكة المكرمة و المدينة المنورة لا يدخلهما- حتى اليوم- غير المسلمين، و إن دخلوها فهم يعرضون أنفسهم لعقوبة الموت أو التخلي عن دينهم، و اتباع الإسلام.

نشر السيد بيرتون Burton رحلته بالإنكليزية، و لم أقرأها، و لكن ما

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۴۱

حدثني به عنها يجعل منها مصدرا في غاية الأهمية، و إنني على صحة ما ورد فيها للشهيد . لقد قام بيرتون بعد فترة من زمن رحلته و لقائي به بزيارة القبائل المتعصبة التي تقطن حول مدينة عدن، و قد كان منذ وقت قريب يفكر في محاولة العبور من شاطئ، زنجبار إلى النيل الأبيض عبر خط الاستواء. و هو

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۴۲

مشروع كان يشغل حيزا كبيرا من تفكيره منذ أن لقيته.

كنا ذات مساء نخيم قرب المحطة رقم (۸) بعد يوم من السير قطعنا فيه عشر مراحل، و كانت مشاهد القروب تتكرر متطابقة في التفاصيل؛ فالشرق/ ۱۴/ كما نعلم ليس بلد التنوع، ما فعلناه البارحة سنفعله غدا و بعد غد، و هكذا دواليك في كل يوم حتى آخر الزمن. كان القيل صافيا صفاء لا تجده إلا في سماء مصر، كانت النجوم تلمع كأنها جواهر مرصعة باللازورد، و كأنها رمز شعار بيزنطة القديم قبل أن يؤول إلى العثمانيين في إستانبول. كان القمر هلالا، يتطاول بجلال إلى قبة السماء. و كان عواء الكلاب في وسط الظلمات يدل على وجود مضارب بدو في الجوار، و إن مثل ذلك الجوار كان يثير قلقا و خوفا موروثين في الماضي، و هو اليوم بلا أدنى خطورة؛ مما جعلني أنام في خيمتي دون أي قلق، و لم يزعجني إبان نومي أي عارض مقلق.

و لم تكن القافلة في اليوم التالي جاهزة للمسير إلا في وقت متأخر عن اليوم السابق، و كانت الشمس قد ارتفعت عند ما لاحظت إلى يساري قصر دار البضا، كان محاطا بالأبراج و لا يختلف بقليل أو كثير عن القصير الصغير الذي كان يبنيه الإقطاعيون في القرون الوسطى (في أوروبا). إن قصر العزلة هذا، هو أيضا أحد آمكنة إقامة عباس باشا؛ ذلك التركي المتوحش، و المتعصب الذي كان يمقت المدن و خصوصا تلك التي يقيم بها القناصل الذين كانوا في رأيه أناسا مزعجين، و كان يهرب منهم بقدر ما كان جده محمد علي يقترب منهم، و مع ذلك فإنه كان يظن أنه ليس بعيدا جنهم بقدر كاف. و لذلك كان يمقت الإسكندرية مقتا كبيرا، و لا أظن/ ۱۵/ أنه زارها مرة واحدة خلال فترة حكمه؛ و كان يقول لكي يسوغ غيابه عنها: إنه «يرى فيها كثيرا من القبعات».

و كانت القاهرة نفسها تبدو له موبوءة بالطاعون الأوروبي، و لكي يتلافى العدوى قام باشا، قصر العباسية على حدود الصحراء، و كنا قد رأيناه، خلال مرورنا، و لكن ذلك القصر المنعزل سيبدو له بعد قليل شديد الاقتراب من القاهرة، و انتهى به الأمر إلى الاختفاء، إلى حضن الصحراء. كان يعيش هنا مع أكثر المقربين إليه، و يا للمقربين! كان على الدوام يؤجل أكثر الأعمال

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۴۳

المستعجلة، و لا يسمح للقناصل بمقابلته إلا عند ما لا يجد دفعا لذلك؛ و يكون مجبرا على ذلك بسبب الخوف.

كان مفرطا في الريبة، تلاحقه الشكوك الدائمة حتى هذا و كان لا يثق بأحد حتى إنه لم يكن يشرب إلا الماء الذي كانت ترسله من القاهرة أمه في زجاجات مختومة. و كانت تسليته المفضلة هي أن يملأ حظائره بالحيوانات ذات الأسعار المرتفعة، كان يالطبع يحتفل، و لكن أعظم التضحيات لم تكن تعني له شيئا عند ما يتعلق الأمر بتحقيق رغباته التي تسيطر عليه. كان له في كل مكان، و في أمكنة بعيدة في بعض الأحيان، عملاء مكلفون بأن يشتروا له أجمل الخيول و الجمال و أغلاها، و قد وصل سعر عدد منها إلى عشرة آلاف فرنك، و لكنه لم يكن يسمح لأحد برؤيتها/ ۱۶/ خوفا عليها من العين؛ لقد كان تطيره يوازي حذره.

كان الموضع الذي أقيم عليه قصره يسمى قديما الدار الحمراء و هو اسم يطلقه العرب على جهنم بسبب ألسنة اللهب التي يعتقدون أنها أبدية الاشتعال. و قد سمي هذا المكان بهذا الاسم المخيف لكآبته.

و قد وافق المقام كل الموافقة ظهور بعض النكت المأثورة، و لم يعدم الشعب أبدا أن يخلط عبر جناس مناسب و جيد بين القصر و جهنم، و بين جهنم و القصر. و قد بلغت تلك الطرفة أسماع عباس فأسرع إلى تغيير ذلك الاسم المزعج: فحول اسم الدار الحمراء بأمر عباس إلى الدار البيضاء، و لكنه لم يزد في أذهان العامة إلا سوادا و شيطانية.

تقع المحطة رقم (٨) قرب الدار البيضاء، و تكتسب من هذا الجوار بعض الأهمية، فقد كان الأشخاص الذين لهم علاقة بباب الملك المتوفى، أو بأحد ضباطه يسكنون في المحطة، و يقضون هناك أسابيع و أشهرا كاملة، لأن أقل الأشياء تحتاج كثيرا من الوقت. إن المسافرين الذين يمرون بالمحطة يفضلون، كما فعلنا نحن، وسائل النقل القديمة على عربات السفر السريعة (الترانزيت) لأنهم مع الأولى يستطيعون التمتع بهذه المحطات على الأقل، و لكن بشرط عليهم في القاهرة الحصول على بطاقة دخول تباع بسعر غال.

و دون هذا الإجراء/ ۱۷/ تظل المحطات مغلقة في وجوههم، و يمكن أن يموتوا عطشا على الباب دون أن يفتح لهم. توجد غير بعيد عن المحطة رقم (٨) في نصف الطريق بين القاهرة و السويس شجرة الحجاج.

يكن العرب للأشجار احتراما كبيرا، و لما كانوا لا يرون إلّا قليلا منها في صحرائهم فإنها بالنسبة إليهم شيء نادر و جديد. و قد وعدهم القرآن بجنان رائعة في الحياة الأخرة [...].

و نأبحث عن حب العرب للأشجار، فإن هناك بعض الأشجار المباركة التي تلقى معاملة خاصة: إنها الأشجار التي تنبت قرب ضريح أحد الأولياء، أو في أي مكان آخر يكرمه الدين أو الطهر. فهم يحرصون في أثناء مرورهم بهذه الأشجار، على تعليق شيء يملكونه عليها لكي يدفعوا عنهم مصائب الدهر؛ و هذا الشيء، هو عادة قطعة من قماش ثيابهم. تلك هي حالة الشجرة التي تحدثت عنها، و قد اكتسبت اسمها من الحجاج المتوجهين إلى الحج، و الذين لا يفوت أحد منهم أن يقوم بهذه الممارسة الطقوسية: لذلك تبدو هذه الشجرة مغطوة بالخرق الموسخة من كل الأشكال، و من كل الألوان، بدلا من أن تحمل أزهارا و ثمارا، بل أوراقا . إنه ضرب من التدور غريب!

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۴۵

و لما كانت حميرا قد سبقت الجمال بقدر/ ۱۸/ ما سبقتها في اليوم السابق فقد كان علينا أن نتوقف عند الظهيرة لانتظار القافلة، و تناولنا غداءنا على الرمل كما فعلنا في اليوم السابق. و بينما كنا نزيل فتور البيض المسلوق و البرتقال أدركنا مسافر يمشي على قدميه، و يسير وراءه مرافق يسوق أمامه حمارا تحمله امرأة. كان المسافر هنديا، و كانت المرأة زوجته، و كان عائدا من مكة المكرمة بعد الحج، و قد أراد مع زوجته و مرافقه أن يمروا بالقاهرة قبل العودة إلى بلادهم؛ بأية طريقة؟ الله أعلم! و عند ما شاهد الهندي السيد يبرتون عرفه من النظرة الأولى لأنه سبق أن رآه في جبل عرفات قبل بضعة أشهر، و هو يؤدي ورع شأنه شأن الهندي متاسكة الحج الأخيرة؛ و قد حياه منادیا إياه باسم الشيخ عبد الله؛ و هو الاسم الذي يحمله يبرتون في الشرق. لقد عرف كل منهما الآخر، و أخذ الحاجان يتجاذبان أطراف الحديث باللغة الهندية العالية، و هي لغة كان يبرتون يتقنها كل الإتقان شأنه مع اللغة العربية، و ربما كان يتحدثها أفضل من الهندي نفسه باعتبار أنه ألف كتابا في قواعد واحدة من أكثر اللغات الهندية صعوبة و هي الهندوستانية. لقد كانت مرافقة اثنين من غير المسلمين مثلا محرجة ليبرتون؛ و لكنها على أي حال لم ترجع الثقة التي كان الهندي العجوز يضعها في عقيدة مواطنه المزعوم الذي استطاع أن يخرج منتصرا من هذا الموقف الحرج/ ۱۹/ كانت تبدو في الأفق غزالة

مسرعة، سرعان ما اختفت في عمق الصحراء. و كانت أولى الغزلان التي رأيتها طليقة في الطبيعة، ثم رأيت بعد ذلك مئات منها في السودان و في النوبة.

و عند ما حل المساء اكتسى جبل المقطم لونا بنفسجيا لا يضاهى في جماله، كان صفاء الجو يسمح برؤية أصغر الأشياء بوضوح من مسافة بعيدة كل البعد.

و لكن فجأة لم نعد نرى شيئا، لأن الشمس غربت، و فترة الغروب قصيرة في هذه المناطق حتى إنه بمجرد غياب الشمس يهبط الليل دفعة واحدة و دون تدرج.

نصبنا خيامنا قرب المحطة رقم (١٣)، على أرض حمراء تنتشر عليها نباتات الداتورة Daturas . لقد كتب بعض الرحالة أن شجرة الحجاج هي الشجرة الوحيدة التي تراها على طريق القاهرة- السويس؛ و ليس ذلك بصحيح، فقد كان هناك حول خيامنا ما يقرب من عشر أشجار ميموزا (السنط). و توقف قرب مضاربنا للقضاء الليل أحد الألمان، و كان يعبر الصحراء مع جمل واحد و جمال واحد. و كنا نتوى استقباله استقبالا لائقا بدعوته إلى مشاركتنا طعام العشاء؛ و لكن طبعه الكئيب، و صمته، بدد رغبتنا في استضافته؛ لقد انزوى، و تركناه كذلك، و كأنه دب في غابته التي ولد فيها. أما جبرائه، و كان لين العريكة أكثر من الألماني، فإنه سرعان ما استأنس بجمالتنا، و على الرغم من أنهم كانوا قد ساروا/ ۲۰/ على أقدامهم عشر ساعات، فإنهم ظلوا يتسامرون جميعا حتى وقت متأخر من الليل.

انطلقنا في اليوم الرابع، في وقت أكثر تأخرا من اليومين السابقين؛ لأننا لم نكن إلا على بعد ستة فراسخ من السويس. سرنا على الطريق ما يقارب مئة خطوة، ثم تركناها متجهين يسارا نحو بئر محرود، المحاطة بالأسوار، و تقع في قلب قصر مهدم، و استبدل بالحامية التي كانت تقيم فيها عائلة بدوية أوكل

إليها أمر حماية البئر، و كانت تأخذ رسوما من كل من يأتي للتزود بالماء.

شربت حميرنا هنا لأول مرة، و لعلنا نتخيل بأي شراهة قطعت ذلك، بعد أن ظلت نسعا و ستين ساعة محرومة من الماء؛ قطعت خلالها مسافة ثمانية و عشرين فرسخا. لقد كان للموقع، على الرغم من جفافه، مظهر مدهش؛ فهذه البئر التي تردها الجمال، و ذلك القصر المتداعي، و البدو الذين يسكنونه، كل ذلك يوحي إلى الفنان بفكرة لوحة أصيلة.

كان هناك على بعد عدة فراسخ بئر أخرى، تسمى بئر السويس، بسبب قربها من المدينة التي منحتها اسمها، و لكن ماءها أجاج و لا يصلح إلا للمواشي، و هي محاطة بالأسوار أيضا، و كانت في تلك الأثناء قافلة تحمل الرقيق قد توقفت عندها. كان العبيد السود عراة تماما، و يجلسون على الرمل و قد اختلطوا بالجمال، و هم يتناولون طعام الغداء المتواضع المكون من قبضة من التمر و قطعة/ ۲۱/ من الخبز العربي المدور و المرقوق كأنه الصحن، و الطرق كلاالسفيج، عجينة لم تختمر، و لم ينضج كما ينبغي له، و قد وجدت له في كل مكان أكلته فيه طعما غير مستحب هو طعم النحاس. لم يكن يبدو أن أولئك الأحداث الذين أخذوا من أسرهم صغارا يشعرون بما هم فيه من أسى، بل كانوا تحت مراقبة الجلاب و سوطه يترنمون فرحين بصوت خافت و كأنهم جماعة نحل. إن الرق في الشرق أقل صعوبة مما هو عليه في الغرب، و ستسنح لي الفرصة بلا شك كي أعود إلى الحديث عن تطور تجارة الرقيق و وضع العبيد عند المسلمين .

لقد تغير مدى الرؤية، و بدأنا نلمح البحر الأحمر الذي تحجز الأوصاف عن نعت لونه الأزرق الصافي. و كانت جبال الجزيرة العربية تنتصب في الجنوب الشرقي، و يعلو كل ذلك القسم الجزائري لسلسلة جبال سيناء الممتدة على شكل مدرج حتى أبعد نقطة في الأفق. كان منظرها رائعا، و كانت

الذكريات الجليلة التي تستدعيها تلك الجبال تطبعها بطابع هو أكثر مهابة و جلالا. وصلنا في ظهيرة اليوم الرابع من الرحلة إلى أبواب السويس، و قبل أن تجاوز باب المدينة، و نذالف إلى الأماكن المأهولة وجدتني مدفوعا إلى الاعتراف بأن الرحلة في كل مراحلها، و ساعاتها، لم تحدث في نفسي أيا من تلك المشاعر المثيرة/ ۲۲/ و الاحتفالية التي شعرت بها بعد ذلك في صحراء النوبة الكبرى و في صحراء السودان التي كانت تغريني بجدتها المثيرة على الدوام، و لكنها لم تشعرني بالزهد و عدم الاهتمام.

إن لخيبة الأمل هذه أسبابا عدة: أولها أن جبل المقطم يقطع صحراء السويس طويلا، فيحجب أفق الرؤية من هذا الجانب، و لا يتوغ إلا من الجانب الآخر توغا محدودا بسبب الهضاب التي تنتشر فيه.

إن مثل هذه المناظر ليست مصدر لذة تأملية، و لا مصدر شعور باللامتناهي، الذي يمكن لمنظر الرمال الممتدة بلا حدود، كما هي الحال مع البحر بلا شاطئ، أن يبث الروح فيها وحده. و إذا كان المكان ضيقا، فإن الشعور بالوحدة هو الآخر كان غائبا، و قد قلت في البداية: إن بعض المخترعات التي أصبحت قديمة بالنسبة إليّ، و إن بعض وسائل الترفيه الشائعة في الحياة الغربية التي لا تأتي إلى هنا بحثا عنها، كل ذلك، غزا هذه الصحراء و أفسدها، و غير حياتها البدائية: نشم رائحة الإنسان فيها و نراه كثيرا، ليس إنسان الخيمة و الحرية، و لكن إنسان الوكالات الأجنبية و المصانع. و ليس في ذلك أي جواب مغربية، و ليس بالمستغرب أن تفسد على تلك الصورة غير المناسبة أولى خطواتي في هذه الطبيعة الموحشة. أرجع مع ذلك إلى الحديث عن السويس/ ۲۳/.

الفصل الثاني السويس

إن موقع السويس الهام، في قلب خليج على البحر الأحمر، جعل منها منذ أمد بعيد مركزا تجاريا مهما. و كان بطليموس فيلادلف Ptolme Philadelphe الذي شق بين النيل و البحر الأحمر قناة ما زلنا حتى اليوم نجد بعض آثارها مدفونة تحت الرمال؛ و هو ابن وريث الإسكندر الأكبر، قد أطلق على هذه المدينة اسم أخته أرزينوي Arsino التي كان مشغوفا بها، و تزوجها حسب تقاليد سلالة البطالمة Des Lagides . أما اسمها الحديث «السويس»

فإن بعض علماء الاستشراق الجريئين يرون فيه تحريفا لكلمة:Oasis التي تعني بالعربية: الواحة. فإن كان الأمر كذلك، فإن هناك تباعدا بين الاسم و المسمّى: لأن السويس بعيدة عن أن تكون واحة؛ إذ ليس فيها شجرة واحدة، و لا خيط ماء رفيع، و ليس هناك ما هو أكثر قحطا منها، و لا ما هو أكثر كآبة منها. إنها أرض ضيقة محصورة بين البحر و الصحراء؛ و هما محيطان يغزوان الأرض و يحطمانها، و هي تكافح بصعوبة ضد هذين المعدوّين المخيفين.

فالبحر يشق و يقضم بلا كلل و لا ملل، الرأس الترابي الذي تقع عليه، أما الرمل فيزحف إليها في كل يوم، و لم تعد تتسع/ ۲۴/ إلا بصعوبة للأربعة أو الخمسة آلاف نسمة الذين لم يغادروها . إن من يقرأ عدد السفع التجارية التي تفخر السويس بأنها مركز تجمعها: كالمعادن، و النسيج من أوروبا، و الحرير و التوابل من الهند، منتجات مصر و الجزيرة العربية، و الرز و الصوف، و العطور و الجواهر و اللن اليمني- يتوقع أن يجد مدينة مزدهرة في إمبراطورية الخلفاء، التي تحدثنا عن روعتها ألف ليلة و ليلة.

ليس هناك شيء من ذلك. فكل تلك السفع الثمينة تعبرها ليس إلا، دون أن تتوقف إلا في محطات الصحراء، و إن تجارتها البائسة، تسيطر عليها جماعة من الوسطاء اليونانيين الذين لا يعملون لحسابهم. أما السويس نفسها فهي لا تبيع شيئا، لأنها لا تنتج أبسط الحاجات الضرورية الأولية، ماذا أقول؟ لا ينمو فيها أي نوع من الخضار، و ليس هناك قطعة واحدة من العشب الأخضر على أديمها، و لا يهديها البحر إلا بعض الأسماك القليلة و الصغيرة. يأتيها كل شيء، من القاهرة، و ليس فيها الماء الذي تشربه الحيوانات، و الذي ينبغي أن يذهب الناس إلى مكان يبعد أكثر من مرحلة للبحث عنه، أما الماء الذي يشربه البشر

فهو أكثر بعدا أيضا؛ إذ يذهب الناس بحثا عنه إلى بركة موسى، الواقعة على الشاطئ الآخر لخليج السويس، و إن هذا الماء الذي لا يقل ثمنه عن قرشين للقربة غير صالح للشرب دائما؛ و إن الأشخاص الحريصين على ما يشربون، لا يشربون إلا ماء النيل الذي يستقدم على ظهور الإبل عبر الصحراء، و ذلك مبالغ فيه للحصول على كأس من الماء./ ۲۵/ أما المدينة نفسها فلا تكاد تستحق الوصف، شوارعها و أزقتها ضيقة و ملتوية، و تعج بالغبار، و هي وسخة قذرة.

أما البيوت فسيئة العمارة، لا يهتم أصحابها بترميمها، و أغلبها من الخشب أو من اللّبن، و فيها بعض المساجد البسيطة، و منارتها أشد بساطة منها أيضا؛ فيها فنادق واسعة، و لكنها و سخة جدا، مخصصة للضباع و التجار، و فيها سوق واحد يفتقر في ثلاثة أرباع السنة إلى الحاجات الضرورية جدا؛ تلك هي اليوم حال تلك المدينة، التي كانت في سالف الدهر مزدهرة بلا شك، و يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه من ازدهار بل أكثر، عند ما يتم فتح القناة التي ستجعل منها واحدا من أهم الموانئ، التجارية، بل السياسية في العالم كله.

و إن لمبانيها، مع ذلك، و على حالته الراهنة، مكانة متوسطة، تحيط به بيوت صالحة للسكن، و له رصيف على البحر تجده بعض الأحيان يعج بالناس. إن هناك عددا كبيرا من المراكب المصنوعة محليا، و المخصصة لنحر عباب البحر الأحمر، و لكن عدد المراكب التي تقضي الليل في المرفأ يدل على أن حركة الملاحة ليست بالنشاط المطلوب. و قد كان أحد تلك المراكب المشحونة بالرقيق يفرغ حمولته البشرية لحظة وصولنا. يقيم قليل من الأوروبيين في هذا المكان الكئيب، و مع ذلك عرفت سيدة فرنسية يعمل زوجها بالتجارة في هذه الأنحاء، و كانت/ ۲۶/ تعيش في انتظاره مع ابنتها الجميلة البالغة من العمر ثمانية عشر عاما- في عزلة تكاد تكون مطلقة. و رأيت أيضا القنصل أو نائب القنصل البريطاني الذي تجدر الإشارة إلى أنه يسكن المنزل الذي كان ينزل به الجنرال نابليون في عام ۱۷۹۹ م. و كان ذلك القنصل يجمع بين وظيفة القنصل و وظيفة الوكيل التجاري لشركة الهند الشرقية؛ و إن هذه الازدواجية السياسية التجارية صفة مشتركة للقناصل البريطانيين جميعهم!

و لكنني أفضل القانون الفرنسي الذي يحظر التجارة على قناصلها؛ حفاظا على كرامتهم، و إن كانوا يخسرون ماديا.

لقد اكتسب موقع السويس بعض الأهمية لدى القنصل البريطاني منذ أن أصبحت شركة بريد الهند La malle des Indes تمر بهذا الطريق مرتين في الشهر؛ إذ أصبحت سفن بوماي و كلكتا تنزل في السويس الركاب الذين يذهبون إلى الإسكندرية ليركبوا السفينة إلى بريطانيا و بالعكس. و يحدث هذا في كل خمسة عشر يوما؛ نتاجا ينتج عن توفير الخدمات لمئتين أو ثلاث مئة شخص يزيدون أو ينقصون عن ذلك بقليل؛ مما يعني أن هناك متوسطا سنويا يبلغ ستة إلى سبعة آلاف راكب. ينزل هذا الجمع الموسمي من مسافري العبور في مصر، و كأنهم يريدون ابتلاعها، شأنهم شأن جراد موسى ؛ فأولئك الذين يصلون من بريطانيا يكادون يكونون جميعا من الشباب المشاغبين، و من الفتيات البيض المتوردات القوانى يأتين إلى المستعمرات الهندية للبحث عن أولئك الذين لهم

مكانة إدارية أو تجارية ليتخذن منهم أزواجا/ ۲۷. أنا في العودة فالمشهد يتغير، فالشباب أصبحوا رجالا سمرا، و قد شاخوا قبل سن الشيخوخة، و الفتيات أصبحن أمهات أو جدات.

لقد أقيم في السويس على شاطئ البحر، فندق برجاني واسع مخصص لإسكان القادمين و إطعامهم و سقايتهم، و ليس ذلك بيسير، بسبب نهم القادمين الجدد، و فقر السوق بالبضائع. حينئذ تصبح المدينة ضحية غزو أوروبي حقيقي. أما بقية العام فهي كئيبة ساكنة. أما في هذه الأيام، ففيها حركة مفتعلة، تكاد تكون محمومة، و ليس لها من نتائج إلا أنها تجعل السكون عند ما يعود أكثر عمقا، ثم تعود إلى حالة الخمود في اليوم التالي. و لما رفضنا النزول في محطة الطريق، و لم نرض بالنزول في الفندق البريطاني المريح فقد

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۵۳

عسكرنا في المدينة، و كأننا في الصحراء، لقد نصبنا خيامنا على الشاطئ، وسط عدد من المدافع المنصوبة في هذا المكان للدفاع عن الساحل- زعموا- و هي لم تستخدم و لن تستخدم أبدا، لقد كانت متروكة هنا دون أن يكون قريبها ظل حارس يسهر عليها، و لا تستخدم إلا لعبا للأطفال يلهون بها، و يطلقونها دون خوف و كأنها أخصصت خشبية. يمتد هذا الشاطئ، الواسع و الجميل كل الجمال بعيدا حتى سفح الجبل الذي يبدو منحدرا انحدارا عموديا في البحر.

أما الميناء، فيمتد إلى الجنوب و كأنه سماط أزرق،/ ۲۸، و تسد الأفق قمم سلسلة جبال سيناء الوعرة.

لقد كانت السويس قبل وصولنا بفترة وجيزة، مسرحا لاضطرابات شعبية ضد الأوروبيين الذين يسكنونها، فقد تجمع الناس أمام منازلهم، و بدأوا يكيلون لهم الشتائم و يهددونهم، و يرمون نوافذ بيوتهم بالحجارة، و كان يمكن لسلطات المدينة أن تعيد الهدوء إليها ببساطة، لأن الشعب المصري لين العريكة، و لا يحب الشراسة، و لكن حاكم المدينة لم يأبه للأمر، أو أنه تهاون في اتخاذ الإجراءات، معتقدا- دون شك- أن مثل هذا التصرف لا يعدم أن يعجب الباشا الحاكم، و يشجع الحقد المتطرف، و لم يكن بالتالي من الحكمة أن يبدي الحاكم حماسة بالغة لضبط الأمور في مثل هذه الأحوال. و لكن العاصفة مرت بسلام، و لم تخلّف أي أضرار، و هدأت وحدها، و لكن ليس دون أن تترك آثارها في الحالة الأوروبية في القاهرة.

وصلنا و المعمعة محتدمة، و تلقيت من يد مجهولة حجرا و أنا أتجول في أحد الأزقة القصية، و أقر أنه كان على التزام الحذر الواجب في مثل هذه الظروف، و عدم التخييم في العراء دون أن يكون لنا ما يحمي رؤوسنا إلّا سقوف خيامنا، و لكننا مع ذلك لم نكن نستطيع التراجع عن خطوتنا الجريئة؛ و لم يتعرض مخيمنا لأية مضايقة، و لكننا تعرضنا لحادثين/ ۲۹، من نوع آخر، و يحسن أن أسجلهما لتكونا عظة للرحالة الذين يسيرون على خطانا في المعاناة من حياة الرحيل و مشكلاتها البسيطة التي لا تخلو منها الحياة الإنسانية عموما، و حياة كل فرد على وجه الخصوص. كان يقوم على خدمتي شاب

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۵۴

أسود، كان من قبل في خدمة كلوت بيك Clot -Bey الذي اصطحبه إلى باريس، حيث تعلم الفرنسية هناك، و كان اسمه عبد الله، و كان يحب الموسيقى، و يحب أن يقنع بالمزمار، و هي بلا شك تسلية بريئة، إلّا أنها كانت مع ذلك وبالا علي. كان عبد الله في إحدى الأمسيات يتعطى أحد المدافع التي تحدثت عنها، و كأنه على ظهر حصان، و كان يقنع في آنه الموسيقية المفضلة، و قد نسي شمعة مضاءة في خيمتي مما تسبب في إشعال النار فيها، و أكلت النار الخيمة تماما، و حولتها إلى كومة من الرماد، و قد عانينا صعوبات جمة في إنقاذ أمتعتي الخاصة من ألسنة اللهب. و لست بحاجة إلى القول: إن أحدا من السكان الأصليين لم يفكر بمد يد العون لنا؛ و أشير هنا إلى جزئية تدل على التخلق بأخلاق الشرقيين؛ و هي أن أحد السكان من أصول بريطانية، كان يعمل موظفا في النقل، و كانت خيمتي منصوبة أمام البيت الذي يسكنه، و كان ينظر بيرود من نافذته إلى الخيمة تحترق، و لم يكلف نفسه عبء السؤال عن حاجتنا للمساعدة في هذه اللحظة الحرجة، مع أنني كنت أحمل إليه رسائل توصية.

أما الحادثة الثانية فتتمثل في أنه كان لدينا طباخ من القاهرة، و إن من ولدوا في هذه/ ۳۰، المدينة العاصمة يحبونها حبا لا يستطيعون معه الابتعاد عنها إلّا على مضض. و مع ذلك فإن طباخنا العربي وافق على مرافقتنا، و هو يظن أننا إن نذهب إلى أبعد من جبل سيناء. و منذ أن علم أننا سنمضي في رحلتنا حتى جدة، بل أبعد من ذلك، تراجع عن مرافقتنا، و لم يكن هناك ما يمكن أن يغريه بالسير خطوة واحدة، حتى التقود. لقد كنا في حيرة من أمرنا، لأننا كنا بحاجة ماسة إلى أي طباخ بسبب طبيعة الرحلة التي نوى القيام بها.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۵۵

و كانت الوسيلة الوحيدة أن نحاول إيجاد طباخ في السويس، و يبدو أن أقدار الله ساعدتنا فساقت إلينا خادمه مازانيGasparo Mazzanti، و هو من سكان فلورنسة الأصليين، و كان يتحدث اللغة التوسكانيةToscan بلهجة واضحة، خاصة بأهل فلورنسة، و لم يكن يعرف أي كلمة عربية، على الرغم من أنه أقام في مصر خمسة عشر عاما، بعد أن ساقه إليها خلافات أسرية، و كان يتملك مطعما في الإسكندرية، و كان في هذه الأثناء، موجودا بالمصادفة في السويس، و عرض علينا خدماته، فقبلنا، و قد كان على استعداد للذهاب معنا إلى آخر الدنيا من أجل عشر ليرات Talari في الشهر. لقد قضى هذا الرجل الشجاع في خدمتي ثمانية أشهر كان خلالها مثالا في الثقاني و الاستقامة، و إن مثل هذا الخلق أصبح نادرا كل الندرة لدى الأوروبيين الذين يقيمون في الشرق، حتى إنه ينبغي الوقوف عنده و تسجيله.

ترسل فرنسا إلى السويس قنصلا، و لكنه بالطبع يفضل الإقامة/ ۳۱، في القاهرة أو الإسكندرية على الإقامة في هذا المنفى. و يدير أعمال القنصلية التي لا تكاد تذكر في غيابه تاجر من السكان الأصليين اسمه كوستاCosta ؛ و هو يونناني الأصل كما أظن. و هو لا يقن لغة البلد التي يمثلها، و لكنه في مقابل ذلك يقن الحديث بالعربية، و يحفظ عددا من الحكايات و القصص الممتعة التي يوشّي بها أحاديثه. و قد كان أحمد أبناءه يتكلم الفرنسية، فأفدنا منه فوائد جمة، و لا يسعني إلا الإشادة بما قدمه لي من خدمات جيدة إبان إقامتي.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۵۶

كنا بحاجة إلى مركب يحملنا إلى جدة، و لم يكن الحصول على مركب يناسبنا بالسهولة التي نعتقدها، لأن مراكب السويس كلها مرفقة، و مسجلة، ليحر كل واحد بدوره، دون أن يكون بالإمكان تغيير الدور أبدا. إذا، لا نستطيع اختيار المركب الذي نريد، و نحن مجبرون على ركوب المركب الذي جاء دوره في الإبحار سواء كان مناسبا أم لا. لم يكن هذا الأمر ليناسبنا، و لم يكن يوسعنا تجاوز ذلك إلّا بموافقة الحاكم، و قد كان بلا شك سيوافق على استثنائنا من الدور، و لكن كان ينبغي طلب ذلك، و هو إجراء شكلي ممل. وجدنا أنفسنا بفضل المصادفة و كوستا في غير حاجة لطلب مساعدة أحد، أو لدفع شيء، و هما أمران متطابقان في الشرق. لقد كان يرسو في المرفأ/ ۳۲، مركب من جدة، و لم يكن ينتظر للعودة إليها إلّا أن يجد أي حمولة كانت، لقد استأجرناه كاملا لنا و لمرافقينا و لأمتعتنا مقابل مبلغ بسيط يبلغ ألف قرش ؛ و هو بالتأكيد مبلغ تافه إذا علمنا أن المسافة تبلغ ستة آلاف كيلومتر بحرية، ناهيك عن أنه كان على المركب أن ينتظرنا في الطور الزمن اللازم لزيارة جبل سيناء. و قد وقع كوستا نفسه عقدا بالعربية، و ختمه بالختام القنصلي زيادة في الاحتراز.

و لم يكن يرتون ليسافر معنا لأنه كان، كما قلت سابقا، ذاهبا للالتحاق بوحدته العسكرية في يومياي. و إن الباخرة التي ستحمله إلى هناك مع الركاب البريطانيين الآخرين، التي كان وصولها إلى السويس منتظرا بين لحظة و أخرى، رست على بعد خمسة أو ستة أميال عن الشاطئ،/ لأن ضحالة البحر لا تسمح للفلق البحرية الكبيرة بالاقتراب أكثر، دون أن تتعرض للخطر. و كان أحد الزوارق التابعة للباخرة يؤمن الاتصال بينها و بين المدينة، و يقوم بعدد من الرحلات بينهما يوميا، و كان على متنه ثمانية أو عشرة من الشجعان الذين يرتدون سترا بيضاء و أحزمة حمراء، و كان يسير على وجه الماء المستوى كأنه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۵۷

طائر الق Pe ?trel .

و قدم لي الشيخ عبد الله، أعني يرتون، عند الفراق تذكارا منه نسخة من القرآن الكريم كان يحملها معه إبان/ ۳۳، الوقوف على عرفات؛ و هي الشعيرة التي يتوج بها الحج إلى مكة المكرمة، و التي تكفل للمؤمن أن يحمل اللقب الأثير (الحاج)، و كان على المصحف إهداء بالعربية كتبه يرتون بخطه، يسجل الذكرى، و يحدد تاريخ تلك الأيام التي لا تنسى في حياة المسلم، و لعلها أكثر رسوخا في حياة مسيحي.

إذا، غادرت السويس مع رفيق رحلة واحد، و هو إنكليزي أيضا، يتحدث العربية جيدا، و يكنها عند الحاجة، و كان يتجول مسافرا في الشرق منذ عدد من السنين، و إن حياة المغامرة التي كان يعيشها تستحق أن أشير إليها، و ربما سأخصها فيما سيأتي بإشارة تكاد تكون غير مثرفة.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۵۹

الفصل الثالث العور

أبحرنا يوم الحادي و العشرين من يناير (كانون الثاني) في الساعة الثانية، و نشرت الأشرعة بعد ذلك بقليل، و لكن إبحارنا لم يدم إلا فترة بسيطة، لأننا ألقينا المراسي في الساعة الرابعة عند سفح جبل أبو دراج لقضاء الليلة هناك، مع أن البحر كان هادئا، و الريح مؤاتية، و لم يكن هناك ما يمنع مواصلة الإبحار. و لكن مراكب البحر الأحمر لا تبحر عباب البحر إلّا في النهار، ناهيك عن أننا كنا على مسافة قريبة من بركة فرعون ، و هو اسم يطلقه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۶۰

العرب/ ۳۴، على مكان هلاكه، و يظنون أنه، منذ ذلك، مسكون بجان أشرار: لذلك لا يخاطر البحارة بقطع تلك اللجة الفسحة ليلا، إنهم يفعلون ذلك بصعوبة في وضح النهار، و لا يفعلونه إلّا بعد أن يصالحوا الأرواح الشريرة بأن يقوموا بممارسات خرافية.

إننا هنا في قلب الذكريات الموسوية. فهناك غير بعيد على الأرض حمام طبيعي يحمل اسم نبي إسرائيل؛ حمام سيدنا موسى ، و قد تركنا وراءنا عينا مشهورة تحمل اسمه أيضا، عيون موسى ، و تبدو بيضاء، اللون على الشاطئ، في وسط أشجار النخيل. و من هذه العيون تتزود مدينة السويس بماء الشرب كما ذكرنا سابقا، و هو مكان يقصده المسافرون. لقد زارها نابليون بونابرت نفسه إبان إقامته في مصر، دون أن يمضي في التقصي أبعد من ذلك.

و يروى أنه فوجئ، خلال عودته بالمدّ، و تعرّض لخطر حقيقي عند ما عبر الماء، حصانه حتى بطنه، و لم ينج من هذه العثرة إلّا بمساعدة البدو الذين سارعوا إلى مساعدته. لنفترض أن إمبراطور المستقبل هلّك هنا، و لتصور التغيير الذي كان سيحدث في مصير العالم! يا له من مجال مفتوح لتخمينات ! و ينتصب

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۶۱

في مقابل عين موسى نفرتيا، على الجانب المواجه جبل عتاقة ، كأنه عملاق من الحجارة شهد منذ أكثر من أربعين قرنا مرور رهط من المصريين على سفوحه، و على رأسهم فرعون/ ۳۵، يطاردون بني إسرائيل.

كانت الليلة جميلة صافية، و لم يمكر صفو الهدوء إلا أصوات الأمواج التي تتكسر على جانب المركب الراسي. و كان القمر يلقي على جبال الشاطئين ضوءا خافتا. كنت أرى تلك الجبال يكسوها الضباب، و لكنها بادية للعيان، و خلفيتها السماء المزينة بالنجوم، و منها ما ينتمي إلى آسيا، و منها ما ينتمي إلى إفريقيا، و قد جال بخاطري بانفعال، و أنا أراها، أنني هنا معلق، إن صح القول، بين عالمين؛ إفريقيا التي أبتعد عنها، لأعود إليها قريبا، و آسيا الشاهية التي عظوها قدماي أول مرة.

يفصل بين العالمين خليج ضيق، يبدوان كأن كلا منهما يحدق بالآخر، كمدوين جاهزين، لأن يلقي أحدهما بنفسه على الآخر. و لكن قوة التوسع و روح الغزو التي تنتج عنها ينتميان إلى آسيا، و قد دفعاها إلى مد سلطتها خارج حدودها في عصور التاريخ المختلفة، و جعلاها في الماضي تؤدي دورا رائعا.

أما إفريقيا فهي على العكس عنصر المقاومة و الثبات: مع بعض الاستثناءات المعدودة، القرطاجيون على سبيل المثال الذين امتدت سلطتهم بعيدا، و حدتهم أنفسهم في لحظة بالابتلاء على ثروة روما، علما بأنهم من أصل فينيقي/ أي آسيوي، و لم تواجه إفريقيا/ ۳۶/ الغزاة الخارجيين إلا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۶۲

بمقاومة سلبية، تحولت بعد ذلك إلى مقاومة بخشاها الأهداء، و لا يمكن في الغالب فهرها بسبب الظروف الطبيعية للأرض و الطقس.

كانت هاتان القارتان القاهضتان تقبعان هنا أمامي، و كأنهما أكبر مشكلتين تعترضان دراسات الباحثين، و تأملات المفكرين. إحدى المشكلتين، أعني آسيا، كاد العلماء، من زمن يصلون إلى حل نصف أسرارها، و يمكن أن نتوقع حلّ مشكلتها كليا في المستقبل القريب جدا. في حين أننا لا نكاد نلمح النخوم الأولية للمشكلة الثانية، إفريقيا التي استعصت حتى اليوم على الجهود المتعاضدة للعلم و الحرب و التجارة. و إن أكثر الرحلات الاستكشافية تخطيطا، التي نفذت بشجاعة فائقة لم تشتهر إلّا بالمصاعب التي آلت إليها! فكل عام يشهد هلاك واحد من أولئك الباحثين الشجعان، أما أولئك الذين يعودون؛ فإنهم يعودون بخفي حنين، و إن القضية، التي يذهبون من أجلها تظل بعد عودتهم بكرا كما كانت عليه عند انطلاقهم. و ليس علينا إلّا أن نلقي نظرة على أحدث الخرائط و أكملها لهذه المنطقة من العالم، ليطيا الحزن، و تجد أنفسنا معنيين بالفراغ المريع المنتشر على تلك الخرائط: هذا محيط صغير، ما زال يغتر هو أيضا إلى الأسماء الصحيحة، أما الباقي فهو بياض واسع تجهد أنفسنا بلا طائل لملئه، و ربما لن تستطيع أبدا ملأه. إن تلك المساحات الواسعة من الأراضي المجهولة تشعر روّيتها بالخوف/ ۳۷/ و تجيف، بقدر ما ترعب. هل يعقل أن الجنس البشري بعد ستة آلاف سنة من الوجود، لا يملك إلّا معلومات قليلة و مضطربة عن الكون الضيق الذي يسكنه؟ كان القمر ما يزال مضيئا عند ما نشرنا أشرعتنا عند طلوع الشمس، و عبرنا بركة فرعون المجيفة، و أبحرنا حتى المساء، في ظروف مؤاتية، و كنا لا نزال نرى الشاطئ، الإفريقي، و خصوصا جبل غريب الفسحم، و إن كان الشاطئ، الإفريقي قد بدأ يضيق شيئا فشيئا بالنسبة إلى الشاطئ، الآسيوي. و إن أقرب الجبال من هذا الشاطئ، هما جبلا جقم Djkem(۴) و دعد Da'ad(۴) ، و كلاهما أجرد. لقد انقضى اليوم دون أي

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۶۳

حادث. ورسا مركبنا عند الفسق في خليج صغير، آمن كل الأمان، يتشكل من اتحاد بسيط من جبال عتيزة (۴) Nayazat ، الذي ينتمي شأنه شأن الجبلين السابقين إلى السلسلة الجرانيتية لسيناء. و مرت الليلة الثانية كما مرت الأولى.

و فى اليوم التالى، كنا عند طلوع الفجر قد أبحرنا، تساعدنا فى ذلك ريح منعشة و مؤاتية، و لم تلبث أن تجاوزنا رأس صوبير، و عند الظهيرة كنا فى الطور Tor و ليس Thor كما نكتب على الخرائط. ها أننا فى آسيا، و لكن هذه الأم القديمة للجنس البشرى، بدت لى للوهلة الأولى بملامح مغرية.

اشتهرت الطور فى غابر الأزمان و قيروزها، و لكنها منذ زمن طويل نسيت صيد/ ۳۸/ اللؤلؤ، و فقدت مناجم الفيروز، و أجهل ما ستكون عليه فى الأيام القادمة. و لكننى أعلم اليوم أنها بلدة صغيرة كريهة، تسكنها جالية يونانية غير مضيا و جشعة، تجعل المرء يحن إلى العرب، بل إلى الأتراك، و شيخ البلد يونانى من سكان المدينة يسمى كوستانديCostandi، كتب أجمل له رسالة من كوستا، و لكنه لم يكلف نفسه عناء تقديم القهوة أو الشيشة، و هما علامتان أساسيتان من علامات اللياقة الشرقية فى مجال التمدن. تقدم القهوة لكل الناس دون تمييز، و تقدم الشيشة إلى من هم على منزلة باعتبارها علامة من علامات الاحترام، و إلى الأقران باعتبارها من علامات الشهامة. و يقيم فى الطور أحد العرفاء البسطاء (إباضى) مع حامية مؤلفة من عشرة جنود إقامة

سيئة، و قد كان أكثر كرما من اليونانى: إذ على الرغم من أنه كان فقيرا حتى إنه لا يستطيع تقديم القهوة كما تقتضى عادات الضيافة، إلّا أنه أجرى على استخدام شيشته الخاصة لأنه لا يملك أخرى، و قد فرش لى على المقعد الحجرى الذى كان يتخذه مقعدا، أجمل سجادة يملكها: إن فى الطور مسجدا يقع فى موقع جذاب على شاطىء البحر، و فيها أيضا كنيسة إغريقية و سحّة و مظلمة، بيد أننى وجدت فيها عددا من الكتب و اللوحات القريبة، و استقبلنى فيها راهب عجوز يقنع بقارئين. أما من الناحية الروحية فإن المدينة، إن كان هناك مدينة، تابعة لرئيس الأساقفة الإغريقى لجبل سيناء، و سياسيا لباشا مصر الذى تمتد سلطته حتى هذا المكان. و شاهد فيها أيضا بقايا سور كان يحيط بالمكان، و بقايا حصن صغير/ ۳۹/ أنشأه السلطان سليم الأول، الذى حضّن كل المواقع المتقدمة فى إمبراطوريته. لقد بنى الحائط و الحصن، و كذلك بيوت المدينة من الحجارة المزينة بالأصداف التى تكثر على شواطىء البحر الأحمر.

إن أفضل ما فى الطور ماؤها: و إن المراكب التى تمر فى هذه المنطقة لا تعدم التزود بالماء و تخزينه، مما يمنح مياه الطور بعض الحيوية و الحركة. يحيط بالمدينة سهل رملى، لا تجد فيه من النبات إلّا طاقات متفرقة من نبات قصير و معمّر يكثر فى كل الصحارى، و له ثمر صغير أحمر له طعم لذيذ. و تغمر مياه المد القسم الأدنى من السهل، و يتركك المد بعد انحساره فى ذلك القسم ملحا، و يمتد ذلك السهل من جهة الشرق حتى يتصل بسلسلة طويلة من الجبال لها هيئة سوداء قاتمة، و تشكل قمة سربال الجبلية نقطة الذروة فيها، و تبعد بعض الأميال عن المدينة صعودا نحو الشمال فيضة أشجار

تكاد تكون غابة من النخيل، أشجارها شديدة الكثافة، يتصل بعضها ببعض فلا تستطيع المرور عبرها إلا بصعوبة بالغة. و تعود ملكية هذا البستان فى معظمها إلى دير جبل سيناء، و لكنها ملكية تكاد تكون شكلية لأن المالكات لا يستطيع أبدا أن يجنى ثمارها لأن بدو الجوار يسارعون إلى جنيها/ ۴۰/ و يستولون فى كل سنة على بواكر المحصول، بل على المحصول كله، و قد فكر الرهبان فى وضع أحدهم للحراسة، و لكن الناظور المتشكك أعلق على نفسه فى حصن ما زلنا نرى بقاياه، و لا يمكن الوصول إليه إلّا بارتقاء السلم، و كان بتنابه ذعر شديد من السارقين حتى إنه لم يكن يغادر مكان سكنه، و لا يسمح لأحد بالدخول إليه باستثناء خادم مكلف بأن يحمل إليه فى كل أسبوع الماء و الطعام. و كان البدو فى أثناء ذلك يجنون غصبا الثمور التى ينبغى أن يحرسوها و يأكلوها. إنهم يعيشون على الأرض التى يملكها الدير، و كأنهم فى بلاد من بلاد الفتوح.

إن هذه الواحة الجميلة محمية من الشمال بجبل حتام الذى تتباين صخوره الكلسية مع الخضرة الندية التى تكسو طوال العام العينين الفيروزتين اللتين تتطحران من أسفل الجبل: إحداهما شديدة البرودة، صافية كل الصفاء، و لها طعم لذيذ؛ أما الأخرى فهى على العكس حارة، يكثر فيها الحديد، و مثيرة تماما بالكبريت. و قد بنى على هذه الأخيرة بناء محكم الإغلاق، جيد المواقع لتوفير الراحة لمن يريدون الساحة فيها، و لم يفتن الاستحمام فيها/ و قد كان حماما رائعا بقيت آثارا طوالا بعده أشهر بالنظافة من آثره.

يسقى هذا الحمام المعدنى فى البلد: حتام فرعون. أما العين المجاورة/ ۴۱/ فهى عين مشهورة لها مكانة عالية، تعرف باسم: عين موسى.

و نلاحظ هنا أيضا الذكريات التوراتية. و ينتصب وراء جبل حتام جبل آخر اسمه جبل الناقوس؛ و هى تسمية غريبة فى بلد لا يعرف الناقوس، و هى ممنوعة فيه. و ترعم الحكاية الخرافية: أنه كان فى القديم دير مسيحى فى هذه البقعة، و أن الأرض ابتلعته فى أعماقها، و أننا منذ ذلك الوقت نسمع أصوات الناقوس كل يوم عند الظهيرة أى فى الساعة الثالثة بعد الظهر. و إن كان صحيحا وجود مثل هذه الأصوات المعجزة التى لم أستطع التحقق من وجودها؛ فإن سبب حدوث ذلك قد يكون سيلا فى داخل الأرض، أو بركانا ينفجر تحت الأرض. و إن وجود العينين المتضجرتين اللتين تحدثنا عنهما قبل قليل، إحداهما قرب الأخرى، مع أن طبيعة كل منهما، و درجة حرارته مختلفة عن الأخرى اختلافا كليا، يدل بما لا يترك مجالا للشك على الوجود المتزامن، و الفعل المتقطع أو المستمر، للماء و النار فى أعماق الأرض الغامضة. و لما عدنا من هذه الرحلة، وجدنا رئيس مركبنا؛ و الريس اسم يطلقه العرب على قباطنة المراكب، جالسا مع بعض بحارته على باب منزل متداع يقع خارج المدينة، بحميه من الشمس إفريز من سعف النخل، تحمله متداع يقع خارج المدينة، بحميه من الشمس إفريز من سعف النخل، تحمله قضبان من الحديد طويلة مغروزة فى الرمل؛ و تلك هى صورة المقهى فى الطور، و تحتسى فيه مقابل عدد قليل من البارات القهوة قبل كل شىء، ثم

الشيشة المعترف، و الماء البارد حسب الطلب/ ۴۲/ يقدم كل ذلك صاحب المقهى بنفسه، عن طيب خاطر، و لكن إياك أن تطلب منه أى شىء آخر. كان بحارتنا هناك يجلسون القرفصاء، و الشيشة فى أفواههم، و كؤوس القهوة فى أيديهم؛ و كم أصبحت أثيرا لديهم، عند ما ضاعفت لهم كمية القهوة و الدخان أربع مرات، بل عشر مرات على حسابى، و العرب يقدرون ذلك كثيرا. لقد أصبح أولئك البحارة، بعد أن شربوا ذلك القدر الكبير من القهوة، و دخنوا كمية كبيرة من التباكى على حسابى، يعرفون أننى مستعد لأن أقدم لهم دائما مثل ذلك. و يستهلك العربى كمية كبيرة من القهوة و الدخان. ذكرت فيما مضى أن أحد بنود عقد استئجار السفينة الذى وقعناه فى السويس بحضور كوستا، يقضى بأن ينتظرنا المركب فى الطور إلى حين عودتنا من الرحلة إلى جبل سيناء، و حددت أيام الانتظار بخمسة. و لكى يرّ الريس على كرمى بأحسن منه قال لى راضيا: إنه لا ينبغى على إرهاق نفسى، و إن باستطاعتى القيام بالرحلة على مهل، و إنه سينتظرنى الوقت الذى يناسبنى. و قد كنت قد تعلمت من التجربة، و على حساب مصالحى فى بعض الأحيان، أن العربى لا يعرف الاستعجال أبدا، و قد أعجبت بصبر هذا الريس المتطوع؛ و لو كنت فى مكانه، محكوما على، شأنه، الإقامة لأسابيع طويلة فى هذا المكان الثانى، لم أكن بالتأكيد لأنظر لمأمور بهذا القدر من التعقل: لأنه ليس أمام المرء، فى مثل هذا الحجر، إلّا الرحيل/ ۴۳/ و قد غادرته فى اليوم التالى. تركنا القسم الأعظم من أمتعتنا فى المركب، بحرسه أحد الخدم، و لكى نتخفف فى أثناء السفر، لم نحمل معنا إلا ما لا يمكن الاستغناء عنه؛ فتقلصت قافلتنا نتيجة ذلك إلى ستة جمال، منهما اثنان من الهجن، أو يزعم أنهما كذلك. لقد طمنونى فى طفولتى، و ما زالوا على الأرجح يطمنون الأطفال حتى اليوم، أن للهجان ستامين فى حين أن الجمل ليس له إلا ستام واحد؛ و قد رأيتها مرسومة كذلك فى عدد كبير من كتب التاريخ الطبيعى، و هذا خطأ: ليس للنوعين إلا ستام واحد، و لا وجود فى أى مكان، كما أعلم، إن لم يكن فى البت، لحيوان من هذا النوع، له ستامان. إن مقام الهجن بين الجمال كمقام فرس

الركوب بين الخيل التى نجر العربات، و لا يتميز منها إلّا بدقة أعضائه، و بكرم نسبه. تمتطى الأول، أما الثانى فيستخدم لحمل الأمتعة. إن الجمل بطىء، الحركة ثقيلها، و صعب المراس، و يهتز جسمه فى أثناء سيره اهتزازات مزعجة جدا، تسبب فى غالب الأحيان دوارا كدوار البحر لأولئك الذين لم يعتادوا ركوبه؛ أما الهجان فإنه، على العكس مما سبق، ذو خطوة رائقة و مريحة، و سيره لطيف، و إذا أحسن تدريبه فإن راكبه يستطيع فى أثناء سيره تناول فنجان من القهوة دون أن تسكب منه نقطة واحدة، و هو سريع/ ۴۴/ يستطيع قطع ما يربو على أربع مراحل فى اليوم، دون أكل أو شرب. و بمضى الخيال العربى إلى أبعد من ذلك، فيزعم أن الهجان الأصيل يقطع أربعا و عشرين مرحلة فى اليوم الواحد. كانت المرة الأولى التى أمتطى فيها هجانا، لذلك بدوت متململا بعض الانعمال، خصوصا أن الهجان الذى كان مخصصا لركوبى كان طويل الساقين، و كان رحله يشبه كل الشبه أرحل البدو الذين قابلتهم فى صحراء السويس، و كان له جربان طويلان يتدليان على الجانبين. كان الرحل نفسه عاليا علوا كبيرا، و كان، كالمعتاد، موضوعا فى أعلى السنام مما يجعله أكثر علوا أيضا. كنت على بعد عشرة أقدام من الأرض. ناهيك عن أن الرحل العربى عريض، و لا يمكن الركوب عليه برجلين متدليتين، و لا تستطيع الاستواء عليه إلّا جلوسا، و القدمان ممدودتان إلى الأمام على عنق الحيوان، و ليس لتوجيه الحيوان الوجهة التى تريدها إلا مجرد زمام. و لما أنهيت رحلة الصعود، و رأيتنى معلقا فى هذا العلو، و لجة عميقة على يمينى، و أخرى على يسارى، تساءلت إن كنت لن أصاب بالدوار؟ و شعرت بأننى غير مستقر على قاعدتى، و أننى سأقع منذ الخطوة الأولى. لم تكد تلك الألّة المخيفة تبدأ السير حتى فقدت/ ۴۵/ توازنى تماما، و إن كنت لم ألمح فلأننى تمسكت بقربوسى الرحل اللذين يؤديان للمبتدئين بركوب الهجن خدمة جلى، و أحدهما مثبت فى مقدمة الرحل، و الثانى فى مؤخرته، و يبلغ طولهما قدما واحدا. لم تدم فترة تدريبى زمنا طويلا؛ و سرعان ما اعتدت على ركوبى الجديد، حتى أصبح بإمكانى إناخته عند ما أريد النزول، و إنهاضه بعد الصعود دون أن أكون.

كنا فى البداية، بحاجة إلى مساعدة أحد. و انتهى بى الأمر إلى اعتياد ركوب ذلك الرحل، المقلق فى البداية، و الذى صرت أجلس عليه براحة كما لو أننى أجلس على كرسى و ثير بفضل السجادة التى تغطيه. و أعجبت كل الإعجاب على الخصوص بالخزين اللذين يتدليان على الجانبين، و اللذين يسمحان بأن تجد بالقرب منك كل الأشياء الضرورية للسفر، باختصار، إنى لم أجد بين وسائل الانتقال المختلفة التى جربتها على الأرض، و فى البحر، أفضل و أسهل من الهجين، و ليس بين تلك الوسائل ما هو أكثر ميزات و أقل مساوىء، منها جربتها مدة تقارب ستة أشهر متتالية، دون أى حادث، و دون تعب، و دون مزعجات/ ۴۶/.

الفصل الرابع جبل سيناء

لئن كنت حزينا لأننى وجدت طريقا عريضة بين القاهرة و السويس، لقد كنت أكثر حزنا عند ما وجدت طريقا أخرى بين الطور و جبل سيناء. يمكن أن نسوغ وجود الأولى بأنها ضرورية، و لكن هذه الثانية، ما الحاجة إليها؟ ليس هناك أى ضرورة لها، و ليس هناك ما يسوغ وجودها. و لكى أوضح سبب وجودها ينبغى أن أعود مرة أخرى إلى عباس باشا.

رأينا فيما سبق أن عباس باشا الذى وجد أن العاصمة قريبة جدا من القاهرة، أمر ببناء قصر دار البيضاء، فى قلب الصحراء، و لكنه بعد ذلك وجد أن الدار البيضاء، ليست بعيدة عن كل ما يود الهروب منه؛ فزين له خاله أن يأمر ببناء، قصر جديد على واحدة من أكثر قمم سلسلة جبال سيناء جدبة، و أكثرها كآبة، و أكثرها صعوبة وصول. هنا على الأقل لن يرى قبعات، و لن يطارده القناصل فى ذلك المكان العالى.

و منذ أن تم اختيار موقع البناء، و قبل أن يبدأ بتأسيسه، أو إرساء، مخطط هذا القصر المعلق بين الأرض و السماء، كأنه و كر طير من الكواسر، أمر عباس ماشرة بشق طريق لكى يذهب/ ۴۷/ إليه بالسيارة؛ لأنه أصيب بسبب فجوره بعاهة منعته من ركوب الخيل و الهجن. و ما إن صدر الأمر حتى بدأ العمل بالمشروع بإشراف مهندسين فرنسيين يدربان لاتمامه جيشا من العمال المهرة. كان ثلث الطريق قد تم إنجازه، عند ما مات عباس، و أظن أن الأعمال

قد توقفت بعد موته، و لم يعد إنشاء هذا القصر الخيالى فى جبل سيناء واردا.

و زعم الناس أن هذا المشروع المتهور كان يخفى وراءه نوايا سياسة خفية؛ فقد كان عباس باشا منذ بعض الوقت قد بدأ يستميل البدو القاطنين على الحدود السورية، و يقربهم منه، و يستقبلهم بترحاب، و لما ذهب لزيارتهم بنفسه، وعدهم بإعطائهم أحد أبنائه ليتخذ بينهم، و يتخلق بأخلاقهم و عاداتهم، و هذه عادة تمارس فى الجزيرة العربية إذ يترك أبناء الأشراف أسرهم بعد عدة أيام من ولادتهم، و يتنقلون من حضن أمهاتهم إلى خيام رجال القبائل، لكى يتدربوا على تقوية أجسادهم، و يعتادوا تحمل التعب، و لكى تلهج الركبان بأسمائهم، تلك كانت، كما يقال: النية الخفية، و الهدف السرى لباشا مصر. كان يأمل، و هو يرى الباب العالى متورطا فى حرب مدمرة مع روسيا، الاستفادة من الإنهاك الذى أصابه ليستولى من جديد، بمساعدة البدو، على ما كان يسيطر عليه جده محمد على/ ۴۸/ من مواقع فى سوريا أجبرته أوروبا على التخلى عنها.

و كان فى هذه الأثناء، و بانتظار الفرصة المناسبة، يرسل لقادة جيشه على مضض، قليلا من المال مما يحتاجونه فى الحرب. و عند ما سمع نبأ كارثة سينوب Sinope البحرية التى تم فيها إغراق الأسطول البحرى المصرى كله تقريبا، بدأ يكيل الشتائم المقذعة، ليس للقيصر، و إنما للسلطان التركى؛ و أود فى هذا المجال أن أسوق حادثة توضح طبيعة الرجل.

تذكر أن أحد قادة السفن المصرية قام فى ذلك اليوم المشئوم بتجنيب نفسه و سفينته بدل أن يستسلم للعدو؛ و قد أبدى كل الناس إعجابهم بهذه المأثرة الجريئة، باستثناء عباس: لأنه عاجز عن إدراك معنى الشجاعة، و الإخلاص، لم ير فى ذلك إلّا أنه خسر سفينة حربية، و صرخ بغضب: عارPesvink ! و هى شتيمة مقذعة بالتركية، كان لا ينى يرددها، شأنه شأن الغالبية

العظمى من الأتراك، و هى بالإطالية Ruffiano، لقد كانت تلك الشتيمة هى كل التأبين الذى استحقه منه ذلك البحار الشجاع، و لو استطاع العودة من لجة المحيط لدفنه عباس دون شك فى التراب لكى يعاقبه على بطولته.

تبلغ المسافة من الطور إلى دير جبل سيناء، خمسة و عشرين فرسخا؛ و هذا يعنى أن الجمل يحتاج إلى خمس و عشرين ساعة لقطعها، و إن الطريق التى كنت إن صح القول: أدشنها، باعتبارى أحد أول/ ۴۹/ المسافرين عليه، إن لم أكن أولهم، يتجه من الشمال منحدرا نحو الشرق؛ منطلقا من البحر، ثم يبتعد عنه ليقترب من جبل سربال، و لو كان بالإمكان، بدل أن يدور حول ذلك السور الطويل من

الجرائب، أن يحترقه، لأصبح أكثر قصراً و لكن الأمر غير ممكن. و لا يتميز الطريق عن الأرض التي تحيط به إلا بصلابته؛ مما يسمح للجمال بالسير عليه بسرعة أكبر من سرعة سيرها على الرمل الذي تغوص فيه أخفافها، على الرغم من أنها عريضة، و ليس على الطريق محطات أو عربات نقل، كما نجد على طرق السويس، و لا يسلكها أحد، و لم تقابل عليها أحدا طوال يوم كامل، أعطيت، لقد قابلنا أحداً، و هاكم من هو.

جماعة من البدو، كانوا متوقفين على قارعة الطريق مع جمالهم، و يبدو أنهم كانوا ينتظرون مرورنا، و قد بدا ذلك واضحاً؛ إذ ما كدنا نصل إليهم حتى دار نقاش حاد بينهم و بين جمّالتنا، و لم أستطع معرفة الموضوع الذي دار النقاش حوله بالتحديد، توقعت فقط بسبب كلمتي جمل و ثلرىTalari اللتين تكررتا أكثر من مئة مرة، أن الحديث يدور حول الجمال، و أن القضية لها علاقة بالنقود.

ينقسم بدو الطور (الظورة) إلى عدد من القبائل، منها: الصوالحة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۷۴

و المزينيين، و العليقات ، و تسيطر كل قبيلة على مساحة محددة من الصحراء، و تقتسم بينها حق تأجير الجمال/ ۵۰/ للتجار و المسافرين، و ينتج عن هذه الترتيبات خلافات مستمرة، و غالبا ما تكون معقدة كل التعقيد؛ و قد كنا على الأرجح نشهد خلافا من هذا النوع، دون أن تدخل فيه بالطبع من قريب أو بعيد.

و مهما يكن من أمر، و بعد كلام كثير، أنزلوا حمولة اثنين من جمالنا، و استبدلوا بهما اثنين آخرين، و يبدو أن هذه العملية أرضت كل الأطراف. أما نحن فإننا استفدنا من هذا التوقف الطويل، فطلبنا من الخادم المكلف تحضير القهوة؛ أن يحضرها؛ لأن لكل خادم في الشرق وظائفه المحددة، ثم قدمناها إلى ذلك الجمع، و افترقنا و نحن على وفاق تام.

لقد دار ذلك المشهد السلوكي على تخوم إحدى واحات النخيل التي كانت أقل جمالا و أقل ثباتا من واحة حمام التي تجاوزها، و التي تعد بلا شك امتدادا لها. و قد كان هناك في مكان غير بعيد بئر عامة (يستطيع كل الناس ورودها)، و كان يحميها من غزو الرمال مئاية مبنية. أقول: بئر عامة لأن الآبار في الصحراء تمتلكها عادة القبيلة التي توجد تلك الآبار في أرضها، و تطلب تلك القبيلة مكوساً من الأجانب الذين يأتونها، و من مسافات بعيدة كل البعد في بعض الأحيان، لإوراد قطعانهم و أسرهم. و لم نجد بعد أن تجاوزنا هذه الواحة أي نباتات أخرى إلا بعض الأشجار أو الجنيبات الجافة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۷۵

/ ۵۱/ التي لا ظل لها، و لا يكاد يكون لها أوراق.

لقد كان الفلقس حتى هنا جميلا، ثم أصبح فجأة ينذر بالخطر؛ فقد أصبح لون السماء، داكنا و مصفرا، يوحي بالثلوج، و ملأت السماء في وقت قصير السحب السوداء، و حلّ حولنا ظلام مفهم، و هاج البحر بزأر من بعيد، و قصف الرعد وراء الجبال فضعا يصم الآذان، و كان صوته يقترب منا عند كل قصفة، و بدأت قطرات المطر الكبيرة تسقط علينا، و كان كل شيء يرهص بحدوث عاصفة هوجاء. و لم يبد على الجمال و الجمالة أي قلق، و لم يخطئهم حسهم؛ إذ هدأ البحر فجأة كما كانت الحال عند بدء العاصفة، و ابتعد الرعد، ثم توقف، و تفرقت السحب بسرعة، و عاد إلى السماء صفاؤها المعتاد. لقد كان على يسارنا طوال يوم المسير سهل رملي معزول يمتد حتى البحر الذي لا نكاد نراه إلا لماما، و كانت على يمينا سلسلة جبال سربال الجرداء. لقد وصلنا في المساء إلى آخر الطريق بعد ثماني أو تسع ساعات من المسير. لقد كانت خيام الجيش المكلف إنشاء الطريق متعوبة في مدخل وادي حمران العريض على ضفة واحد، و متقاربة إحداها من الأخرى، حتى إنها تولد شعورا بالزوحة وسط هذا القفر/ ۵۲/ الصحراوي. و تباين بلونها الأبيض مع خليفة الغروب التي كان الظلام قد بدأ يغشاها.

كنا قد مررنا بالمعسكر و هو خال، لأن وقت مرورنا صادف خلال ساعات العمل. و قد كان الجنود يعودون إليه، و أدوات العمل على أكتافهم، و كأنهم مجرد عمال بسطاء، بعد يوم عمل صعب. إن هذا التجمع الكبير من الرجال في بلد يخلو من كل شيء، استفد موارده، لما خالت إقامته حتى انتشر الجوع بين سكانها، و لم يعد لدى اليدو ما يأكلونه، و لا ما يطعمون به جمالهم، و قد حاولنا عبثا البحث في الفور عن خروف، تحتاجه خلال السفر، و لم نجد بغيتنا بأي ثمن كان. ثم شاءت المصادفة أن نجد واحدا، كان صاحبه يذهب إلى المعسكر ليبيعه، و قد طلب ما مقابله ثمنا مرتفعا، كان الجنود المسكين هزيلا؛ مما جعل طباخنا عاسابرو مازاتني يرفض بعناد إتمام الشراء.

لقد كانت حاجات الجنود الضرورية كلها تستقدم من القاهرة و لتنخيل

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۷۶

في ظل هذه الأحوال الثمن الذي تدفعه مصر لإرضاء التزوات الشاذة لقرعونها الجديد.

أنا؛ المهندسان الفرنسيان المكلفان إنشاء ذلك المشروع المكلف و غير المفيد، و اللذان سبق لي الحديث عنهما، و هما: M M Couchelet موشليه، و Vivas فيفاس، فقد كانا يقيمان للاستطلاع قرب مسيل مائي يتجاوز طول الوادي باتساعه، و يبعد مسافة ميل أو ميلين عن المعسكر بالنجاه الأمام، في القسم المقفر من الوادي/ ۵۳/، حلّ الليل و لم نهتد إليهما إلا بصعوبة وسط الظلمات و الصخور. نجحنا أخيرا في لقائهما، و نصبنا خيمتنا إلى جانب خيمتهم، و أقول: خيمتنا؛ لأن خيمتي احترقت، كما ذكرت، في السويس، و لم أستطع الحصول على أخرى، و قد وجدت نفسي مجبرا مؤقتا على مشاركة رفيقي في السفر خيمته. كنت أحمل للمهندسين رسائل من أصدقائهم في القاهرة، و قد استقبلاني استقبالا حارا، و قاسا بواجب الضيافة أحسن قيام، ناهيك عن أنهما زوداني بمعلومات كثيرة نمينة عن البلد.

تشرق الشمس متأخرة في هذه الأنحاء، و قد فوجئت عند ما أشرقت بعظمة المشهد الذي جاء نور الشمس ليظهره أمام عيني، و لم أكن في اليوم السابق عند الوصول ليلا، قد لمحت إلا ظلاما و سط الظلام. ليس وادي حمران إلا ممرا ضيقا محفورا عموديا في جبل سربال من جانب، و من الجانب الآخر في سلسلة جبلية من الطبيعة نفسها، و تنتهي إلى النظام الجيولوجي نفسه، و تمتد في الاتجاه نفسه. و تشكل هاتان السلسلتان كما يبدو سلسلة واحدة، و يبدو أن كتلتهما المتماسكة تتحدى أبدا قوى الطبيعة المدمرة. كيف و متى انفصلتا، و أي قوة عظمى لا يصمد شيء، أمامها أحدثت ذلك الانهيار، و حفرت في الجرائب ذلك الشق العميق؟ هل الماء؟ أم النار؟/ ۵۴/ إن كلتا الفرضيتين متساويتان في الصحة.

و مع أن الطبيعة تحتفظ بسر تواريها، و أنه ليس هناك أيّ ذكريات مكتوبة للتثبت منها و تسجيلها؛ لأنه لم يتح لأنظار أيّ من البشر أن تأملها، على الرغم من كل ذلك، فإن آثارها المادية تظل موجودة و ثابتة في مظاهر لا يمكن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۷۷

محوها من سطح الكون؛ لتشكل للعلم صوى عبر القرون.

يدل وجود كتل الجرائب التي سقطت من الأعلى إلى الوادي على حدوث اضطراب ضخم، و هي ملقاة هناك في قعر ذلك الخندق العميق؛ بعضها محتفظ ببعض، و كأنها جثث توحي بعالم سبق وجود الإنسان على الأرض، و إنه لمن العبث أن يحث المرء هنا عن الفلل و الحضرة؛ إذ لا نجد، باستثناء نخلة هزيلة منفردة على صخرة ناتئة، أي أشجار أخرى، ليس هناك قطعة عشب صغيرة، و الصخور كلها عارية، و ينتشر في كل مكان الكآبة و الموت.

هذا المضيق المخيف، و الرائع هو النهج المناسب للوصول إلى جبل سيناء. كانت الطريق الكبرى تنتهي في هذا المكان، و لكن العمل بها كان يسير بنشاط استثنائي، و لكنه كان يطيا جدا، مقارنة بصبر عباس باشا الذي يكاد يقف، و لم يكن المهندسون الذين كان يستعجلهم يستطيعون التغلب على عقبات المكان إلا بصعوبة كبيرة، و باستخدام المفجرات و الآلات.

لقد كان ينبغي في كل خطوة، تفجير قطع ضخمة من الجرائب التي كانت تقع في مجرى السيل محدثة فجوة كبيرة، و نسد مجرى الماء الذي كان ينثر في كل مكان، و يغمر المنخفض/ ۵۵/ و لما كان كل ما يفعله العرب مترافقا بالإبطاء، فإن صدى أعتى العمال كانت ترده الجبال، و كان غالبا ما يقطع ذلك الترداد صوت انفجار الألغام، و تهاوي الصخور. و لم يكن بالسهل علينا أن نخرج سالمين من هذا الركام من الماء و الحجارة و الرجال. و لم نستطع الخلاص من ذلك إلا سيرا على الأقدام؛ لأن الهجين التي خلفت للرمال، و للأرضي السهلة، كانت أكثر اضطرابا منا في هذا المراكب المتلاطم.

و قد لفت المرافقون نظري عرضا إلى قسقية طبيعية، داؤها هادي، و صاف كأنما هو في مغطس، و لست أدري لماذا يسميها الناس، حمام

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۷۸

النصراني. و لما تجاوزنا هذه المسافة الصعبة، بعد تعب، و تعرض للخطر، و لكن دون حوادث، وصلنا إلى منطقة من الوادي أقل و عورة و أكثر اتساعا، منها ينبع مسيل الماء، لقد كان انطلاقا مفاجئا من جهنم من الصخور إلى جنة من الخضرة. ينجس الماء من الأرض متدفقا وسط العشب الكثيف، تتحلق حوله مجموعة من أشجار النخيل الجميلة التي يتكاثر عددها حتى تشكل في بعض المواقع أجمة لا تنفذ أشعة الشمس من خلالها. إن اليانين يجعل هذه الواحة غير المنتظرة ثروة لا تقدر بثمن.

و كلما تقدم بنا المسير أصبحت المنطقة أكثر رحابة من الجانبين، و نحن دون أن نشعر بذلك من نقب حمران إلى الوادي الذي يحمل الاسم نفسه.

تطلق العرب اسم الوادي/ ۵۶/ على المكان الفسيح المزروع عادة بالأشجار، و هو بالألمانية Thal، و يتوافق مع Huerta الإسبانية.

ليس في وادي حمران من مزروعات أخرى، عدا أشجار نخيل الثمر التي تنشر ظلالها في مدخل الوادي، ثم تتناقص شيئا فشيئا، و ينتهي بها الأمر إلى أن تختفي تماما. أرض الوادي قاسية، تكثر فيها الحجارة، و تفتقر الجبال الجانبية إلى أي نوع من الحياة، و لكن طرافة تكويناتها تعوض عن قحطها. أما جبل سربال، الذي أدرته له ظهورنا بعد أن درنا حوله، فإنه أكثر علوا من الجبال الأخرى، و تنتشر كتلة متحدراته الجرداء على فراسخ عديدة من المنطقة.

و هناك مسيل ماء، فسيل؛ يلفت النظر إليه ما في هذا الكون من قحط، و يحمل اسما مخيفا هو عين الثمر، و إن كان هذا الاسم مخيفا فإنه لا يتفق مع الواقع المحلي باعتبار أنه لم يعد هناك وجود للثمر في هذه الأنحاء. و ليس هناك إلا بعض الفهود. و ينفق الوادي من هذه الناحية بنب أو منحدر حمران الذي يسمى أيضا العجاني De L'adjani ؛ و هي طلعة مخيفة تكون حياة الراكب

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۷۹

فيها مرهونة بكبوة من ركوبه، بسبب و عورة الطريق، و كثرة الحجارة فيها، و قربها من الهاوية. لذلك صعدنا هذه الطلعة الطويلة التي لا تنتهي على القدمين؛ و استمرت حلقة التعذيب ساعة حسبناها قرنا. و يرى الناظر من القمة عددا كبيرا من الأودية يتيه المرء فيها، يتداخل بعضها في بعضها الآخر، و التي لا يمكن إلا لقطرة البدوي وحدها أن تكون دليلا للتوجه فيها؛ لأنها جميعا محاطة و محددة/ ۵۷/ بهضاب أو جبال تتشابه جمالها بأنها جميعا مجردة و محرومة من أي زرع.

و على الرغم من قحطها، فإن هذا المنظر يأسر الألباب، و لم أستطع أن أحول نظري عنه، و لا أن أفكر بأمر آخر، و أنا أتخيل موسى و قومه، و قد تصبوا خيامهم في هذه الأماكن الموحشة.

كان ينبغي علينا بعد أن صعدنا، أن نحدر على الأقدام، ساعة أخرى من التعب؛ لأن المكان في هذه الناحية هو أسوأ من الصعود، إن كان هنالك ما هو أسوأ. و على الرغم من أننا لم نكن نركب الهجين، و هي تتحرك بالتالي بحرية، فإنها كانت تتعثر في كل خطوة، أما الجمال التي تحمل أمتعتنا فقد كان الجمالون مجبرين على أن يستدوا الحمولة من الجانبين لمنعها من الوقوع في الهاوي. و ربما كان الحصان، و البغل على وجه الخصوص أكثر مناسبة من الجمل لمثل هذه الطرقات، و لكن قبائل الطورة لا تملك خيلا و لا بغالا.

وصلنا أخيرا، بعد تعثر و جري، نهاية ذلك المنحدر الشديد، و دخلنا في واد آخر، إنه وادي صلاف . كانت الجمال هنا، و الحمد لله، على الأرض المناسبة لها؛ أي على طريق رملية مستوية، و لم يكن هناك من تغيير إلا هذا:

فجبال هذا الوادي الجديد لها أوصاف الجبال السابقة نفسها، فهي تشبهها في خلوها من أي نبات، و في الكآبة التي تخيم عليها.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۸۰

و على العكس مما سبق فإن الرمل هنا تربة/ ۵۸/ أزهار جميلة بيضاء و صفراء و بنفسجية تخفف من لمعانه، و تمنح النظر راحة و هدوءا. و نجد في هذه الأودية الفقراء، و هي نبات ينتج المنّ؛ ذلك الرحيق السماوي الذي رزقه الله لبني إسرائيل عند ما تاهوا في سيناء. لقد كانت تنتشر حولنا قطع ضخمة من نبات الرتما و هو نبات يتميز بأنه يشتعل و هو أخضر، مما يمنحه قيمة كبيرة في هذه الصحراء التي لا غابات فيها؛ و قد كان في تلك الليلة ذا فائدة عظيمة لنا؛ لأن الهواء كان شديد البرودة، و مع أن معسكرنا الصغير كان محميا بأكمة من الجرائب، فقد كنا سعداء من البرد لو لا الثار المتأججة و المتوقدة التي استخدمنا ذلك النبات في إشعالها و تلقيمها طوال الليل. كانت الليلة الأولى التي أقضيها حقيقة في الصحراء، في اليوم السابق كنت في أوروبا، تحت خيمة المهندسين الفرنسيين، أما صحراء السويس التي سبق لي التخييم فيها، فإنني أصر على ألا أسميها صحراء بسبب استراحاتها، و عربات السفر التي تجوبها، و محطات الرتق فيها، و غير ذلك من الاختراعات الأوروبية التي غشيتها.

لا شيء من ذلك هنا: ليس هنا طرقات، و لا سقف بيت واحد، و لا بشر في كل مكان، هناك الرملة و الهدوء. كان الهواء في الصباح أكثر برودة مما كان عليه في المساء، و مع أن قرص الشمس كان ملتهبا، فإنه لم يمنح الجو بعض السخونة بعد؛ لقد انطلقنا متأخرين، ذلك أن جملا هائجا هرب بعد أن تمّ تحميله، لقد هرب بكل ما يحمله، و كان يلزم قائده بعض الوقت/ ۵۹/ ليمسك به، و لم تتم إعادته إلا بعد مقاومة شديدة. مشينا طوال فترة الصباح على أرض رملية مستوية تماما؛ كما ترى الطبيعة التي رأيناها في اليوم السابق، الجبال نفسها، و الأفق نفسه. و ينتهي عدد من الأودية إلى الوادي

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۸۱

الذي نعبره، و إن أعرضها و أكثرها صلاحية لمسير القوافل فيه هو وادي فيران الذي يمتد إلى اليسار، و ينحدر حتى البحر، و بينما كنا نمر أمامه خرج علينا منه بدوي يسير على قدميه، مزينا و إمارات القطاطة تبدو عليه، و دون أن يلقي السلام، و اختفى وراء صخرة دون أن يكلف نفسه عناء إدارة رأسه لرؤيتنا.

لقد كان أول من رأيناه منذ وادي حمران. لقد كان هناك غير بعيد عنا مقبرة، و لما كان البدو دائمي الترحل فإنهم لم يكن لهم أماكن محددة لدفن موتاهم، بل كانوا يدفنونهم في القلاة متفردين، و إن العلامة الوحيدة لتلك القبور المتناثرة هي مجرد حجر طبيعي ينفرد بحمايتها من شهية الضباع المفترسة.

إن هندى السهول يحمل معه عظام أجداده؛ أما عربى الصحراء، فإنه يوكلهم إلى عناية الله و رسوله. وصلنا أخيرا إلى مضيق وادى الدير و سمى بذلك لأنه يقع بجوار دير سيناء. و دير سيناء آخر المعاقل الطبيعية المرتفعة بين البحر الأحمر و جبل سيناء، و التى قدّر لها أن تعيش أحداثا عظيمة، و إن هذا المعقل أكثر ارتفاعا، و أكثر عرضا، و أكثر إثارة للرهب أيضا من نقب/ ۶۰/ حمران، الذى ليس إلا صورة مبسطة عنه. و لم أر أى مكان فى أوروبا أكثر قطاعة منه، حتى فى أكثر الأماكن توحشا، و أكثرها و عورة فى جبال الألب و جبال كاربات Carpathes : إن المكان صورة عن السديم، ليس السديم الذى سبق انفصال العناصر، و لكنه السديم الذى يظو فناء الكون. إن مثل هذه المشاهد تستعصى على كل وصف؛ و إن فرشاة سلفادور روزا Salvator

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۲ Rosa

هى وحدها القادرة على رسم منظر الرهب هذا، لتصور أن جبلا ضخما من الجرانيت يتداعى بسبب هزة أرضية مخيفة، أو بسبب اصطدام مجرم سماوى، و يعطى بأنقاضه المتهاوى السحيقة حوله، و يحمل على جانبه المهدّمين الأثار التى لا تمحى لذلك الاهتزاز المخيف. و نظن أنه منذ الكارثة لم يتغير شيء،ا و لو أنها حدثت فى اليوم السابق لما كان المنظر أكثر جمالا.

أما الصخور فإنها متكسرة، و محطمة، و من كل الألوان و الأشكال، و هى عارية كما كانت فى أول يوم بعد خلقها؛ و مرت القرون دون أن تترك عليها مثقال ذرة من التراب الصالح لتزراعة، و لم يستطع أبدا أى شيء، حى، أن يمدّ جذوره فى إمبراطورية الموت و الكآبة و العقم هذه؛ غير أن بعض قطع النبات تطلّ برأسها بصعوبة هنا و هناك بين تشققات الصخور. و تلمح/ ۶۱/ فى الأفق البعيد على مدى النظر شجرتين وحيدتين هما: نخلة تمر هزيلة، و شجرة تين أكثر هزالا. و كان هناك بعض الكهوف المحفورة فى قلب الجرانيت، أما الكتل السفلية التى تصدعت، و تكسرت فى أثناء سقوطها، فإنها مملوءة بخروق عريضة، لا زالت تنوءانها حادة كما لو أنها فى أيام سقوطها الأولى. و قد حفر بعض منها كوى مربعة الزوايا تظهر و كأن يدا بشرية حفرتها لهدف غير معلوم؛ و ربما كانت يد العرانيين الذين كان عليهم بالضرورة أن يعبروا هذا الممر المخيف يقودهم موسى عليه السلام.

إن الصوت البسيط يتحول فى هذا المكان المخيف إلى صدى، و على الرغم من أن ذلك لا يحدث إلّا نادرا، و لكنه حينئذ يصبح شيئا فظيعا، يكرر آلاف المرات، حتى لتحسب الطلق النارى صوت مدفع؛ حينئذ يرتجف الجبل من أساسه، ثم يعود كل شيء إلى الصمت أياما و شهورا كاملة. كان الدير

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۳

على بعد خطوات من هنا، احتاج وصولنا إليه ثلاث ساعات. إن أسواره الجرانيتية العالية، و الأعلام الثلاثة التى ترفرف على ذروته: علم موسى، و القديس جورج، و القديسة كاترين، تجعلنا نظن أنه قلعة أكثر منه ديرا، و هو فى الحقيقة قلعة أقيمت فى حضن الصحراء، و على أرض إسلامية، و هى تتعرض لخطر حدوين هما: التعصب و الطمع؛ فقد هاجمه/ ۶۲/ البدو الذين تغريهم ثرواته عدة مرات، و كان على سكانه أن يتخذوا عدة إجراءات عسكرية لصدهم؛ يملك الدير، ناهيك عن مدفعين، ترسانة مملوءة بالأسلحة من كل نوع: و ليس هذا بقليل من أجل رجال سلام. إن الباب الكبير و الوحيد لهذا الصرح الفسخم مغلق منذ ما يقارب قرنين، و لا يفتح إلّا فى المناسبات الكبرى فى أثناء زيارة الشخصيات الكبرى فى الكنيسة اليونانية؛ و هذا لا يكاد يتم إلّا كل ثلاث أو أربع سنوات. أما فى الأوقات الأخرى، فإن الباب مغلق بإحكام، و لا يمكن جيئة الدخول إلى ساحة الدير، إلّا عبر كوة نقبت فى الحائط على علو أربعين مترا من الأرض، يوقع من يريد الدخول إليها بواسطة الحبال، بعد أن يتحدث مع الرهبان، و يعلن اسمه و مركزه.

و لما وصلنا إلى أسفل السور، و ترجلنا عن الهجين، قرع الناقوس معلنا وصولنا، و أطل راهب اليونانية برأسه من الكوة، و ألقى إلينا حبلا لتربط فيه رسالة تعريف زودنا بها كوستا لكبير رهبان الدير. و طال انتظارنا الجواب الذى وصل بعد وقت طويل. و دخلنا الدير ليس عبر البرج الذى أعطونا من الصعود إليه و إنما عبر باب سرى تم فتحه مؤخرا فى الجانب الأخر من البناء خلافا للأوامر و الحذر، و لا يستغرق سدّ هذا الباب فى حالة التعرض للهجوم إلا بضع دقائق. و لما تجاوزت الباب السرى الذى كان منخفضا حتى إننى لم أتمكن من الدخول إلّا بعد انحناء شديد/ ۶۳/ مررت بعدد من الأفنية، غير متناوبة، و غير منتظمة، ثم عبر نفق مغلق بسياج من الحديد، ثم فناء آخر أيضا، حتى وصلت أخيرا عبر درج خشبى إلى رواق الدير المخصص للأجانب، و الذى كان قد سبقنى إليه سائحان من العالم الجديد.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۴

أما المساكن المخصصة للمسافرين، فقد كانت تطل على ممر يمتد النظر منه ليشمل الصرح كله. و يخيل إلينا أننا نرى قرية كبيرة تحيط بها الجدران. و لا ينبغى أن نبحث عن نظام معمارى، أو مخطط لهذه القرية؛ إنها متاهة من الأبنية المكدسة المتداخل بعضها فوق بعض، حسب طبيعة الأرض و راحة السكان، إنها الفوضى بعينها. و إن أول ما يلفت النظر وجود مسجد تعلو منارته وسط المكان، و إن هذا الأمر الذى يصعب على المسيحى تقبله فرضه السلطان سليم على الرهبان لكى يدلل بوجود الدير، و مقابل بعض الميزات الدنيوية التى خص بها جماعة الرهبان التى تعيش فى الدير، و إن القرمان الذى يضمن لهم تلك الميزات، موجود لديهم فى أرشيف الدير، لكنهم لم يطلعونى عليه، و سواء كان موجودا أم لا، فإن أحدا لم يره حسب علمى. و يذكر أن النبى محمدا صلّى الله عليه و سلم أعطى رهبان الدير عهد أمان، و ليس ذلك الأمر تاريخيا بمستحيل. أسس هذا الدير الإمبراطور يوستينيانوس Justinien و زوجته ثاءودورة Thodora فى عام ۵۲۷ ميلادية/ ۶۴/ و هذا يعنى أن بناءه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۵

كان قبل التاريخ الهجرى الإسلامى بقرن من الزمن: و ليس هناك ما يمنع أن يكون النبى صلّى الله عليه و سلم قد جاء لزيارة الدير؛ و تؤكد ذلك كتب الأخبار العربية، و تضيف أن عروجه إلى السماء، تمّ من على قمة جبل سيناء.

و إذا كان وجود المسجد فى هذا المكان يدهش، و يلفت النظر، فإن الكنيسة لا.تظهر من النظرة الأولى، و ليس لها ما يميزها من السقوف و الشرفات التى تغرق الكنيسة فى وسطها؛ و لكنها تخرج عن بساطة شكلها الخارجى بزوجتها الداخلية. إنها وعاء فائق الجمال نصف بيزنطى، و نصف رومانى، يقوم على أعمدة من الجرانيت التى طليت للأسف بالكلس، و قد تمّ فى جدوع تلك الأعمدة حفر صلبان يونانية، مما يفسد النسق و يتلف بهاءه. إن جمال العمود أن يكون عاريا و مستويا تماما، و مع أن تضليع الأعمدة اختراع قديم، فإننى أرى أنه تشويه للبساطة البدائية للفن، و علامة من علامات انحطاطه؛ إلّا. أنه لا. ينبغى أن نبحث فى الكنائس اليونانية لا عن البساطة و لا عن الفن. و إن هذه الكنيسة يتقصها الشيطان المذكوران: إن الريق الخداع، و فساد الذوق يصدمكت فى كل خطوة تخطوها فيها.

كان السقف أزرق ذهبيا، يمثل قبة السماء المملوءة بالنجوم، و تتدلى منه ثريات مفرطة فى الحداثة، و لا تتناسب، على الرغم من أبهتها، مع بساطة المعبد المسيحى. و يطيق نفسه على المذبح الرئيسى الذى تزدحم عليه الأمداف/ ۶۵/ و الحراشف التزيينية و الصلبان المزينة بالأحجار

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۶

الكريمة، أو المزعومة كذلك، و التى يعرضونها بفخر لتثير الاعجاب أكثر مما تدفع المؤمنين لالتزام الورع. و الواقع أن تلك التحف هى هدايا من أحد التيالة الأثرياء الروس الذين يتنصون إلى الكنيسة المنشقة (عن الكنيسة الرومانية).

و لما ادعى الإمبراطور نفولا أنه حامى أبناء دينه الذين يحيّشون فى أراضى الإمبراطورية العثمانية، فإنه لم ينس هؤلاء الرهبان، بل إنهم تلقوا منه هدايا سخية، تدل على كرمه و اهتمامه. و إن كل تلك التحف، كثيرة كانت أم قليلة، هى هزية جيدة، و ليس بينها ما هو قديم؛ كما يبدو عليها ذلك. و استثنى الباب الرئيسى للدخول الذى تبدو عليه علامات القدم، و هو مرصع بزخارف على المعدن صنعت بمهارة عجيبة، و أخال أننى قرأت عليه تاريخا يعود إلى القرن السابع الميلادى.

لن أستطيع هنا، و لا أريد أن أذكر كل شيء، و لكننى أشير على سبيل الذكرى إلى عدد من اللوحات البيزنطية التى لا تكتسب إلا أهمية عادية، و إلى لوحات ذات أهمية بسيطة أيضا، تمثل صورة بعض الوجهاء المجهولين، أو صور بعض قديسى التقويم الإفريقى (اليونانى)، و صورة كبيرة لمشهد تجلى السيد المسيح عليه التيلام، و أخيرا هناك رصيعتان كبيرتان لموّسى دير الإمبراطور يوستينيانوس و زوجته الإمبراطورة ثاءودورة. و لا يمكننى أن أمضى دون الإشارة إلى الموزاييك الذى يكسو أطراف قبة صدر الكنيسة التى نرى فيها موسى راكعا على ركبتيه أمام العليقة المشتعلة، و فى الأسفل نراه ممتلا و هو يتلقى ألواح الوصايا العشر. و من الملاحظ أن نبى بنى إسرائيل (موسى عليه التيلام) لا يبدو فى اللوحات الشرقية/ ۶۶/ بالهيئة القاسية و الرهابية التى تمثله بها فى أوروبا، و التى أرسى دعائمها ميكيل أنجلو Michel Ange فى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۷

رائعته الموجودة فى كنيسة القديس بيير (فى روما- الفاتيكان) Saint -Pierre Aux Liens ، و لكنهم يمثلونه بصورة شاب بلا لحية، يرتدى جلبابا أزرق و عباءة بيضاء، و هناك مصلى يحمل اسمه يقع على يسار المذبح الرئيسى، فى الساحة التى توجد فيها العليقة المشتعلة، على الأقل حسب ما يقوله الرهبان اليونانيون. و لا يسمح لأحد بأن يطأ هذه الأرض المقدسة إلا بعد أن يخلع نعليه و يضعهما على الباب كما هو الحال على باب المسجد. لتأمل بإعجاب قوة المحاكاة و العدوى بالمجاورة . إن الممارسات الإسلامية وجدت طريقها هنا لتصل إلى كهنة المسيح عليه التيلام. كان هذا الدير الكبير الثانى فى الشرق يسمّى فى الماضى، و ربما تم تأسيسه بهذا الاسم، دير النجلى، و هو اليوم يسمى باسم القديسة كاترين Sainte Catherine التى تحميه، و يحتوى على رفاتها؛ كان اسمها فى حياتها دوروثى Dorothe ، تنصرت فى القرن الرابع الميلادى، أما اسم كاترين الذى سئيت به بعد موتها فإنه مشتق من الكلمة السريانية Cethar التى تعنى التاج، و قد منحت هذا الاسم لأنها جمعت كما يقول القديس جيروم Saint Je ?ro ?me تاجا ثلاثيا من العذرية و الشهادة و العلم؛ لأنها كانت عالمة قبل أن تكون قديسة، كانت تحاول هداية الفلاسفة الذين كانوا يحاولون بدورهم أن يثنوها عن معتقدها، و ظلت زمنا طويلا رئيسة المدارس الفلسفية، كما كانت أيضا رئيسة مدارس الفتيات./ ۶۷/ لقد وضع

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۸

وفاتها فى ضريح فخم، تشتعل حوله أضواء الشموع ليل نهار، و يأتى إليه فى كل سنة عدد كبير من الحجاج.

و لكى أنتهى من الحديث عن كنيسة القديسة كاترين، و لكى أكون صادقا فى نقل الحقيقة، ينبغى القول: إنها موضع عناية كبيرة، و لا يمكن إبداء أى ملحوظة على نفائسها، و لكن نوافيسها صغيرة جدا، و لا تليق بمعبد له شهرة كبيرة، و يتمتع بإجلال عظيم. و هى تمتلك عوضا عن ذلك مجموعة من الأجراس (مفاصلة Carillon) التى ليست كما أعتقد إلا صفيحة من الحديد يضرب عليها بعطرقة، و مفاصلة أخرى من الخشب تشبه الأولى فى بدائيتها، و التى يقرعها قارع الأجراس طوال النهار، كما يستخدم فى إيطاليا الناقوس الخشبى Cre ?celle فى يوم الجمعة العظيمة.

أيا مكتبة الدير، فهى فقيرة بالكتب المهمة، و تعالج كل الكتب الموجودة فيها موضوعات دينية، و لكنها فى مقابل ذلك غنية بالمخطوطات العربية و اليونانية، و السلافية أيضا، و لا شك أنه بالإمكان استخراج معلومات مفيدة منها. و لكن الرهبان حريصون عليها دون أن يقرؤوها. و لم يعودوا يستعيرونها، إنهم يكتفون بإظهارها للزوار لإشباع فضولهم؛ و من تلك المخطوطات نسخة من مزامير داود مكتوبة بخط صغير، كتبها القديسة كاسيانى Sainte Cassine ، و نسخة من الإنجيل مكتوبة بماء الذهب أهداها إلى مكتبة الدير الإمبراطور ثيودوسيوس Thodose تقربا و تعبدا عن الإخلاص .

إن الرهبان اليونانيين لا يضعون أقدامهم فى مكتبهم أبدا، و لكنهم يدعون راهبين إلى حديقتهم الواقعة خارج أسوار الدير/ ۶۸/ و قد لاحظت فى الحديقة عند وصولنا بعض أشجار الزيتون، و سروة واحدة، و شجرات لوز مزهرة، و تتنج الحديقة فضلا عما ذكرناه تينا و عنبا و إجاصا (كمثرى) مشهورة بجودتها فى القاهرة، و يمتلك الدير حديقة أخرى، بل عدة حدائق كما أظن فى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۸۹

بعض الأودية المجاورة. و إن البئر داخل الدير هى البئر التى قابل عليها موسى عليه التيلام، قبل أن يهبط، و فى أثناء هربه من مصر بسبب قتله رجلا، ابنتى النبى شعيب المبعوث إلى مدين، و كانتا قد أتيتا البئر لسقاية مواشى و الدهن، و لما وصلتا أراد بعض الرعاة إبعادهما عن البئر، و لكن موسى عليه التيلام ساعدهما، و استخرج الماء لهما من البئر، و عند ما علم والدهما بالأمر زوّجه إحداهما صفورة Sphora ، و أصبح موسى راعيا لمواشى والد زوجته .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۹۰

إن هذه القلعة الدينية الضخمة محاطة بعدد من القمم، و محصورة بينها، و إن لكل واحدة من تلك القمم اسما خاصا: فى الشمال جبل اليهود و جبل حوريب، و فى الجنوب جبل القديس أبيستيموس E ?piste ?me ، و نحو الشرق جبل موسى ، الذى ترى الأخبار أن مخلّص بنى إسرائيل (موسى) رعى أغنام شعيب عند سفوحه، مع أننا لا نجد أى عشب فى سفوحه. و ينبع الوادى من الغرب، و تتباعد الجبال تباعدا ملموسا لتخلى المكان لسهل واسع كل الأتساع، و هو المكان الواسع الوحيد فى تلك الاتحاء الذى يتسع/ ۶۹/ لعدد كبير من الناس: و ربما أقام العبريون معسكرهم فى هذا المكان و يثار فى هذا المكان حقا إلى حجر هارون (مقام النبى هارون) الذى يزعم أنه استخدم قاعدة للعجل الذهبى. إن المشهد الطبيعى فى هذه الأنحاء ذو قسوة فظيعة و جلال لا نظير له. و إن قمم الجبال و منحدراتها عارية تماما، شأنها شأن القمم و المنحدرات التى رأيناها حتى الآن، و لكن الشمس تلقى عليها فى كل ساعات النهار، و فى المساء على وجه الخصوص، و فى الصباح بشكل أجمل، أطيافا ضوئية متنوعة كل التنوع، و رائعة كل الروعة، حتى إنها تعوض تعويضا تاما قحط المكان الذى لا ترة رؤيته على أى هيئة أخرى. إن فى هذه الفوحة السحرية تدرجا فى الألوان لا يمكن محاكاته، و لا يمكن وصفه.

أما جبل موسى الذى ظل مظلما و مغفلا بالضباب زمنا طويلا بعد طلوع الشمس التى تشرق من وراءه، فإنه يشكل خلفية الوحة، فيما كانت أسافله لا زالت تغوص فى الظل، كانت أعاليه مضاءة بالشمس.

أما جبلا حوريب و القديس أبيستيموس فإنهما يصطبغان فى ذلك الوقت باللون الأحمر و المعدنى، و تعكس تجرات الصخور فيها ظلالا سوداء ظاهرة بوضوح كبير حتى إننا نخال أن الأفق لا يزال يشع منها، حتى لنظن أن سيلا من الحمم البركانية، يخرج من الفوهة يتهيأ لإحراق الدير و المنطقة كلها.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۹۱

تبدأ طلعة جبل سيناء أمام باب الدير: فيمر الطريق فى شعب ضيق بين جبل حوريب و جبل اليهود، و يستعمل فى صعوده/ ۷۰/ من

أجل راحة الحجاج الذين ينبغي أن يصعدوه زحفا، نوعا من الدرجات التي تسهّل عملية الصعود لو أنها لقيت عناية أفضل. و إن أول ما يلفتا في الصعود نبع الإسكافي الذي يذكّر اسمه بحكاية أسطورية محلية. ثم نجد بعد ذلك كنيسة صغيرة مهداة إلى العذراء (مريم) التي أتت إلى هذا المكان حسب حكاية أخرى.

و نصعد بعض الدرجات أيضا فنصل إلى سهل مغلق من كل الجهات، تحيط به قمم هائلة، منها قمة القديسة كاترين التي ترتفع إلى ما لا يقل عن ۸۵۰۰ قدم عن سطح البحر الأحمر. و لا تقل قمتا حوريب و سيناء، عن هذه ارتفاعا و إن هذا الارتفاع هو الحد الذي تظل بعده الثلوج موجودة أبدا، على المرتفعات في المناطق الشمالية. و من أي جهة نظرت، و إلى أبعد ما يستطيع النظر الوصول، لا ترى إلا كتلا من الجرانيت الأمغر، و الوعر، و الأجرد؛ كما

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۲

لو أنها احتفظت تماما بشكلها يوم أن خرجت من أعماء الكون؛ لم تتم أية نبتة في هذه الأنحاء، و لا يمكن لأي منها أن تنمو في المستقبل، مع ذلك فإن هناك شجرة، و لكنها وحيدة تنتصب في وسط المكان القاحل، إنها شجرة سرو ضخمة ضخامة غير معتادة، تشبه قمتها هرما ضريحيا يقاوم منذ قرون كل العواصف. و تجد عند جذور الشجرة بئرا ملؤها عذب و صاف، و لا يشرب منها أحد، لأنه لا أحد يسكن، و لا أحد يعبر هذه الأرض الموحشة وحثة مخيفة عدا بعض المسافرين./ ۷۱/ لقد قضيت استراحة طويلة بجوار تلك البئر المهجورة، في ظل شجرة السرو العملاقة، متوغلا و متحديا، إن صح القول، تلك الطبيعة القاسية، العظيمة، و الموحشة، و المتمثلة كل العزلة، و المقمة بالأمجاد، و العامرة بكم هائل من الذكريات، و التي تبدو للبصيرة و البصر أنها أرض أمجاد خالدة. إن من يرى تلك الطبيعة المؤثرة يشعر أن أحداثا عظيمة و هائلة جرت بين أحضانها، و أنها خلقت و تكونت لتكون مسرحا لأسرار جليلة، و لمعجزات فائقة، و نشعر أن الله اختارها ليوحي فيها إلى أنبياته. كم هناك من أحداث، و كم من القرون التي لم تلق عليها و لو نظرة واحدة! ذلك هو بادي، ذي بدء جبل سيناء الذي يخطف الأبصار، و الذي أوحى إلى موسى على قمته الرسالة السماوية وسط البرق و الرعد، تلك الرسالة التي ما زالت حية بعد أن مرت عليها قرون عديدة؛ و إلى الأسفل قليلا تجد المغارة التي قضى فيها موسى عليه السّلام أربعين يوما و ليلة في الصحراء بين يدي الله و بحمايته الحانية بعد أن أوحى إليه، و في الأمام هناك حوريب حيث تلقى موسى رسالته السماوية، و هو جاث على ركبتيه أمام الطبقة المشتعلة، و كنت أرى على بعد خطوات مغارة أخرى، رأى فيها إيليا? E lie أحد أعظم أنبياء بني إسرائيل، رؤياه التي تعد إحدى أكثر الرؤى التي تتحدث عنها الكتب المقدسة. رعبا. لتستمع إلى المؤرخ الجليل الذي يحكي تلك الرؤيا، و لن نعرف كيف نعبر عن الإحساسات/ ۷۲/ المؤثرة التي تسيطر على النفس في أثناء، ذلك، دون أن نستشهد بعبارات المؤرخ نفسه؛ لأننا هنا نكتشف و نشعر أن تلك العبارات موحاة، إن لم تكن قد كتبت في هذا المكان،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۳

و أن كلا منها يحمل سمة هذا المكان الرائع. «مشى إيليا أربعين يوما، و أربعين ليلة، حتى وصل إلى جبل حوريب، الجبل الذي تجلت عليه الذات الإلهية، و هناك دخل مغارة في الجبل، حيث بات الليلة فيها، ثم أوحى إليه الباقي، و قال له: «اخرج وقف على الجبل أمام الرب. و إذا بالرب عابر، و ريح عظيمة و شديدة قد شقّت الجبال، و كسّرت الصخور أمام الرب» و لم يكن الرّبّ في الريح. و بعد الريح زلزلة، و لم يكن الرّبّ في الزلزلة، و بعد الزلزلة نار، و لم يكن الرّبّ في النار. و بعد النار صوت منخفض خفيف. فلما سمع إيليا لفّ وجهه برداءه، و خرج، و وقف في باب المغارة. و إذا بصوت إليه يقول: ما لك ههنا يا إيليا». ألا تتخيل و نحن نقرأ هذا الكلام الرائع أننا نشهد ثورات جيولوجية هزت بعنف هذه الأرضين المختارة منذ الأزل؟

ذلك الزلزال الرهيب الذي يحرك الجبال، و تلك العاصفة الهوجاء، التي تجعل الجبال تميد و تتداعى، تلك النار المتأججة التي تحرقها و تجعلها عقيمة/ ۷۳/ أي شيء، هذا إن لم يكن تعبيرا عن عوامل في باطن الأرض أو خارجها، لذلك الاضطراب العظيم للمادة كما يتصوره العلم و يشرحه في أيامنا هذه؟

إذا، ليست رؤيا إيليا إلا- حدسا، بل، كأنما هي رؤية ثانية للاضطراب القيزيائي الذي تحمل كل صخرة هنا آثاره التي لا يمكن إنكارها. و إن تلك النسمة الرقيقة و الناعمة التي تلت اضطراب العناصر، و التي شعر معها النبي بتجلي الذات الإلهية؛ إنها حقا الذات الإلهية؛ أي العلم المطلق الذي ما إن استقر الكون بأمره حتى بسط عليه هيبته، و خلق ظواهره، و قدّر قواعد و سير غور أسراره، و تعالى عن الحياة المادية، فقدر العلل و الأسباب، و جاز بع الحكمة القديرة على الخلق الذي اختص وحده بفهم أسراره. إن البحث في

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۴

مثل هذه الأمور يكتسب هنا أهمية لا يكتسبها في أي مكان آخر؛ لأننا لا نجد في الكون مكانا مثله احتفظ بمعالمه نفسها، ناهيك عن روعة التاريخ و التقاليد، مما يوقظ المشاعر و يأسر الروح.

إن شبه جزيرة سيناء شكلا مثلثا، يرتكها أحد أضلاعه بالقارة، في حين أن الزاوية المقابلة تتوغل في البحر على شكل ثنوء صخري، أما الضلعان الأخران فإنهما محاطان بخليجين؛ خليج السويس في الشمال، و خليج العقبة في الجنوب، و باستثناء بعض المصاطب الكلسية في المناطق المنخفضة/ ۷۴/ فإن أرضها ظلت على تكوينها الأول، تعج بالقمم و التوءات الصخرية التي تتبع كلها تنظيما واحدا، و تنطلق من مركز مشترك. تلوى في المنخفضات و ديان ضيقة، و رملية، ليس فيها زرع إلّا ما في بعض واحات نخيل الشمر قرب عيون الماء، و الآبار.

أما مرتفعات سيناء، فتجثم وسط البرزخ، و تشرف على شبه الجزيرة كلها.

و لنا أن نتخيل المنظر الرائع الذي تتمتع به من أعلى مشهد كهذا المشهد. يقع النظر من كلا الجانبين على خليجين، و يتابع تعرجاتهما كما لو أنه يتشاهدها على الخريطة، و تقع جزيرة تيران في قاعدة خليج العقبة . و يبدو من الغرب، فضلا عن الأودية و المرتفعات التي تمتد عند أقدامنا، البحر الأحمر الذي يظهر من هنا و كأنه نهر، و ليس بحرا واسعا لا تمكن لاتساعه من رؤية الساحل الإفريقي الذي يبدو للعيان بجلاء الضفة التي توجد ورادها صحراء أخرى ذات أهمية كبرى لدى النساك المسيحيين الأوائل؛ إنها مكان معزول كانوا يذهبون إليه ليحيا في العزلة و التأمل و الوحدة، عن شعور أولي بالسلام الأبدي.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۵

أما من ناحية الشرق أخيرا، باتجاه سوريا فإن النظر يتيه في أعماق صحراء بلا حدود، إنها الصحراء نفسها التي تاه فيها بنو إسرائيل خلال أربعين سنة قبل أن يدخلوا بلد كنعان/ ۷۵/.

و قد لا حظت عرضا أننا نصادف العدد (۴۰) عدة مرات على طريقنا، إنه يتكرر بكثرة في العهد القديم و العهد الجديد: فاليهود تاهوا أربعين سنة في الصحراء، موسى عليه السّلام اعتزل أربعين يوما قبل أن يبلغ رسالته، إيليا سار أربعين يوما و أربعين ليلة قبل أن يستقر في كهف حوريب، صام المسيح عليه السّلام في عزلته أربعين يوما، و ظل أربعين ساعة في قبره قبل أن يبعث من جديد.

و يبدو أن لهذا العدد عند اليهود شيئا من القداسة، بل شيئا من السحر، و إن له فضيلة خفية، ضاع معناها؛ مع أنه لا يدخل في تركيبه لا (۳) و لا (۷) و هما رقمان مقدسان (عند الساميين).

يوجد في قمة جبل سيناء مصلى مسيحي يحمل اسم النبي موسى عليه السّلام؛ و إن المسلمين الذين يجلون هذا النبي كما يجله المسيحيون أقاموا له في هذه القمة مسجدا يحمل اسمه، ناهيك عن أنهم أطلقوا اسمه على الجبل؛ جبل موسى.

و يروى أن النبي محمدا صلّى الله عليه و سلّم زار هذا الجبل، و منه عرج به إلى السماء.

و ما زال الناس يشيرون إلى أثر قدم ناقته على إحدى الصخور هناك. تقوم في قلب أحد الأودية المجاورة واحة صغيرة خصبة تعرف باسم بستان الأربعين شهيدا؛ لأن أربعين مسيحيا، الرقم أربعون أيضا، استشهدوا فيها أيام

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۶

اضطهاد المسيحيين/ ۷۶/ و في مكان ليس بعيد توجد صخرة موسى التي يذكّر اسمها أتباع الديانات السماوية الثلاث، اليهودية و المسيحية، و الإسلام، بالوثنية التي كانوا طيها (قبل نعمة التوحيد)، باعتبار أن تلك الديانات نزلت في أمكنة متقاربة، و يمكن القول: إن لها مهدا مشتركا واحدا. إن صعود جبل سيناء، صعب و مرهق؛ لأن المكان ما زال كما كان في بدايته منحوتا على شكل درج، و ينقل كذلك حتى النهاية. و لكن ذلك الدرج الذي يفترض أن يسهل عملية الصعود، أصبح نصف مهدم؛ مما يجعل الصعود مرهقا، و النزول محفوفا بالمخاطر. و في طريق العودة إلى سهل إيليا عدنا إلى الدير عبر طريق أخرى، و أدهشني أن الطريق من هذه الناحية جيدة، و هي في بعض الأحيان محفورة في الصخر القاسي، و تكاد تكون صالحة لمسير السيارات. إن هذه الطريق التي هي صورة مصغرة عن ممر سيمبلون Simplon ثم إنجازها منذ وقت قريب من أجل عباس باشا ذلك الأمير الإفريقي الذي قام مؤخرا بزيارة سيناء، و بانتظار إنشاء القصر المعلق الذي سبق لي الحديث عنه، و الذي دلّت على المكان الذي سيقام فيه على قمة يصعب الوصول إليها . لقد رافقني في

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۷

رحلتي عدد من رهبان الدير، و أراد الأخ بيير أن يرافقني؛ كان شخصا غريبا كل الغرابة، يلبس جلبابا أزرق، و فلنسوة أسطوانية، و يقاسم الرهبان حياة التقشف، مع أنه ليس برجل دين. كان يوناني الولادة، درس في/ ۷۷/ الجامعات الأجنبية، و كان يتحدث بسهولة عجيبة عددا من اللغات إحداها الفرنسية. و يبدو عليه أنه يمتلك ثقافة متنوعة، و كان يعنى على وجه الخصوص بالفلك و الموسيقى، حتى أسند إليه مسؤولو الدير أن يعلم الرهبان المستجدين في الدير الموسيقى على الأقل. و لكنني فوجئت، بعد أن تحدثت معه، بما لاحظته من اضطراب في معارفه، و من تشوش في أفكاره، و قد زالت دهشتي عند ما أخبرت أنه مجنون، و أن أسرته التي عرفت بعض أفرادها في القاهرة، تعد وجوده في الدير كما لو أنه في مصحة، لقد كان جنونه خفيفا جدا، و إنني أعرف عددا من الناس الذين يقال: إنهم عاقلون و الذين كانت بالتأكيد صحتهم أشد على من صحته. و ليس من شك أن هذا المجنون المسالم و المجدّ يمكن أن يصبح في يوم من الأيام بطل حكاية أسطورية، بدورها موجودة في الروايات المتناقضة التي يتداولها الناس بشأنه.

يسمى جبل سيناء في المنطقة جبل الشريعة، و إن اسم القديس إيستيفوس Saint Episte ?me الذي يلاصق الجبل المسمى باسمه الدير من الجهة المقابلة، يعني باليونانية: المعرفة Savoir مما جعلني أقول للرهبان: إنه لما كان ديرهم يقع بين العلم و الشريعة، فإنه من غير المستغرب أن يكونوا قديسين و علماء. لقد كنت أصادفهم بالطبع بما فاتت؛ لأنهم لا نصيب لهم من هذا أو ذاك؛ إن لدى عمومًا القليل من الأشياء الجيدة لأقولها حتهم، و لن أتمكن على الخصوص، و أنا صادق، من إطراء تخليهم عن مكاسب الدنيا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۸

المؤقتة/ ۷۸/ لقد بدا لي أن الجشع هو السمة المميزة في طبعهم؛ و قد تجاوزوا بها معا حدود المعتقد و الحجل.

كان على أن أرسل في الأمسية التي وصلنا فيها رسالة إلى المهندسين الفرنسيين المقيمين في وادي حيران، و قد طلبوا منا أن أحمل الرسالة مبلغ ۴۰ فرنكا؛ و هو مبلغ ضخم في هذا البلد. و كان يمكن لأول أعرابي نراه أن يحمل الرسالة مقابل مبلغ أقل بعشر مرات مما طلبوا؛ لقد ساومنا و اتفقنا على دفع نصف المبلغ، و لسنا بحاجة إلى القول: إن الدير يحتفظ بالمبلغ كله، أما المراسل المسكين فإنه لا يحصل على بارة واحدة مقابل تعبه. إن الرهبان اليونانيين الذين يحسبون حساب كل شيء، بادروا من قبل، و لكي لا نضع في حسابنا الحصول على أية مناقع و لو كانت صغيرة، إلى التضحيح بخصوص الرسالة التي حملناها إليهم من كوستا؛ إلى أنها كانت كافية لتفتح أبواب الدير لنا، و لكنه كان من الأفضل أن نطلب رسالة من سلطتهم العليا في القاهرة، و إن ما ينبغي معرفته أن هذه الرسالة تشترى بريال فضي واحد، بينما لا يستفيدون شيئا من رسالة كوستا. لقد أوصونا في اليوم التالي و ألحوا في وصاتهم أن نطعيهم حتى مخصصات الخدم الذين رافقونا في رحلتنا إلى جبل سيناء بحجة أن الخدم سيفقدون تلك الأموال بين الصخور؛ لقد كانوا بكل بساطة يودون الاحتفاظ بها لأنفسهم؛ و لم يكن ذلك إلا بداية واعدة، وقت فيما بعد بما وعدت./ ۷۹/ لقد أجبروا بادي، ذي بدء، و أكاد أقول بالقوة، على شراء هدية من التمر من صنعهم، و سبحات هزيلة صنعوها من سبحاتهم القديمة، و ثمار المنّ معبأة في علب من الصفيح، و حوائج فضية عليها الأحرف الأولى من اسم القديسة كاترين، و غير ذلك من طرائف موجوداتهم، بثمن باهظ. أما بخصوص الطعام فإن الأمور كانت تجري على الشكل التالي: يأخذ الدير على عاتقه تقديم الخبز لكل زائر و ذلك موجود في شروط تأسيسه. يوزع ذلك الخبز اليومي في الصباح على البدو و البدويات؛ لأني رأيت هنا عددا منهن، و كان بينهن واحدة شابة و جميلة، لها عينان ساحرتان، و أسنان لامعة، و لم تكن محجبة؛ و إن نساء البادية كن في هذه الناحية أكثر حريةً، و أقل تشددا من بقية المسلمات.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۹۹

إذا يحق للمسافرين الحصول على خبز الدير، شأنهم شأن كل الناس، و لا يحق غير ذلك أبدا: أما كل الباقي فهذا شأن المسافر، إنهم يسمحون باستخدام المطبخ، و لكنه خال و بدون نار. و إذا أراد الزوار استخدامه فعليهم أن يحضروا كل شيء، مهما بدا من القدور و الفحم و انتهاء بالأطعمة و التوابل المخصصة لأبسط ضرورات الحياة. و نستطيع التفاهم بسهولة مع الراهب الذي يشرف على المطبخ فنحصل منه مقابل مبلغ معقول على الأشياء التي لا غنى عنها في شؤون الحياة المادية؛ و هو يبيعك مقابل أي/ ۸۰/ مبلغ، مهما كان قليلا، عرقا يدعى أنه مصنوع من عنب قبرص.

أما نحن فلم نكن بحاجة إلّا إلى أشياء قليلة جدا، لقد حملنا معنا كل الضروريات، و ما يزيد عن حاجتنا. لقد كان رفيق رحلتي مثال البريطاني في هذه الناحية، كان حريصا على راحته، و يحب ملذات الحياة، و كان يرى أنه يخطئ، في حق نفسه إن لم يتناول يوميا في قلب الصحراء، و جبة عشاء كاملة، و لو كان عليه أن ينتظرها حتى منتصف الليل، كان ذلك عنده مسألة كبرياء، و إحساس بالذات؛ لقد كان في ذلك امتحان لكرامته باعتباره رحالة. و لما كان قد عرف أن عبد ميلاده يصادف، و هو في سيناء، و لما كان حريصا على الاحتفال بالمناسبة كما ينبغي أن يفعل ذلك ابن بريطانيا الحقيقي، فإنه حمل معه من القاهرة لهذه المناسبة ديكا روميا محنطا بالكمأة، بل و حمل معه أيضا الشمبانيا التي فاجأني بها، و شرفني أن أشاركه في شربها.

كانت و جبة الطعام سهلة التحضير مع وجود مثل هذا الصحن الأساسي، و كان ما حملناه من الأطعمة للرحلة يكفينا و يزيد. إذا كنا نأكل على حسابنا الخاص، و كانت موارد الدير غير ذات أهمية بالنسبة إلينا.

ليس هناك حتى هنا ما يستحق النقد، و إنه لمن العدل أن يدفع المسافرون ثمن ما يأكلونه، و لا يمكن أن نطلب من الدير أن يقدّم من أجل أن ينفق على مأكلهم: لذلك فمنا ما يجره المطلوب عن طيبة خاطر، و بلا مساومة. و لكن، و في لحظة حرجة، أعني/ ۸۱/ لحظة الرحيل، حدث مشهد ينسجم تماما لو

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۰

وضعاه في مسرحية الجيل لموليير Molie ?re ، و لم يكن أرباعون ليفعل أفضل من ذلك. فقدما لنا في البداية قائمة حساب بالمصروفات المنفق عليها؛ أجرة حمل الرسالة للمهندسين الفرنسيين، ثمن الطرائف التي اشترياها، أجرة الرحلة إلى الجبل، أجرة خدمات متنوعة ... الخ. لم يكن هناك أي اعتراض على ذلك. ثم قدموا لنا بعد ذلك بقطف قائمة حساب إضافية صغيرة لم نكن ننتظرها، و تحتوي على تفصيلات هي غاية في الطرافة: عشرون قرشا للراهب البواب لأنه فتح لنا الأبواب، عشرون قرشا للراهب الخوري الذي أخذنا لزيارة الكنيسة، عشرون قرشا للخدم الذين لم يخدمونا لأن معنا خدما الخاصين، عشرون قرشا للخدم الذين رافقونا إلى الجبل، عشرون قرشا للراهب آمر الصرف لأننا أزعجناه، عشرون قرشا للفصحة التي أحدثناها، و هذا البند الأخير يذكرني بطريقة البيع الإسبانية؛ إذ تدفع كل شيء، ثم تدفع بعد ذلك للتعويض عما أحدثناه من ضجة.

باختصار، لقد تحصل لدينا عند جمع العشرينات من القروش مبلغ صحيح تماما. أما الزيادة، و أعني الهبة التي اعتاد الزوار أن يتركوها للدير عند مغادرتهم، فقد كانوا يعتمدون في ذلك على مدى كرمنا. لقد كنا على وعي بالعرف، و كنا نوى أن نلتزم به حتى إن هبتنا كانت جافرة من قبل؛ و لكننا لما اعتبرنا أن الرهبان اليونانيين استولوا عليها مسبقا بأنفسهم فقد رأينا من العدل أن نتقص منها/ ۸۲/ بمقدار المبلغ الذي استولوا عليه في قائمة الحساب، و حددناه بمئة و عشرين قرشا. و قد كان ذلك أيضا مبالغة في الكرم؛ لأن الأمريكيين القادمين سبقانا لم يدفعوا أكثر من ذلك مع أنهم مكثوا في الدير زمنا أطول من الزمن الذي قضيناه، و لم يتعرضوا إلا لقليل من الاستغلال الذي تعرضنا له.

هنا انفجرت العاصفة؛ مئة و عشرون قرشا، يا إله العدل، فيك رجاؤنا.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۱

إذا من تظنهم نحن؟ مئة و عشرون قرشا لأناس مثلهم، لأناس مثلنا؟ مئة و عشرون قرشا! إن في ذلك عارا علينا و إهانة لهم! إننا نتسربل بالعار عند ما نقدم مثل هذه الهبة، و إنه لعار أكبر أن يقبلوها. و من الجدير بالملاحظة أن المبلغ كان و هم يحنون قد أصبح في جيوبهم، و لم يخرجوه منها. لقد كان أكثر أفراد القصاصة إثارة راهب يدعى جوزيف، و كان وجهه مميزا لأنه لم يكن له أنف أبدا، و كان يتحدث الإيطالية بإتقان تاما كان يقول: أي طريقة في التعامل هذا؟ و كان يردد ذلك عشر مرات في الدقيقة، و هو يرتجف كأن به مسا، و قد كان يمكن له بطبية خاطر أن يتفوه بكلام جارح لو كانت لديه الجرأة لفعل ذلك. أما الأخ بير المسكين فقد كان يقوم هنا بدور المصلح، و كان كبير الرهبان، و هو رجل محترم له لحية بيضاء، يشرف على هذا النقاش البتيع، مظهرا أن في ذلك إهانة شخصية له نفسه. و استمرت العاصفة وقتا طويلا، و لكنها كانت جحيمة بلا طحن: لم ترد على المبلغ و لا بادرة واحدة.

كان ضميرنا مرتاحا لأن/ ۸۳/ قمنا بالواجب على أكمل وجه، بل وتبرعنا في ذلك عليهم: لقد صرفنا في الدير بعد كل حساب مبلغ خمس مئة قرش، و كان ذلك بالتأكيد لمئة مرتفعا لفيافة دامت أربعين ساعة، و يا لتلك الفيافة!

كان السقوط ذريعا من قمة جبل سيناء إلى مثل هذه الضغاعات، و أعتذر للقارئ، عن ذلك، و لكن إذا كانت الحياة كما نردد دائما، فإن باستطاعتنا أن نعكس الآية فنقول إن الرحلة كالحياة مملوءة بالمشاعر المختلفة، و بالحوادث من كل الأنواع، و فيها من الحوادث البسيطة و العارضة أكثر مما فيها من الأحداث الكبرى. ناهيك عن أن هذه النزاعات الصغيرة، مهما كانت سوقية، فإن ذلك يجعلها تحمل في جوانبها درسا يتمثل فيما ظهر من جشع الرهبان اليونانيين. لقد وجدناهم في كل مكان متشابهين، و خصوصا في القدس حيث كان جشعهم أكثر إزعاجا؛ لأنه جشع لا مبرغ له، و هو بالتالي لا يغفر.

إذا حاولت الدخول إلى كنيسة القيامة Saint Se ?pulcre ولكنك تجد

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۲

راهبا يونانيا مرابطا عند الباب يسد لكنك يده، و إذا حاولت الصعود إلى جبل الجلجلة، و أنت ترتجف متأثرا بتلك المشاعر التي يحركها هذا المكان في نفوس أقل الناس إيمانا فإنك تجد هناك راهبا يونانيا آخر يصب ماء الورد على أصابعك و يطلب منك أيضا أجرة عمله الخير، و إنهم في الحقيقة يقتنون بالقليل؛ فحض القروش تخلصك منهم. و يبدو أن الرهبان الإغريق لم يكونوا في عهد سوفوكليس Sophocle أقل جشعا، لأن هذا الشاعر يقول للعرافين العجوز/ ۸۴/ تيريزياس Tirsias على لسان كريون Cron : «إن الجنس

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۳

الكهنوتي كله يحب المال، لقد أثقلت لسكان ذلك التل غير المضياف و أنا أستعد لمغادرته كلمة وداع كانت هي مقولة مواطنهم المشهور سوفوكليس، و قد قلتها بلهفتهم حتى تكون مفهومة لديهم أكثر .

لقد فاتني الحديث عن محنة من نوع آخر عانيتا منها، و أجد من المفيد أن أرويها. لما كانت سيناء، التي تسمى رسميا جبل الطور واقعة في منطقة نفوذ عباس باشا فقد كانت له فيها حامية صغيرة كانت تعسكر حينئذ بالقرب من الدير، و كان قائد الحامية يرتبة بنباشي (مقدم)، و قد قمنا بزيارة مجاملة لهذا الضابط عند وصولنا، فلم يحسن استقبالنا: لقد انتقاء عند مدخل المعسكر، في الهواء الطلق، و نحن وقوف، بلا قهوة و لا..شيشة، بل إنه لم يدعنا إلى خيمته. كنا منعطفين لأنه آسف استقبالنا، و أعلمناه بذلك عن طريق خادم تركي كنا نستخدمه، و طلبنا منه قصدا أن ينقل إليه الرسالة بالتركية؛ و هو أمر يغضب المصريين و العرب لأن التركية لغة الغزاة. لقد انزعج من تهيختا له/ ۸۵/ و أراد بدوره أن يثأر مما لذلك، فطلب أن نسأل عن جوازات سفرنا؛ نعم أيها القارئ، جوازات سفر في سيناء! إن مصر الغنية بأسباب الحضارة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۴

الأوروبية لم تنس من بينها هذا السبب (جوازات السفر). كان ذلك البناشي يظن أنه سيجد في أوراقنا نقصا، إلا أنه نال ما يستحق؛ لقد كان رفيقي نظامية، و كنت أنا أكثر نظامية منه، لأن مبدئي في السفر هو الحصول على عدد كبير من التأشيرات، و عدم الاقتصاد في ذلك، لكي أتجنب الإزعاج و التأخيرا لذلك كان معي جواز سفر خاص بالذهاب إلى سيناء، حصلت عليه من القنصل الفرنسي في القاهرة، و مؤشر من السلطات المصرية، و قد طلبت زيادة في الحيطة أن يسجل عليه السلاح الذي أحمله، و لما لم يجد وسيلة لأزعاجنا، لم يكن لديه ما يستطيع فعله إلا أن يعيد لنا أوراقنا؛ و هذا ما فعله، و لكن ليس دون أن يمنح نفسه بوضع تأشيرته الخاصة عليها، و قد علمت من ذلك أن هذه الشخصية المشهورة تسمى Hassim Ibrahim هاشم إبراهيم. و لما شعر بأنه قد هزم في هذا الجانب أراد أن يثأر بطريقة أخرى، لقد تخيل أن باستطاعته مصادرة الجمال التي حملتنا من مدينة الطور، و التي كان من المفترض أن ترجعنا إليها. و إليكم الدافع أو الحجة للقيام بهذا الإجراء المتنوالي؛ إن الأعمال الجارية في الطريق، و حاجة معسكر العاملين فيه، جعلت الحكومة المصرية تحجز كل جمال المنطقة: صحيح أنهم كانوا يدفعون لأصحابها/ ۸۶/ أجرة جيدة؛ و لكن ثقل الأحمال، و المعاملة السيئة التي تلقاها تلك الجمال من الجنود، جعل عددا كبيرا من هذه الحيوانات التي تغذى تغذية سيئة، و نكاد نكون من قبل متهكة بسبب الضائقة العامة، جعلها، تموت من التعب، و جعل طرق الصحراء مليئة بقايا جثتها. لذلك لا يلتزم البدو، إلا بعد تردد، بأوامر الباشا، و يرفضون للتخلص منها كلما استطاعوا فعل ذلك، دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر؛ لأن بندو سيناء مفسدون تماما و مهجنون تماما: لقد أصبحوا فقراء، لا يملكون إلا ماشية قليلة، و ليس لهم من مورد في الأوقات العادية إلا أن يذهبوا إلى القاهرة ليبع ملح المناجم و الفحم، و تحاشى السلطات استخدام العنف الشديد في معاملتهم، و ذلك لسببين، أولهما: أن سياسة عباس باشا حينئذ كانت تقوم على استمالة البدو كلهم من هذه الإجراءات؛ مخافة أن يؤدي التشديد عليهم إلى إثارتهم. و ثانيهما: أنهم إذا هربوا إلى قلب الصحراء، فليس

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۵

هناك من سيذهب للبحث عنهم، و كلما كثر البدو كثرت الجمال. لذلك كانت حالة البلد، و اعتمادا على أوامر المصادرة التي أصدرتها حكومته تقلم البناشي أمر مصادرة جمالنا زاعما أنها تابعة للمعسكر، و أنه اعتمادا على ذلك لا يحق لبدو الطور أن يؤجروها. و قد أجبناه عن ذلك بالقول: إن كوننا غير مصريين، و غير بدو/ ۸۷/ يجعل أوامر الباشا لا تخصنا أبدا، و إن جمالنا لنا حتى الطور لأننا استأجرناها، و دفعنا أجرتها، و إننا نمنعه من أن يمسها، و نلقي على عاتقه مسؤولية تعويض الأضرار التي تلحق بنا، و لن نتوانى عن طلبها من الحكومة المصرية عن طريق قنصليا عن كل ساعة تأخير يسببها لنا، ناهيك عن إزاحته عن منصبه التي ستتلو ذلك دون أدنى شك. و بعد هذا الاعتراض الحاسم، كتبنا في السماء، نفسه رسالة إلى صديقينا المهندسين في معسكر وادي حران ليمدوا لنا يد المساعدة عند الحاجة. و لم تصل الأمور إلى هذا الحد لأن البناشي خاف، و عدل عن مزاعمه، و أفرج عن جمالنا و جاءنا زائرا، و لكننا رددنا له الصاع صاعين باستقباله كما كان قد استقبلنا: كنا على طاولة الطعام عند ما جاءنا، و بدلا من أن ندعوه إلى مشاركتنا طعامنا، كما كنا سنفعل ذلك في ظروف مختلفة تماما، و كما جرت العادة دوما في الشرق، تركناه واقفا، و لم ندعه يدخل علينا بل تركناه على قدميه أمام الباب، و لم توجه إليه أي كلمة، و لم نعره أي اهتمام كما لو أنه ليس بموجود. كان هذا الدرس القاسي ضروريا: و ينبغي على الدوام معاملة الأتراك كذلك في مثل هذه الحالة، و إلا/ ۸۸/ فإنهم سيحتقرونك و يزحجونك.

لقد أبدينا في مقابل ذلك احتراما كبيرا لطبيب عسكري شاب كان يرافقه، و لم يكن لدينا ما نأخذه عليه، كان مصريا، و يتحدث الفرنسية و الإنكليزية بطلاقة. و قد لمحنا في أثناء رحيلنا من بعيد آن البناشي، قد خطرت له فكرة عبقرية؛ إذ نصب في وسط المعسكر منصة عالية من الخشب فوقها كرسي، و كان يجلس عليه، و كأنه مشعوذ على سريره، فثار بلا شك أن مكانته المعنوية ترتفع بسبب مباشر من ارتفاعه المادي. مررنا على مرمى منه دون أن نلتفت إليه، و لست أشك بعد كل ما حدث، أنه لم يحتفظ بذكرى حسنة عن إقامتنا في سيناء.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۶

إن أخشى ما أخشاه في السفر هو أن أسلك الطريق نفسها مرتين، و قد كفتني ثلاثي ذلك القيام بالمغطات لا يستهان بها، و لكن الضرورة هنا دفعتني إلى ذلك. لقد كان علينا أن نسلك في العودة الطريق نفسها التي سلكناها في المجيء، و أن نضع أقدامنا على آثار خطواتنا التي ما زالت واضحة. تجاوزنا مرة أخرى السهل الكبير الذي نزل فيه العبرانيون بقيادة هارون الأخ الشقيق لموسى، و عبدوا العجل فجأة. ثم هبطنا بعد ذلك عبر نقب الدير الذي يبدو لي الآن، لو كان ذلك ممكنا، أكثر تهيدا و أكثر رعبا أيضا من المرة الأولى. لقد التقينا أحد السائحين الأوروبيين و هو يصعد القنة/ ۸۹/ و لما كان هو أيضا يقوم بزيارة الدير فقد نصحنا له بأخوة، و بلا إلحاح أن يكون حريصا كل الحرص على أمواله، و لم نقابل أحدا آخر حتى نهاية الرحلة إلى سيناء.

نصبنا خيامنا على حدود وادي صلاف، الذي يقع تماما عند أقدام نقب حوران. كان ذلك التوقف راغما، و لا زالت ذكراه ماثلة حية تختلج في

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۷

ذاكرتي. كان الزمان و المكان يزخران بالجمال و السحر: كانت الوديان و الكتل السفلية من الجبال قد بدأ يغشاها الغسق، و لكن القمم العالية كانت ما تزال تقدح بعض شرر الغروب. إنه التراع الأخير بين الضوء المتلاشي و بين الظلمة التي تولد، و كانت عظمة المكان و جماله، و هدوء الطبيعة، و البهاء الطيل، و المساء الحزين، و الزلزلة، و الصمت، و الحرية، كل ذلك، كان يمس شغاف القلب، و يجعله تملا بالأحاسيس التي لا يمكن التعبير عنها، و في هذا اليوم أشعر حقا لأول مرة أنني أقمت في الصحراء.

لم تمددنا الرحال عند مطلع الشمس إلى ذلك الثقب الفيض، ثقب حوران الذي لا يقل عبوره من هذه الجهة صعوبة عنه من الجهة المقابلة، و الذي أجهدنا في المرة السابقة كل الإجهاد، و قد أجهدنا في العودة أكثر أيضا، لأننا هبطنا منه هبوطا يكاد يكون عموديا، عبر طريق أكثر قصرا، و لكنها أكثر سوءا من الأخرى، تكثر فيها الصخور المحدبة، و الحجارة المتدحرجة، لقد كان الثقب سريع الانحدار حتى إن الجمال لا تستطيع نزوله، فقامت بالتفاف طويل حوله استغرق وقتا، وجدنا أنفسنا معه مضطرين/ ۹۰/ لانتظار وصولها وقتا طويلا في أسفل المنحدر.

و لما دخلنا وادي حوران تبدى لي من جديد جبل سربال الذي كان عاريا و قاحلا، و لكنه كان جليلا كما تركته في الذهاب. و لقد أدهشني عند ما اقتربت منه عارض مزدوج من التناغم بين الضوء و الأرض، كانت قد فاتتني ملاحظته في المرة الأولى، لأن الشمس كان لها حينئذ وضعية مختلفة: إنه منحدر ضخم، ثاني، جدا، و يحدث في الجبل قطعا عرضيا جانبيا، و كانت طريقة الإضاءة في تلك اللحظة تعكس عليه ظلا واضحا كل الوضوح، و أسود فاحما حتى لتظنه ثوب جداد ضخما، ملقا بشكل متصالب على أحد العمالقة.

لقد انضم إلينا خلال الطريق متطوع جديد: إنه قعود صغير و حر، ضائع بدون شكك، و ما زال هو مسأتنس أيضا، انضم إلى قافلتنا بدافع حب الجماعة، و أضحكنا طوال فترة الصباح بقفزاته الجميلة، و باستقلاليته؛ فمع أنه كان يتبعنا عن قريب، لم يترك أحدا يمسك به، أو أن يقترب منه. و قد لقي جزوه حملة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۸

استطلاع وجدناهم معسكرين حول نبع نقب حوران ضعوبة كبيرة في الإساك به، و لم ينجحوا في ذلك إلا باستخدام أنشوطة؛ لقد كان دفاعه عن نفسه بطوليا، و قد استطاع أن يجندل غير واحد من مهاجميه خلال الصراع. لقد كنت شاهدا على المعركة، و أنيخت لي الفرصة خلالها لمراقبة قوة ذلك الحيوان و رشاقته القطريتين، و كيف يتحول إلى حيوان وديع كل الوداعة، و يصبح في غاية من اللطف، عند ما يكون/ ۹۱/ مستأنسا، و يصبح جيئذ أكثر بطئا، و أكثر تأنيا.

كان العمل في الطريق قد تقدم خلال الأيام الخمسة التي استغرقتها رحلتنا، و مع ذلك فإن المهندسين لم يكونا بعد قد غادرا مكان إقامتهما في جانب المسيل العالي ليكونا على الدوام كعادتهما مشرفين على الأعمال. كانا ينتظرانا في خيمتهما، و قد هيأ غداء فاخرا، كان الطبق الرئيسي فيه فخذ جدي بري، و قد كنا نحن أيضا قد أتينا بجدي كامل اصطاده أحد البدو في جبل سيناء، و اشتريناه منه عند مغادرة الدير.

لعلكم تظنون، و قد كنت أظن ذلك، أنه لا..وجود لذلك الحيوان البالغ الروعة إلا في فلك البروج، و في المتحف الخيالي للمدار الحجري؛ إنه موجود حقا ليس في صحراء سيناء فقط، و إنما في السودان، حيث رأيته بعض المرات، أقل حجما من اليحمور، و أقل منه علوا، يشبه الأيل شبها كبيرا إلا أن قرنه ليس له ضخامة قرن الأيل الكثير العقد، و القروع، و الذي لا يتناسب أبدا مع حجم رأسه و بقية أعضاء جسده.

كان الغداء بهيجا، و قد تعرفت خلاله على سبعين جديدين هما: علي أفندي، و سليمان آغا من ضباط المعسكر، و هما مسلمان

ملتزمان، و يتحدثان الفرنسية، و لا يشربان النبيذ، مع أنهما يجلسان على طاولة أوروبية، و هما يخشيان دوما من أن يطعمهما أحد في غفلة منهما لحم الخنزير أو دجاجا غير مذبوح على الطريقة الإسلامية/ ۹۲. رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي ۱ ص۱۰۸

ى الرغم من أننا كنا في شهر يناير (كانون الثاني) فإن الجو كان خلال الرحلة مشرقا؛ و هو شيء غير معتاد في هذا الفصل، إلّا في مثل هذا الشتاء

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۰۹

المناسب، و لكن اليوم التالي، آخر أيام الرحلة، كان مزعجا: كانت السماء مكفهرة، و كان هواء البحر البارد و العاصف يجعلني أتجمد على ظهر الهيجان الذي كان يسير بسرعة دون أن أستحثه على المسير، و وصلنا إلى الظهر في ساعة مبكرة.

لقد وجدت ريس مركبنا جالسا في المقهى نفسه الذي تركه فيه عند المغادرة، فهب واقفا أمامي بلطف، و رحب بي بتهامة عربي من العرب الأوائل. و بينما هو يوجه إلي التهاني و عبارات المجاملة كان جمالتنا يهيرون بسرعة مع جمالهم التي ما كادت الأحمال تنزل عنها، خوفا من أن يتم حجزها في الظهر كما حدث في سيناء، و على حين غرة كانوا في أعماق الصحراء.

و لما لم يعد لي ما أفعله في الظهر ذهبت للنوم في المركب الذي انتظرتا بصبر في الميناء، ثلاثة أيام أكثر مما كان مشترطا في العقد، و في اليوم الثاني، و مذ الفجر نشرنا الأشرعة في الطريق إلى جدة.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۱

الفصل الخامس البحر الأحمر

يسمى المركب الذي صعدت ظهره في البحر الأحمر، السنبوك .

طوله ۶۰ قدما، و عرضه ۱۵ قدما، و لم يكن مجذرا إلّا في الخلف حيث يرتفع

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۲

ضرب من الكوتل، أعدوا تحته خلوة أطلقوا عليها اسم مقصورة و لا فخرا و هي واسعة تكفي لاحتواء مرتبتين و لا شيء غيرهما، كما تنام هناك، أنيا في النهار فكنا نعيش في الهواء الطلق على الكوتل. و إن للسنبوك الذي يسير بالتجديف شراعين يكادان يكونان لاتينيين؛ أحدهما في مقدمة السنبوك، و يمتد بكامله خارج السنبوك عند ما ينفخه الهواء، و يشكل ما يشبه بالونا نصف مدور.

أما جؤجؤ السفينة، فقد كان يشبه ما رأيته مرسوما على لوحات جدارية أو ميداليات قديمة، و أراهن واثقا، أنه و مذ قرون، لم يتغير أي شيء، فيه، و أن المراكب و الأشرعة و المجاديف هي بالتأكيد نفسها منذ العصور الموغلة في القدم، و أن البحارة يرسون في المرافئ، نفسها، و يمارسون العادات نفسها، ولديهم الأحكام المسبقة نفسها، و نذر الشؤم نفسها التي كانت في عهد سكان الكهوف.

كان السنبوك مصنوعا من خشب هندي قاس جدا يسمى: الساج. و قد رأيت في ميناء مرسيليا/ ۹۴/ سفينة قديمة تابعة لشركة الهند، مصنوعة من الخشب نفسه في بومباي في عام ۱۷۰۷ م، و قد أصبح هيكلها قاسيا حتى إنه يثلم المسامير التي تود غرزها فيه و يفوتها.

يبحر بطريق البحر هذا، منذ مئة و خمسين عاما، و بعدّ قال خبير لأنه لم يغرق أبدا، و أغنى كل من ملكه .

و قد كان لسنبوكنا أيضا سمعة حسنة جدا، لقد كان يعدّ عن استحقاق سنبوكا سريعا، و كان الشيخ عبد الغفار، مالكه، و هو تاجر ثري من تجار جدة، مسرورا مما ينجز به من أعمال، و قد كنت مسرورا أنا نفسي لأنني وجدته يقوم بالرحلة.

كان على متنه، ناهيك عن الريس، فريق مكون من عشرة بحارة، و عبد أسود صغير، رشيق و نبيه، كان في الوقت نفسه يعمل نوتيا و خادما للجميع.

و كانوا يعاملونه معاملة إنسانية لائقة، و لم أره خلال خمسة عشر يوما قضيتها على ظهر السنبوك يعاقب إلّا مرة واحدة، و بلطف شديد، و أجدني مدفوعا إلى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۳

الاعتراف، لكي أقلل صادقا، أن السنبوك كان يعج بالحراذين، و بشكيلة كبيرة من الهوام؛ و لكنني أضيف مسرعا أن تلك الهوام كانت كما يبدو قد اعتادت العرب، و ظلت و فية لهم، و لم يثنا منها إلا إزعاج بسيط.

تلك هي السفن المستخدمة في البحر الأحمر، إنها آلات خفيفة لملاحة صعبة. يعدّ هذا البحر واحدا من أخطر البحار/ ۹۵/ التي نعرفها: تقلعه و تعره في كل الاتجاهات تيارات مائية، و تملؤه الصخور البحرية و الشعاب المرجانية، و هو، ناهيك عن ذلك، معرض لعواصف هوائية عاتية، يجعلها تقارب الثمانين و الجبال كثيرة الحدوث، و النهر؛ لذلك كثيرا ما تغرق السفن فيه، على الرغم من حذر البحارة الشديد و وجلهم. لقد علمتني تجربتي، كما سنرى، أن هذا البحر غير مغرى عليه، و إن كنت لم أهلك فيه، فقد أو شكت على ذلك، و إنني أدين بخروجي سالما لحماية السماء، و صلاة السنبوك.

أبحرنا من الظهر فجرا، و كان الهواء طوال اليوم مؤاتيا، و ها نحن قريبا نتجاوز رأس محمد، الذي يعد الحد الأقصى لشبه جزيرة سيناء.

و في المساء، و على الرغم من أن الهواء كان ما يزال مؤاتيا، فإنه أصبح عنيفا، يثير القلق، و هاج البحر، و أصبحت الأمواج تتقاذفنا بعنف شديد، و نحن في زورقنا السريع العطب.

قلت: إن المراكب في البحر الأحمر، لا تسير ليلا أبدا. و قد كان ينبغي هنا بالتأكيد الالتزام بهذا العرف، و البحث عن ملجأ بقربنا هذا الجو العاصف، و لكن الأمر هنا، المرة كان مستحيلا؛ لقد وصلنا خليج العقبة الذي كان ينبغي تجاوزه كاملا لكي نجد ملجأ أو مرفأ، إذا كان ينبغي الإبحار طوال الليل على الرغم من عنف الهواء/ ۹۶/.

كان المركب يسير بلا بوصلة، لأنني لا أستطيع إعطاء هذا الاسم للبوصلة البدائية المصنوعة من الخشب، و التي لا يكاد أحد ينظر إليها في النهار، و ليست مفيدة في الليل أبدا. كنا نسير وسط الظلمات نحو المغامرة بلا أمم، و حسبما تقودنا العاصفة، و لما يئس البحارة من السيطرة على المركب، و هم لم يحاولوا ذلك، فإنهم تركوا قيادة السنبوك، و استسلموا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۴

للكسل و الرعب، سلموا أمرهم لله وحده في توجيه المركب و حمايته؛ بعضهم صمت، و بعضهم الآخر كان يستغيث بكل أولياء الإسلام. و كان أحد خدمنا، التركي الذي تحدثت عنه سابقا، يزيد من حالة الرعب العام، كان في أقصى حالات الخوف، يثير الضحك في بعض حالاته، حتى إنني كنت سأضحك من ذلك ملء شدقي لو كان الضحك مقبولا في مثل هذه اللحظات. كان السنبوك يصر عند كل عاصفة عارمة كما لو أنه سيحرق، و كان يميل على جانبه كل الميل، حتى ليخيل أنه من المستحيل أن ينتوى مرة أخرى، و كنت أنتظر أن أراه بين لحظة و أخرى و قد انقلب أعلاه سافله. كان الموج يغطي كل شيء، و يكنس كل شيء، حتى الكوتل على الرغم من ارتفاعه. و لما لم يكن باستطاعتنا، رفيق سفري و أنا، مواجهة ذلك إلّا في المقصورة، فقد كنا هناك مستلقين جنبا إلى جنب، كلّ على قرائه تنتظر مستسلمين الحالة، المحنة على أي وجه؛ ناهيك عن أنه كان علينا أن نحافظ على توازننا/ ۹۷/ لأن ميل المركب كان شديدا، و يجعل فرشتينا تنقلب إحداهما فوق الأخرى كأنهما ورقتا كتاب، و يسطحنا بينهما كأننا لبنتان في كتاب الأهتاب، لم يقذفنا بعنف على جانبي المركب متعرضين لخطر أن تهرس رؤوسنا، زد على ذلك أن الماء كان يتسرب من كل مكان، و كأننا كنا نسبح في مياه البحر حقا، و لحسن الحظ أننا لم نصب بدوار البحر مما كان سيزيد الطين بلة.

استمر ذلك الكرب طوال الليل، كانت ليلة طويلة من ليالي الشتاء، و لم يقشع النهار حدا لذلك الكرب، بل كان استمرارا لليل و أكثر سوء منه.

و استمرت العاصفة حتى المساء؛ حينئذ فقد ارتخينا بعض الارتياح، و سمح لي بمغادرة فراشي و سجني، و لما كان القول: عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم صحيحا كل الصحة فإن العاصفة دفعتنا في وجهتنا التي نريد، و كان لها على الأقل ميزة، تكمن في أنها جعلتنا نقطع في وقت قليل مسافة كبيرة من الطريق. و ألقينا المراسي عند غياب الشمس، في جزيرة مقفرة و رملية اسمها نعمان، تقع على مقربة من الشاطئ، الذي تلمع عليه ضياء؛ و هي قرية كبيرة من العربية الصخرية مشهورة بطيب مياه آبارها.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۵

إن خليج العقبة الذي قاسينا ما قاسيناه في تجاوزه، و تركنا في نفسي ذكريات مؤلمة، هو مثل خليج السويس جون صغير على البحر الأحمر الذي ينفتح/ ۹۸/ في هذا المكان ليوسع مكانا لشبه جزيرة سيناء. لقد اكتسب خليج العقبة اسمه من قلعة قديمة مهدمة اليوم، تكاد تشغل كل مؤخرته، و تحدد أقصى الأراضي المصرية.

و ادعى مؤخرا أحد البريطانيين، و هو الكابتن آلان W. Allan، أن هذا الخليج كان في أحد الأيام الغابرة متصلا بالبحر الأبيض المتوسط عبر البحر الميت و بحيرة طبريا، و استند في ذلك على التوضعات الأرضية الممتدة من القواعد الشمالية في لبنان حتى البحر الأحمر، و التي ليست إلّا واديا عميقا، و استند أيضا على اختلاف بالغ في المستوى مع البحر الأبيض المتوسط، حتى إنه يتجاوزه في بعض الأماكن ۴۰۰۰ متر. و هو يرى، و الحالة هذه، أنه إذا تم حفر قناة في محيط جبل الكرمل فإن البحر سيندفع في هذه اللجة ليتصل بالبحر الأحمر كما كان الأمر في غابر الأزمان.

إن أكبر بحيرتين في فلسطين ستلتقيان بسهولة مع البحر الأحمر كما يفترض الآن بوساطة قناة ثانية تحفر من البحر الميت إلى خليج العقبة. و تصبح الصحراء السورية بذلك محيطا، و يصبح البحران بحرا واحدا. و إن كان هذا المشروع العملاق ممكن التنفيذ، فإنه سيغني عن شق القناة الحالية في مضيق السويس، و يجعل الوصول إلى الهند أكثر سهولة.

لقد عوضنا اليوم التالي عن الشحن الصعبة التي مررنا بها في اليوم السابق: فالهواء، الذي كان على الدوام مؤاتيا جدا، أصبح أكثر تناسبا مع طاقة/ ۹۹/ الإنسان، أما البحر الذي كان ما يزال في الصباح هائجا، فإنه هدأ تدريجيا. و استعاد طاقم البحارة شجاعته؛ و لما لم يكن لديهم ما يفعلونه، فقد أخذوا في الغناء، حتى الخادم التركي نفسه، كان بعد أن زال عنه الرعب، يغني كالآخرين، و يزعم أنه لم يعرف الخوف لحظة واحدة. تركنا إلى البر

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۶

مساء في الوجه الذي نلفظ وش Ousch . استقبلنا عند نزولنا بعض الجنود الأتراك الذين كانوا حامية في هذا المكان البعيد. و كان أحدهم، و يا للمفاجأة السعيدة، يتحدث الفرنسية، و كان يقول: إنه من إستانبول، و ربما كان أحد الجنود القارين من جيشنا، و سواء أكان قارا أم لا، فإنه أبدى اهتماما كبيرا بنا، و كان لطيفا كل اللطف، و قدم لنا خدمات صغيرة متنوعة. قضيت الأمسية معه جالسين أمام القهوة، و حولنا بالقطع بعض السكان الأصليين الذين يمكن بالتأكيد تفهم فضولهم الذي لم يكن على أية حال مزعجا.

إن رؤية أوروبي في هذه الأنحاء شيء نادر، و لما وصلت أنباء وصولنا إلى بئر الجرارة، و هم أعراب من قبيلة بلي فإنهم حملوا إلينا أطنبة من كل الألوان، البيض، و الخراف، و الحليب، و السمك، و الخبز أيضا، حتى إنه أصبح من السهل علينا أن ندعم مخزوننا من الطعام اللازم للرحلة و تجدده.

كان الجو لطيفا، و كان البحر الذي استعاد هدوءه، يأتي لتكسر أمواجه على الساحل الرملي، و كانت أسراب من النوارس تحلق فوق سطح البحر.

تحتوي قرية الوجه على قصر يحمل الاسم نفسه، يقع على بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ إلى الداخل/ ۱۰۰/، على طريق قافلة الحج المصرية الكبرى من القاهرة إلى مكة المكرمة، و إذا صدقت الروايات، فإن هناك إلى جهة الشمال البعيد، على بعد خمسة أو ستة أيام من المسير، و على بعد ۱۴ يوما من العقبة، على طريق قافلة أخرى؛ هي قافلة دمشق. آثار في غاية الروعة؛ إنها مدائن صالح ! حيث ما زلنا نرى هناك منازل يبلغ عددها بين ۸۰ إلى ۹۰ منزلا.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۷

منحوتة و محفورة في الصخور، و هي كلها تقريبا مؤلفة من صالة كبيرة، و من عدد من المقاصير الصغيرة، و من مكان للصلاة، و يوجد على أبواب أطنبة نقوش تمثل ثعبانا، و لكن الحجاج حطموا كل ما وصلت إليه أيديهم منها، و ظل عدد قليل منها لم تمتد إليه يد التحطيم. و إن على الصخور المستخدمة في بناء جدران هذه البيوت العربية نقوشا لم يستطع أحد فك رموزها أبدا، أو الوصول إليها بسبب علوها: إنها تحيق اللغة التي كتبت بها تلك النقوش .

و يوجد في هذا المكان آبار كثيرة و لكن ماؤها مر، و هوالؤها فاسد، و يظن الناس أنه مشحون بالسموم. و يعدّ المسلمون هذا المكان من الجزيرة العربية مكانا مشؤوما منذ الأحداث التي رافقت قصة ناقة النبي صالح عليه السلام .

و إن قافلة الحج الشامية التي تجد نفسها مضطرة لعبور هذا المكان الملعون في الذهاب و الإياب تفقد في كل مرة عددا من حجاجها، و خصوصا أولئك الذين في قلوبهم مرض/ ۱۰۱/.

إذا، أي مدينة هي تلك المدينة المجهولة، المدفونة في حضن الصحراء؟

من أسسها؟ و من سكنها؟ و من هدّمها؟ إن وجودها مشكل، و مصيرها لغز عويص. يخيم الصمت على ماضيها كما يخيم على آثارها.

و إن كل ما قلته هنا هو تردد لما أخبرت به، لأن شيئا لم يكتب أبدا، حسب علمي، بخصوصها.

و إنني إذ أقدم للقارىء ما انتهى إلي معرفتي من معلومات عنها فإنني أدعوه إلى أن يأخذها مع الاحتفاظ بحق المراجعة، كما فعلت ذلك أنا نفسي .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۸

حصلت على هذه المعلومات من باشا المدينتين المقدستين الذي أكد لي أنه رأى الأمور بعينه؛ و أقر أن ذلك ليس ضمانة صدق، أو دقة. و ليس هناك في الشرق ما هو أصعب من الحصول من أي كان، و حول أي موضوع كان، على معلومات، و إن كانت إيجابية. و ينبغي أن يسيطر الحس النقدي على أكثر الأقوال تأكيدا لمراقبتها. و تكمن الصعوبة في أبسط الأشياء، فأنا على سبيل المثال أتحدى إن كان بالإمكان أن يعرف على وجه الدقة مقدار المسافة التي تفصل بين المكانين، و كلما طرحت على الريس سؤالا من هذا النوع فإنه يصرح في الإجابة قائلا: «إن الله مع الصابرين». لم نترك إلى اليابسة أبدا في الأيام الثلاثة التالية و هي ۳ و ۴ و ۵ فبراير (شباط)، و كنا على مسافة بعيدة عن الشاطئ، حتى إننا لم نكن نراه في بعض/ ۱۰۲/ الأحيان.

كنا في الليل نتوقف في وسط البحر، و كان الجو في الأيام الثلاثة المذكورة رائعا؛ لم يكن في السماء أي سحاب، و كان البحر خفيف الموج، و لم يكن هناك هواء إلّا ما يكفي لنشر أشرعتنا. و بعد أن كنا قد تعرضنا لهبات عنيفة أصبحنا الآن نتحرك بلطف و كأننا في

المهد.

كنت مستلقيا في مؤخرة المركب على سجادة طبتيا بها الكوتل، و كان هناك سجادة أخرى نصبت فوق رأسي تحميني من الشمس التي كانت شديدة الحرارة في هذا الفصل. كنت أقضي الوقت، و أنا أحلم، و أتأمل، و أستنشق النسيم البحري، و أتشفى بهذه السماء، و بهذا البحر الرائع، و مرت ساعات العمر الطويلة بسرعة و دون ملل. كان الساحل الإفريقي قد غاب عن الأنظار منذ فترة طويلة، و لكن ساحل الجزيرة العربية أصبح ظاهرا للعيان منذ اليوم الأول، كان محاطا بسلسلة من الجبال الحمراء التي كانت تتوالها الطويلة و قممها المسننة تلفت النظر بتنوع أشكالها، و كانت منذ طلوع الشمس حتى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۱۹

غيابها تتلون بكل الألوان، و بكل ظلال الطيف الشمسي. و إن أكثر الجبال ظهورا من تلك السلسلة هي: جبل رعل (رعال)، و سفخة (۴) Safkha ، و جبل كركما، و هي أسماء أخذتها من فم الريس و كتبتها كما كان يلفظها.

و إذا انحدر النظر من الجبال إلى البحر فإننا نؤخذ بتنوع الألوان الذي ينتج، حسب ظني، عن اختلاف الأعماق: فهو هنا لون/ ۱۰۳/ أخضر مائل إلى السواد، و هناك لون أبيض ممكرز و في مكان آخر يلون بفروق اللون الأزرق كلها من الأزرق الصافي إلى الأزرق النيلي القاتم جدا» و هو في كثير من الأمكنة يكتسي اللون الأحمر القاني. و إن هذا اللون يكتسيه البحر دون شك من الرصيف المرجاني الفسحم الذي ينتشر فيه و في كل الجهات، و إنه من المحتمل على الأقل أن هذا البحر اكتسب اسمه من هذا الظرف الطبيعي.

إن أبسط قواعد الاشتقاق هي أكثرها قبولا، و خصوصا تلك التي تقوم على

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۰

وقائع مادية و ملموسة. لقد سمعت من ينسب صفة الأحمر إلى قبيلة عربية تعيش على سواحله و تحمل هذه الصفة نفسها. و لكن ذلك قول فيه بعض العنتوانية؛ لأن تلك القبيلة لم تعد موجودة، و ربما لم تكن موجودة في يوم من الأيام. و لكن إذا افترضنا أنها وجدت في يوم من الأيام فإن ما ينبغي معرفته إن كانت هي التي أعطت البحر اسمها، و لماذا لا يكون البحر هو الذي أعطاها اسمه.

و ما دام الحديث عن الاشتقاق يجر بعضه بعضا فإنني أقدم اشتقاقا، و لا أدعي أنه الصحيح، و لكنه الاشتقاق الذي أراه صوابا. تسمى العرب جهنم الدار الحمراء، و إن لهذه الصفة لديهم على الدوام دلالة شؤم؛ فهل من المستحيل إذا أن يكونوا قد أطلقوا على هذا البحر المهلك بسبب أخطاره المحدقة، و أحداثه القظيعة اسما يقترن بالرعب الذي يلقيه في نفوسهم؟

توقفنا في الليلة الأولى بين دكتين من/ ۱۰۴/ الصخر تظهران على وجه الماء، و هما ملجأ ممتاز للاحتماء من المد البحري؛ لأن الموج يأتي ليتحول إلى زبد في كلا الجانبين، في حين أن الوسط يبقى هادئا تماما. يسمى هذا المكان «أبو حرير» ليس بالأمر السهل أن نكتب بالأحرف الفرنسية الأصوات الحلقية العربية، و خصوصا عند ما لا نكون قد رأيناها فط مكتوبة.

رسونا في الليلة التالية لنحتمي بجزيرتين تفصلهما قناة ضيقة تسمى الأولى لبانة و الأخرى جبل حسان، و تسكن الجزيرتين في أيام الرعي قبيلة جهينة العربية

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۱

التي تعيش على الساحل، و تحمل قطعان ماشيتها على الفلك. و قد كانت حين لجأنا إليها مقفرة، و لكننا نرى فيها أكواخا بناها الرعاة، ثم تركوها حتى موسم الرعي القادم. إن لهؤلاء البدو، شأنهم شأن بدو الساحل كلهم، سمعة سيئة لدى البحارة؛ لأنهم يعدونهم لصوصا من ذوي الجرأة، يسطون في أغلب الأوقات على المراكب، أو إنهم يأخذون منها جعالة على الأقل؛ لذلك يحرص البحارة على تجنب الاقتراب منهم، و يظلون بمراكبهم على مسافة آمنة من المناطق المشبوهة.

و ينبغي أن أشير هنا إلى أن الريس قدم لبحارته و لنا القهوة إكراما لأحد أولياء الله المسلمين المدفون في جزيرة مجاورة، و اسمه الشيخ حسن المرابط (بكسر الميم) و يلفظه البحارة/ ۱۰۵/ مرابط (بضم الميم)، و هو اسم تحول في الجزائر إلى مرسوط (مارابو Marabout)، و المرابط هو الذي نذر نفسه للدفاع عن الدين. و إن الولي المذكور هو سيد هذه الأنحاء التي يلقى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۲

فيها تبجيلا عظيما. لا تمر سفينة بجوار ضريحه دون أن تطلب عونه، و دون أن ترسل إلى ضريحه الذي تحرسه أسرة عربية، أعطية من الطحين أو القمح .

إن البحارة المحليين مفرطون في التطير، فاهيك من تجيلهم الأولياء، و إخلاصهم لهم، فهم يعتقدون أن قاع البحر مسكون بالجن، و أن منهم الأخيار، و منهم الأشرار، و قد سبق لنا أن تأكدنا من ذلك عند بركة فرحون؛ إنهم ينسبون للجن الأخيار الإبحار الموفق، و يتهمون الأشرار بأنهم يهيجون الأمواج، و يعصفون الرياح، و يجذبون السفن إلى وسط المهالك. لذلك لا يفوت البحارة أبدا أن يخلطوا دوهم بأن يرموا لهم في البحر ما تحتويه و جباتهم؛ بعض حبات من التمر، و قبضة من الطحين، و في بعض الأحيان رغيف خبز كامل لكي يكون للأرواح الشريرة نصيبها أيضا .

لم تكن نرى اليابسة في يومي ۴ و ۵ فبراير (شباط)، و لكنها عادت إلى الظهور، و رأيت عند الظهور الشمس، في الأفق مدورات جبلية رائعة يلوح بعضها بعضا، و هي مقسمة بمهارة عجيبة، و إن أقرب سلسلة تسمى نبط، و أبعدها/ ۱۰۶/ أبو غبر Abou Gharir . و تعلو قمة جبل المهر المخروطية على كل القمم الأخرى. و تمتد تلك الجبال نحو الجنوب، و خلف هذه الجبال تقع المدينة المنورة، و ورادها باتجاه الشمال الشرقي صحراء تجد الشامة التي يفصلها عن بغداد جبل شمر، و يوجد في تلك الصحراء أكثر جياد الجزيرة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۳

العربية قيمة. و بعد أن تجاوزنا من مسافة بعيدة جدا، رأس بريدي Baridi ، توقفنا للمرة الثالثة في عرض البحر، بعيدا عن التيارات البحرية العميقة المحملة بالصخور، يساعدنا في ذلك استمرار الطقس الرائع. و أجد نفسي عاجزا عن وصف ذلك الجمال، الذي يستعصي على الوصف لتلك الأمسيات التي قضيناها في عرض البحر؛ روعة غروب الشمس التي كانت تتكرر في كل يوم، و لكنها كانت تختلف على الدوام. أما في هذا اليوم، فقد كان المشهد أكثر تألقا أيضا من اليوم السابق. لو كان بالإمكان ذلك، كانت ألوان السماء، و البحر أكثر توهجا، و الطبيعة كلها أكثر روعة و أكثر هدوءا. لم يكن في البحر موجة واحدة، و لم يكن في السماء أية سحابة. و كانت قمة جبل رضوى التي كنا نراها من موقعنا الذي رسونا فيه، مضيئة و كأنها منارة ضخمة، و كانت ما تزال تلتمع، مع أن الشمس اختفت خلف البحر. و مع أن نجم سهيل كان يتبعها عن قرب، و يسبح في فلكها المتوهج فإنه كان يلتمع على حافة الأفق لمعانا فريدا، و كانت النجوم الطالعة شاحبة حوله، و لا تبدأ بالاتضاع إلا عند ما يبدو هي نفسها تسبح في المدى الرحيب/ ۱۰۷/

قريبا سيظهر القمر، و سيظل السنا الذي انطفأ منذ قليل ظلام غير كثيف، أو بعبارة أدق، ضوء خفيف تراه في ليلة من الليالي الرائعة في آسيا، التي هي أكثر ألقا من أيام طفلنا السعيدة (يقصد في أوروبا). كان السنيوكت، و هو مسفر في مرساه، يلفه الصمت و الصلاة، و كان الجميع على متن السنيوكت يغطون في نوم عميق، إلا أنا؛ إذ لا يستطيع النوم الآن يستبقي ميزة التمتع بهذه الأمسية الجميلة.

كان ذلك مظهرا من مظاهر التهاون و اللامبالاة لدى الملاحين العرب، الذين لم يكن أي منهم يقوم بنوبة الحراسة! لقد تركوا المركب طوال الليل في حراسة الله. كانت الأمسية الهادئة و الليلة الجميلة تبشان أن البحر سيكون هادئا في اليوم التالي، و قد حصل ذلك بالفعل إذ ان فترة الصباح كلها.

أما البحارة الذين لم يكن لديهم منذ غادرنا السويس ما يفعلونه تقريبا، فقد بدؤوا بالتجديف الذي كان يرافق لشحذة الهمم بغناء رتيب و حزين، لم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۴

أحفظ منه إلا الكلمة الأولى، يا سيدي، لأنها كانت تتردد كثيرا، و على الدوام بالتقيم نفسه. يقوم البحارة، شأنهم شأن العرب كلهم، بكل أعمالهم على وقع الغناء، فهم، سواء كانوا يشرون الأشرعة أم يطوونها، و سواء كانوا يلقون المرساة أم يرفعونها، يغنون معا لزيادة السرعة و للعمل بتوافق، و إن لكل متاوبة نصبها الغنائي الخاص، و لكن ذلك لم يكن ليمنع من تنفيذ المتاوبة بكثير من الاضطراب و البطء. لكن الهدوء لم يستمر على كل الأحوال طويلا؛ إذ هبّ بعد عدة ساعات هواء الشمال، الذي يهب لمدة تسعة أشهر في السنة على البحر الأحمر، و الذي يسهم في سرعة الإبحار، مما جعلنا نصل عند الظهيرة إلى ينبع .

إن ينبع ميناء المدينة المنورة، تبعد عنها مسيرة خمسة أيام إلى الشرق:

و مبانيها واسع، و آمن جدا، لأنه محمي بجزيرة العباسي، و يغشاه الناس كثيرا. إن السفن التي تذهب من السويس إلى جدة و من جدة، إلى السويس تلقي مراسيها كلها فيه، و هناك رحلات تكاد تكون يومية مع القصير؛ و هي مدينة بحرية صغيرة تقع في الأراضي المصرية، و تصل البحر الأحمر بالنيل عن طريق قنا .

ينبع مدينة ذات أهمية ضئيلة، سيئة العمار، تكاد تكون مقفرة، و مشبعة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۵

بتلك الرائحة المقززة الخاصة بالمدن العربية، و التي وجدتها نفسها في المغرب و في طرابلس الغرب و في مصر و سوريا، و ينبع محاطة بسور مهدم في كثير من المواضع، يوشك أن يسقط في كل أجزائه، و محصن بأبراج هي في حالة تشبه حالة السور سواء، و يقسم خور الخليج المدينة إلى قسمين غير متساوين، و يشكل أصغر القسمين ما يشبه الربض (الضاحية) تسمى القمد و يسكنها البحارة . و إن سوق ينبع كثير السلع، و يباع فيها التمر ذو النوعية الجيدة؛ و إن تمور المدينة مشتهرة بأنها أفضل تمور العالم. و التمر هو الغذاء المفضل لدى البدو، و هم يطعمونه/ ۱۰۹/ أحصنتهم أيضا. لقد باركه النبي صلّى الله عليه و سلّم، و يتكرر ذكره في آلاف المواضع في كتب الشرق المقدسة أو غيرها، و يؤدي دورا رئيسيا في الروايات الشفوية في الصحراء.

لقد قمت بجولة طويلة عبر شوارعها، و لكنني لم أستفد من ذلك شيئا ذا بال. رأيت عددا من البيوت الحربة التي لا يكلف الناس أنفسهم، كما هي العادة في البلاد الإسلامية، عناء إصلاحها أو إزالة أنقاضها التي تضفي على تلك المدن المهدمة هيئة كئيبة.

كان فوق بعض الأبواب نقوش محفورة في الحائط، و مخصصة لدفع شر العين الشريرة، و هذا معتقد عالمي نجده في الشرق و الغرب معا. و بينما كنت مشغولا بالنظر إلى أحد تلك النقوش الخرافية محاولا تفسيره، أطلت إحدى العجائز برأسها، و بدا أنها تظن أنني لم آت إلى هنا إلا بقصد إصابة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۶

منزلها بالعين؛ لذلك نظرت إلي نظرة مفاهما الحقد و الخوف و الرعب، حتى إنني كنت سأصعق لو كانت النية تكفي لذلك. في الشرق لا تحدق في الأشياء، أيا كان نوعها، بتا أم حيوانا، أم شخصا، أو حتى شجرة، دون أن يصبح من يحدق مشكوكا فيه، و يُتهم بأنه عائن.

كان حمالة القاهرة يترجمون عند ما كنت أتوقف أمام البيوت التي كانت أبوابها أو شرفاتها تلفت نظري، و قد جز علي فضولي الكثير من لعناتهم.

/ ۱۱۰/ أما في ينبع فقد رأيت مشهدا معاكسا لذلك المشهد الصامت مع العجوز، كان هناك فريق من الأولاد، و كانوا عراة، و أكثرهم لا يتجاوز الرابعة من عمره، و كانوا يقيمون حفلة صاخبة لم يقطعها وجودي بينهم. كان أحد الأولاد يقرع بضربات مزدوجة على دربوكة أكبر منه، و كان الآخرون يرقصون و قد تحلقوا وسط الغبار. و لو أتني كنت بارعا في الرسم براعة ديكامp Decamp ، لكان باستطاعتي أن أرسم هنا لوحة تكون نظيرة لوحته المسماة:

لحظة الانصراف من المدرسة العربية La Sortie d'e ?cole arabe .

إن الدربوكة المستخدمة في تلك الحفلات هي عبارة عن صحيفة مجوفة، يغطية الشكل أكثر منها دائرية، مصنوعة من الطين الخشن الذي سدوا فوقه رقعة من الجلد. و إن هذه الآلة البدائية هي المرافق الذي لا يمكن الاستغناء عنه، و وجودها أساسي في كل الحفلات العربية: تسمع صوتها في كل مكان، لقد سبق لي أن سمعتها في أثناء اليوم على متن مركب محلي عائد من القصير، و قد خرج أقارب القادمين الجدد و أصدقاؤهم للاحتفال بعودتهم احتفالا عاصرا يستمر طوال النهار .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۷

لقد اطلبت ينبع بأعداد هائلة من الذباب، يغزو كل شيء، أماكن البيع، و البيوت و المساجد، و يصل إلى المراكب التي ترسو في الميناء، و يكثر في السوق على وجه الخصوص، حتى إن السوق يكتسي باللون الأسود، يهجم على الطعام و الشراب و الأشخاص. إنه كارثة يمكن مقارنتها بكوارث مصر السبع . و يكثر الذباب في البلاد التي تنتج التمر؛ لأن كل ما هو حلو المذاق يجذبه، و لكن/ ۱۱۱/ أشجار النخيل بعيدة عن المدينة، و لا يمكن القول:

إنها سبب مثل هذا الغزو؛ و ينبغي البحث عن سبب آخر؛ و إن سألت السكان الأصليين فإنهم يجيبونك جادين، و هم يعتقدون ذلك، أن ملك الذباب و ملكه يسكنان في ينبع، و أن الذباب يأتي من كل أنحاء العالم ليؤدي لهما فروض

.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۸

الطاعة . ليس في المدينة إلا بئر واحدة، ماؤها أجاج، و الناس مجبرون للحصول على مياه الشرب على حفظ ماء المطر و سيول الشتاء في خزانات تم بنائها لهذه الغاية، و عند ما ينقصهم الماء، فإن عليهم الذهاب بعيدا جدا للبحث عنه في آبار عسيية مما يجعل ثمنه مرتفعا جدا، و ليس في داخل المدينة إلا شجرة أو شجرتان من النخيل متفردتان أمام المسجد، و ليس هناك أكثر من ذلك خارجها. و قد خرجت من باب المدينة المنورة للقيام بجولة في الريف فلم أر شجرة واحدة، و لم أكتشف إلا الصحراء العقيمة التي تمتد قاحلة و عارية من البحر إلى الجبال. و لا تجد بعض المزروعات و المساحات الخضراء إلا على بعد ست أو سبع ساعات من المسير، و ذلك في ينبع النخل؛ و هي تقع في واد كبير مزروع بنخيل التمر و القمح، و يملكك فيها السكان الأغنياء حدائق و منازل ريفية، يذهبون إليها على الحمير لأنه ليس فيها إلا عدة قليل من الخيول، و يقضون فيها شهرا في السنة إبان موسم التمر. إن في ذلك الوادي الواقع في أسفل الجبال عددا/ ۱۱۲/ من القرى يقارب اثنى عشرة قرية، بيوتها مبنية من الحجارة، و هي، إن صح التعبير، أحسن بناء من بيوت المدينة نفسها، و لكن ليس بدرجة كبيرة، و يسكن في إحدى تلك القرى كبير مشايخ قبيلة جهينة الكبيرة، التي ينتمي إليها سكان

ينبع . لقد ظلت قبلة جهتها

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۲۹

متمسكا بالبداوة مع أنها كانت تسكن المدينة، لقد حافظت على زي جبرانها في الصحراء، مع أنها أصبحت مستقرة، و يتكون زي الصحراء: من ثوب من الكتان، أو الحرير، حسب الحالة المادية لصاحبه، مشدود إلى الخصر بحزام من الجلد، و فوق الثوب عباءة بيضاء، فضفاضة على الجسد، قصيرة الأكمام.

و أما الرأس فهو مغطى بكلتية، و هي منديل من القطن المصنوع بالون الأحمر، أطرافه موشاة بالحرير الأصفر، و تسقط أطرافها الممزدانة بالأهداب على الكتفين، و يمسكها على الرأس حبل من صوف الإبل يسمى: عقال، و هو مفوف عدة لفات حول الرأس.

و يحمل الرجال أسلحة مخفية، و في أيديهم عوضا عن الخيزران هراوة تكفي ضربة واحدة منها لأن تصرع ثورا . و ما دمنا في صدد الحديث عن اللباس، فإنني أقول: إنني في هذا اليوم، و للمرة الأولى استبدلت بالقبعة الأوروبية التي يمقتها المسلمون طربوشا تجويفه أحمر اللون، و طرفه أزرق، و لم أخلعه إلا عند ما عدت إلى القاهرة، و قد وضعت مع الطربوش كفية كانت/ ۱۱۳/ ذات فائدة جلى إبان رحلتي إلى السودان، و حصلت بعد ذلك على عباءة لم تكن فائدتها بأقل من فائدة الكفية.

إن سكان ينبع بدو في ملابسهم، و هم بدو في عاداتهم الخاصة أيضا.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۰

باستثناء أنهم يعملون مختارين بالتجارة و الملاحة، و هم يذهبون يوميا لهذا الغرض إلى القصير و السويس. إنهم مهربون بارعون، و بطريقة عليلة غالبا، و هم في نزاع دائم مع رجال الجمارك الأتراك. لقد انتشر صيتهم في الحجاز كله بحسن الأخلاق، مما يميزهم من سكان المدن المقدسة، التي انحدرت فيها القيم الأخلاقية و خصوصا في مكة المكرمة. إنهم يحتقرون أي عمل يدوي، و أي وظيفة خدمية، و لا يرضى أحد منهم أن يكون خادما، و لكنهم في مقابل ذلك اشتهروا بخشونة طباعهم، و أنهم يسلكون في بعض الأحيان سلوكا فظا. إن كل ما أستطيع قوله عبر تجربتي: إنني وجدت حظهم من المدنية قليل، و لكني لم أتعرض لأي إهانة منهم. و إذا حكمنا عليهم من خلال عاداتهم فيمكن القول: إنهم كثيرو التطير: فقد كانوا عند ما بلغ انتشار الطاعون دورته في ينبع، يطوفون أحياء المدينة، و هم يقودون جملا، لكي يحملون الوباء، كله و يركزونه عليه، ثم يذبحونه في مكان مخصص، و هم يتخيلون أنهم بفتله إنما يقتلون في الوقت نفسه انتشار الوباء. /۱۱۴/ و بعد أن جئت المدينة في كل الاتجاهات، و لما كنت لا أود الإبحار ثانية إلا عند غروب الشمس فإنني بانتظار حلول موعد الإبحار استقر بي المطاف على باب أحد المقاهي الواقعة في أكثر شوارع المدينة سكانا، و بالقرب من المسجد، و قد سنحت لي بذلك الفرصة لأرى أمام عيني، خلال عدة ساعات، مرور كل السكان الذكور؛ و لم أر أية امرأة.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۱

في البدء، ها هم المؤمنون يذهبون إلى صلاة العصر في المسجد المجاور، ثم يأتي بعد ذلك القواصون الذين طالما ألحوا علي، و بأدب جم، لأزور أماكن غوصهم. و كان يمر أمامي أيضا جيئة و ذهابا، و بأناقة، عدد من الباشي بوزوق الأرناؤط و الأكراد الذين يشكلون حامية تحتفظ بها الدولة العثمانية هنا، و الذي كانوا يصطنعون هيئة الشجاعة للتأثير في، و هم مسلحون بقدراتهم الطويلة، متلفعون ببرانسهم البيضاء.

ثم جاء دور الحاكم ليمرّ بعدهم، و هو لم يأت إلا بدافع الفضول، و لكي يلتمس زيارتي، و لكنه لما كان مجرد أفندي، فإنه لم يكن له ما يؤهله لكي آمرّ عليه بهذا التمييز؛ و لما كنت أوروبيا و فرنسيا و مسافرا مميزا، و طبقا للعرف، و كما ينبغي أن يكون أي شخص يسافر لمتعته و لتثقيف نفسه، فإنه لم يكن على أن أخصه بأي مجاملة.

و ربما أدهش بعض الناس رؤيتي أتحدث غير مرة عن موضوع آداب المشرق، و أتخذ منه موقفا متصلبا/ ۱۱۵/ و لكن ذلك ضروري في الشرق، حيث لكل شيء قواعده، و حيث تطبق الرسميات بصرامة شديدة؛ و إن احترام

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۲

الأوروبيين مرتبط بمدى التزامهم بهذه الأمور البسيطة، إن أي مخالفة للعادات المتمكنة، تنقلب حتما ضد المخالف، و إن أي تساهل أو أي مبادرة مهما كانت بسيطة تعد خضوعا و ليس تسامحا، و تعد اعترافا شخصيا بالدونية، و بتفوق الآخر. و لما وجد الشرقيون، و الأتراك خصوصا، أنهم مضطرون للتنازل للأوروبيين عن كل الأشياء المهمة، فإنهم استعادوا تميزهم بدكاء، ملفت في مسائل حق التصدر، و في العلاقات اليومية، ينبغي في معاملتهم الانطلاق على الدوام من مبدأ أن كل ما يخصهم مهم، و أنه لا شيء، مما يخص الآخرين مهم في نظرهم.

إن ديوان الحاكم الذي لم أذهب إليه، يقع في منزل ذي مظهر جميل، إنه أجمل بيت في المدينة، أقيم قرب البحر في مكان متميز، و بينما كنت أمر أمامه لأعود إلى الميناء، عرتني الدهشة، عند ما رأيت على مقربة منه تحت سقيفة، ستة مدافع متروكة هناك منذ ما يقارب ثلاثين سنة، تركها محمد علي أو ابنه إبراهيم باشا بعد حرب الوهابيين، و هي في حالة جيدة، و لم يكن وجودها نشازا في أي رحبة مدفعية أوروبية./ ۱۱۶/ و في اليوم التالي نشر السنيوكت قلوعه عند ما نادى المؤذن الذي كان من أهالي المنارة يدعو المؤمنين لأداء أولى الصلوات الخمس في اليوم، و تقابل صلاة السحر عند الكاثوليك، و تسمّى أذان الفجر. و عند ما طلعت الشمس كنا قد قطعنا عددا من الأميال.

لقد كانت أيام ۷ و ۸ و ۹ فبراير (شباط) تشبه أيام ۳ و ۴ و: هواء مؤات، بحر هادئ، إبحار سريع، الحالة التأملية نفسها، غروب متألق، و توقفات ليلية في عرض البحر. و لما لم يعد على فريق البحارة أن يجدفوا، فإنهم عادوا إلى سيرتهم الأولى في التكاسل، يقضون النهار بالتدخين و التوم، إنها حياة الكسالى المثلى، و لا يعني ذلك أن هذه الأيام، غير خطرة، حتى في أكثر الأجواء مناسبة، و ذلك بسبب الأرصفة الصخرية، و العثرات الموجودة تحت سطح الماء التي لا تزال المنطقة تعج بها.

و لكن الممارسة الطويلة للقباطنة، جعلتهم يتغلبون على هذه الصعوبات بسهولة، و قد كنت معجبا بمهارة قبطانا، و هو يتجاوز كل تلك العقبات، غير

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۳

عابئ، بوجودها. إن هؤلاء الرجال الذين يغرقون في القرع خلال المد، تجدهم هنا و قد ملؤوا حزما يكاد يصل حد النهوء إنها أمكنتهم المفضلة، و إن العادة (الروتين) توجههم توجيها أدق من أي خارطة.

لقد أصيب الريس عشية وصولنا إلى ينبع بحمى مقلعة لم يستطع التخلص منها، و ظلت تفض مضجعه حتى جدة./ ۱۱۷/ كان عند ما تحل به نوبة الحمى يظل مستلقيا على سجادته مرتعشا، مرسلا تأوهات محزنة، و عند ما كانت تنصبّ النوبة، كان يتناول من جديد شيشته و أعماله. و كان هذا التوالي يحدث عدة مرات في اليوم. لقد حاول رفيق رحلتي، الذي كان يحمل معه صيدلية تجانسية Homopatique أن يجرب عليه موهبته الطبية البسيطة، و لكنه لم ينجح في التخفيف عنه، و ظلت الحمى تفعل فعلها.

كان اسم الريس خليل سلاح، و كان رجلا محبوبا جدا، مفضالا، و مؤدبا، كما ليت لنا خلال الفترة الماضية، و كان على الدوام يسعى لإرضائنا، كان كوسا المتبصر قد وضع في العقد شرطا ينص على أن الرحلة ينبغي، مهما كانت الظروف، أن تكون متعة لك، و أن على القبطان أن يجعلها كذلك لنا. و لم أر أبدا أن أحدا استطاع الوفاء بالتزامه كما حصل هنا، لقد تم تنفيذ العهد بدقة من جميع جوانبه، و هذا شيء نادر الحدوث في أوروبا. لم يكن لدى أدنى ملاحظة يمكن توجيهها، و أقل من ذلك أيضا المآخذ التي يمكن أن آخذها على خليل سلاح إبان كل الفترة التي قضيتها على متن السفينة. و أشكك أن يكون هناك في أي ميناء غربي كثير من القباطنة يتمتعون بمثل هذه الدقة و لين الجانب. لم يكن يرتدي في البحر، شأنه شأن بقية البحارة، إلا قميصا من القطن، و لكنه عند النزول إلى اليابسة، كان يلبس ثيابا جميلة من الحرير، و كان له جيئة حقيقية هيئة الوجهاء./ ۱۱۸/ كان الساحل لا يزال محاطا بجبال عالية، و كان أكثرها ظهورا لنا صبح.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۴

و الشاع ، و جبل بني أيوب، و كلما تقدمنا نحو الجنوب تكاد الجبال جميعا تأخذ شكلا هرميا، و أكثر تلك المخروطيات العالية ظهورا هو مخروط كلية، و إذا تقدمنا أكثر نحو الجنوب، فإن الجبال تنخفض انخفاضا قليلا، و كلما اقتربنا من جدة يصبح الساحل سهلا. تنتشر بين تلك الجبال الواقعة بين مكة المكرمة و المدينة المنورة أشجار البلسم المكي الذي يتمتع بسمعة طيبة في الشرق، بل في الغرب أيضا، و يجني من تلك الجبال عسل ذو مذاق لذيذ، لونه أبيض يراق. و هنا أيضا تتكاثر أشجار الأراك التي يتخذ منها العرب مساويك لأسنانهم. و تسكن في المناطق العالية نسور جريئة، حتى إنها تهوي على القوافل، و تخطف ما في صحون طعام الحجاج. و قد أكد ذلك بوركهارت، و كان هو نفسه أحد ضحايا هذا الاختطاف الفظ . أما المناطق المنخفضة فيسكنها أعراب زيديون من قبيلة حرب الكبيرة، و ينظر إليهم الأعراب الآخرون نظرة ازدراء، لأنهم حضريون و يعملون في الصيد. لقد قابلنا في عرض البحر واحدا من أولئك الصيادين المهرة، كان رجلا رائعا، مشوق القوام، عاريا تماما حتى لتحسبه إله الموج مصنوعا من البرونز/ ۱۱۹/ القفوزنسي. كان منتصبا بإباء على مركبه، و جاء يعرض علينا السمك الذي

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۵

اصطاده، و لكننا لم نستطع الشراء منه، لأنه كان يرفض نقودنا، و يطلب ثمنا ليضاعف فمحا أو تبغا؛ و لم يكن لدينا في ظهر السفينة لا هذا و لا ذاك.

هناك عدد من المدن و القرى على ذلك الساحل، من بينها الجار التي لم نستطع تبين ملامحها عند مرورنا، إلا بمساعدة المنظار. و في منطقة أعلى، و إلى الداخل قليلا هناك مستودة، و هي إحدى محطات قافلة الحج المصرية، و إلى أقصى الجنوب هناك رابغ التي يلفظها بحارةRabr و التي قضينا ليلة ۸ في موازاتها، و لكن في عرض البحر بعيدا عنها، أما الليلة السابقة فقد قضيناها على خط الاستواء و قد واجهنا في يوم ۹ كثيرا من الصخور المفتتة و الشعاب المرجانية، و لكل واحد منها اسم خاص: و أخطرها يسمّى: إن لم يخني سمعي، أم الحبلين . و كانت جزيرة خواط Ghaouat غير بعيدة عنا. ثم يأتي بعد ذلك رأس حطيبة. و بعد وقت قليل من تجاوزنا ذلك الرأس، قابلنا سنيوكا على متنه جماعة من الدراويش العائدين من مكة المكرمة، و كانوا يرفعون علما أخضر، و هذا هو اللون المحبب لدى المسلمين، و الذي كان لون شعار محاكم التفتيش في إسبانيا. و على الرغم من خصوصيته الدينية، و على الرغم من كوننا من غير المسلمين، فإنهم حيونا بصوت عال عند ما مررنا بقربنا، و كانت صيحاتهم تختلط بالموسيقى و الأغاني التي كان يتردد صداها على سطح الماء/ ۱۲۰/ و استمر يتردد طوال الوقت الذي كنا فيه نسمعهم.

لم نلق بكثير من المسافرين خلال الرحلة، و مع أننا أبحرنا في بعض الأحيان مع سفن أخرى تضعني في الوجهة نفسها، فإن سنيوكا كان سريعا كل السرعة مما جعلنا نسبقهم دائما. كان هذا اليوم الأخير رائعا: أبحرنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، و قطعنا ما يقارب ۷۰ ميلا حتى الساعة الثامنة مساء، و هي الساعة التي دخلنا فيها ميناء جدة. لم يحدث من قبل أن تم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۶

العبور بهذه السرعة؛ لأننا إذا استثنينا فترات التوقف الإرادية، و رحلة سيناء، فإن الرحلة من السويس إلى جدة لم تستغرق إلا أحد عشر يوما، مثنا يعني أننا كنا نجر بسرعة ممتازة، خصوصا إذا أخذنا في الحسبان أننا كنا نتوقف الليل كله. لا أود مغادرة البحر الأحمر، دون الإشارة إلى أنه غني جدا بالأصداف التي تحتوي على أجمل كريمة، و أنا تجد فيه، و خصوصا في مياه جدة، كثيرا من السمك الطيار الذي يسميه العرب: جراد البحر.

خالف الريس أنظمة الشرطة المحلية، عند ما دخل ميناء جدة في الليل، و هو لم يلجأ إلى هذه المخالفة إلا لكي تنزل إلى اليابسة ميكرين. و قد عوقب على ذلك بالسجن، و ربما كان سيظل هناك عددا من الأيام، لو لا أنني تدخلت لدى السلطات لإطلاق سراحه بعد توقيفه بضع ساعات، و قد كنت أشعر/ ۱۲۱/ بالسعادة، لأنني استطعت بهذه الخدمة البسيطة أن أرد إليه بعض سالف خدماته خلال الرحلة. و قد وزعنا بخشيش مجزيا على أفراد الطاقم كلهم، و على الريس أيضا، مسددين بذلك ما لهم من دين في ذمتنا. قضينا تلك الليلة على متن السفينة أيضا، و كان علينا في اليوم التالي أن ننتظر ساعة المد و الجزر المناسبة لكي نغادر السنيوكت. إن ميناء جدة مملوء بالأرصفة الرملية، و مياهه ضحلة حتى إنه ينبغي على السفن أن ترسو على بعد ۲ إلى ۳ أميال عن الشاطئ، و قد كانت هناك في قنوات الملاحة سفينة ذات ثلاث صوار جانحة، تقبع هناك شاهدا يثير القلق، و يدل على الأخطار التي يتعرض لها من يخاطرون بدخول الميناء. جاء مركب مسطح ليحملنا من السنيوكت إلى اليابسة، و كان هذا المركب نفسه مجبرا على القيام بالثقافات كثيرة حتى لا يغوص في الرمال، و مع ذلك فإنه اصطدم غير مرة بقاع البحر . و لكننا، على الرغم من ذلك، وصلنا أصحاء، سالمين، و لكن في الساعة التاسعة، إلى رصيف الجمارك الواقع غير بعيد عن حصن، هو في حالة سيئة، و لكنه يثير الإعجاب، و يحتل موقعا متقدما في البحر.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۷

الفصل السادس جدّة

أخبروني في القاهرة أن جدة ليست إلا حيا صغيرا، و قد تكرر ذلك على مسامعي حتى إنني/ ۱۲۲/ لم أكن أنتظر رؤيتها على ما هي عليه. كم كانت دهشتي كبيرة عند ما وجدتها على العكس مدينة جميلة، مكينة البناء، جيدة التأسيس، تعج بالسكان، نابضة بالحياة، و مزدحمة، و جديرة على أكمل المستويات أن تحمل الاسم الذي تعرف به، ميناء مكة المكرمة، و ليست بأقل جدارة لحمل اسمها الذي يعني بالعربية الغنية . تاهيك عن مياه ميناتها الفسحة و أرصفتها الرملية فهي محمية من ناحية البحر بحصن و بسرية مدفعية بينها مدفع ضخم من عيار خمسمائة مليمتر يزرع الرعب في قلوب البدو.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۳۸

و المدينة محاطة من الجهة الأخرى بسور سميك، مرتفع بما يكفي، مصان صيانة جيدة، مسيوق بخفرة عميقة، و عليه أبراج في حالة جيدة. إن هذا المعقل لا يصمد ساعة أمام قصف المدفعية الأوروبية، و لكنه على الدوام كان كافيا إبان الحروب التي تدور في البلد، و خصوصا إبان حرب الوهابيين، لحماية المدينة و لفرض هيبتها لذلك اشتهرت بأنها مدينة منتصبة على الاحتلال، و بأنها أكثر الأمكنة تحصينا في الحجاز. يوجد في هذا السور ثلاثة أبواب، باب اليمن من الجنوب، و باب المدينة المنورة في الشمال، و أخيرا باب مكة المكرمة في الشرق، و هو أجملها، و يقوم على حراسته برجان منخفضان منحوتان ببهارة فائقة في الذروة. تبعد جدة عن مكة

المكرمة مدة ١٥ أو ١٦ ساعة، و يبلغ عدد سكانها من ١٥ إلى ٢٠ ألف نسمة. و تنقسم إلى قسمين كبيرين، حي اليمن، و حي الشام، و هما مسميان بذلك بسبب وضعهما الجغرافي: فحي الشام يقع في الشمال على الطريق إلى سورية؛ و حي اليمن في الجنوب/ ١٣٣/ على الطريق إلى اليمن أحد أقاليم الجزيرة العربية الذي يحمل اسمه الحي المذكور. هناك أقسام أخرى صغيرة تسكنها جماعات من السكان متمايزة، يقع بينها غالبا من حي إلى آخر شجارات عنيفة، شوارعها عريضة، نظيفة نظافة مقبولة، تبدأ عادة بساحات واسعة جيدة التهوية تشكل رئتي المدينة. أما بيوتها فهي متينة البنيان، و تتألف من عدة طوابق، و أبوابها على شكل أقواس، و هي مبنية من الحجر، و لها مظهر جميل، و نوافذ واسعة تطل على الخارج، و هذا شيء نادر في البلاد الإسلامية لأن الحياة المنزلية تتم على الدوام داخل البيت الذي يبنى بطريقة لا تدع شيئا يتسلل إلى الداخل إلا ضوء النهار، و لا الهواء، و لا الضوضاء، و لا الأنظار الفضولية. ليس لتلك النوافذ زجاج، بل إن كل فتحاتها مغطاة بشبك من الخشب المقرض بمهارة عجيبة، يسمح بالرؤية من الداخل دون أن يتمكن من في الخارج من رؤية من في الداخل. إن تلك النوافذ المتقنة الصنع، البارزة و المقوسة، كأنها مشربيات القاهرة أو شرفاتها، مطلية بألوان زاهية تتباين مع اللون الأبيض للجدران. و إن كثيرا من السطوح محاطة بحواجز مفرغة محفور فيها بأناقة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٣٩

زخارف تمثل نقيات . و بعضها بنا في ذلك المنزل الذي كان يسكنه في حياته آخر أشراف مكة المستقلين، أقيم عليها مظلات خشبية منجورة كالنوافذ، تصعد إليها النساء لاستنشاق الهواء الطلق فيها دون أن يراهن أحد.

و يقضي أهل جدة وقتا طويلا على السطوح لأن/ ١٢٤/ نسيم البحر يخفف من وطأة الحر الذي لا يكاد يحتمل في الصيف. يمتد السوق على طول المدينة، و يسير موازيا للبحر، و يتصل به بوساطة شارعين جانبيين. يضم سوق جدة كل أنواع البضائع، أكثرها أجنبي، و كذلك مواد غذائية محلية أو مستوردة؛ و نجد أن دمشق و بغداد و فارس و مصر و الهند خصوصا موجودة في هذا السوق عبر منتجاتها الطبيعية أو المصنعة. و تسود فيه في كل الأوقات حركة غير عادية، و ليس بالسهل أن يشق المرء طريقه بين أكداس البضائع، و الجمال و الحنطاليين، ناهيك عن الكلاب الضالة، و المسالمة التي تبحث عن رزقها في هذه الفوضاء. أما العمال الذين يقومون بالأعمال الشاقة في السوق و الميناء فهم يكادون جميعا يكونون من النوبيين أو من سكان الجبال، و يسمون الحضارمة إنهم عموما رجال في غاية الوسامة، مفتولو العضلات، ذوو بأس، و يكادون يكونون عراة، و لون بشرتهم الناعمة و اللامعة أسمر شديد الدكنة. و نرى أيضا بعض السود الأقحاح القادمين من البلاد القريبة من خط الاستواء، و لكنهم عبيد، في حين أن الآخرين أحرار، و يحصلون على أجور عالية لقاء خدماتهم.

و إن هذا السوق الذي يقع في الوسط بين إفريقيا و آسيا، مهم لتنوع نماذج البشر الذين تلقاهم فيه! أتت تلقى فيه السود الذين لم يؤتوا من الجمال شيئا، و تلقى فيه النماذج الجميلة/ ١٢٥/ من الأجناس القوقازية المتميزة، و ليس تنوع اللغات و العادات بأقل إثارة: عرب المدن و الصحراء، تجار مسقط و البصرة، أتراك، سوريون، يونانيون، مصريون، برب، و هنود بأعداد كبيرة، و مالزيون و باتانيون ، و كل من أولئك يلبس زيه الوطني، و كلّ يتكلم بلهجته

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٠

الخاصة، يتسابقون، يتقابلون، يتدافعون بأكتافهم، أو إنهم يستقرون في المقاهي لمعالجة قضاياهم. إن بعض سكان جدة يقطعون أحجارا يزعمون أنها ثمينة، مع أنها ذات قيمة ضيئلة، منها من بين أخريات تلك التي يسمونها: حجر مكة، و تسمى في الحجاز «العقيق» و التي ليست، كما أعتقد، إلّا ما يسمى العقيق الأحمر، و يصنعون منها خواتم مطلية بطبقة من الفضة، ليست متقنة الصنع، و يصنعون منها أيضا سبحات تلقى رواجا كبيرا لدى الحجاج. و يصنعون أيضا سبحات من «البسر» المتواتر بكثرة في البحر الأحمر، و الذي تستخرج أجود أنواعه قساوة و لمعانا من جنوب جدة.

تشتهر جدة بأنها مدينة مقدسة شأنها شأن مكة المكرمة و المدينة المنورة ، و كل الذكور المولودين في أحضان جدة، يحملون على وجوههم وشما يسمى «المشالي» ؛ و هي عبارة عن جروح عميقة تحدث في وجوه الأطفال عند ما يبلغون أربعين يوما، و هي ثلاثة على كل وجنة، و اثنان على كل صدغ، لتظل هذه المشالي مدى الحياة موجودة على وجوههم، و لتكون لهم علامة توقير/ ١٢٥/ لدى المؤمنين. إن هذه الندب المقدسة في العادات الإسلامية تجعل أولئك الذين يحملونها يحوزون بحملها قمة الشرف .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤١

أي زمن لم يكن فيه وجود غير المسلمين في جدة مسموحا، كما هو

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٢

الحال عليه اليوم في المدينتين المقدستين، لم يكونوا يجرؤون على الظهور بملابسهم الأوروبية، و إن ماتوا فيها فإن رفاقهم كان يحمل إلى جزيرة صغيرة في مرسى جدة لكي لا يدنس الأراضي المقدسة .

لقد تغيرت الأمور اليوم: فالمسيحيون يتمتعون اليوم في جدة بكامل حريتهم، و بأمن يوازي ما يجدونه في مصر و إستانبول. لقد تجولت في أنحاء المدينة كلها، في كل أوقات النهار و الليل، و حدي في غالب الأحيان، و لم يتعرض لي أحد بشتم قط، و وجدت من الناس كلهم لطفا و فضلا . و لم يزعجني إلّا المتسولون الذين ينتشرون في كل أنحاء المدينة، و يكادون جميعا يكونون من الهنود، قدموا من أوطانهم للحج، و تقطعت بهم سبل العودة لنقص في المال، و لما لم يكن لهم أي موارد، فإنهم تلقوا هنا حالة على الناس.

هناك كثير من الحجاج المصريين و النوبيين، و خصوصا من سود السودان، و هم كالهنود في الفقر، و لكنهم يعملون بشجاعة لكسب المبالغ البسيطة الضرورية لعودتهم إلى مسقط رأسهم، أما الهنود الذين هم أكثر بلادة و كسلا فهم يحبون/ ١٢٧/ العيش على الهبات، و يفضلون التسكع الأبدي على

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٣

العمل، مهما كان بسيطا. إلا أن بعضهم، و هم قلة قليلة، يمتهنون مهنا حضرية مختلفة: فقد استخدمت خلال إقامتي خياط كشميريا ذا مهارة و صبر نادرين. لقد أحسنت الحكومة البريطانية بالتأثر لهذه الهجرات السنوية، و لكن سياستها لم تكن تسمح لها بمضايقة مواطنيها المسلمين في ممارسة عبادتهم، و اكتفت باعتبار القباطة التجار مسؤولين عن إعادة الحجاج الذين يحملونهم إلى جدة، و نتج عن ذلك أن هؤلاء لم يعودوا يقبلون على أي سفينة إن لم يبرهنوا على أنهم قادرون على تأمين نفقات ذهابهم و عودتهم.

إن العمل الوحيد الذي يقوم به سكان جدة، على الرغم من أنهم قوم مكرمون، هو التجارة، التي توفر المال نقدا، و التي يقتنون منها على العموم.

إن أغلب سكان جدة من أصول أجنبية، و هم نشيطون، و خبراء، و إن حيويتهم البدنية، و توقد أذهانهم يتعارض مع الخمول الواضح و الغبي لدى كثرة من الشرقيين، و خصوصا الأتراك. إن لون بشرتهم أسمر شديد الدكنة، يفرطون في اقتناء أدوات الزينة، شأنهم شأن أهل مكة، و يمكن قول الكثير عن ذلك.

إن ملابس أهل المدينتين متشابهة تماما، سواء ملابس النساء أم الرجال:

فملابس هؤلاء الرجال الداخلية مصنوعة من الحرير المضلع، ذي الألوان الجذابة، و هي مشدودة على الخصر/ ١٢٨/ بحزام كشميري، و يلبسون فوقها عند الخروج ثوبا طويلا مفتوحا من الصوف الناعم، يسمى البنش أو اللجة حسب الفصل، و هي مصنوعة عادة في بغداد.

أما رؤوسهم فيغطونها بطاقية بيضاء مزركشة، يلتف حولها عمامة من الموسلين. و العامة لا يلبسون إلا ثوبا طويلا من الكتان الخشن.

أما النساء فإنني لا أستطيع أن أقول جهن شيئا، لأنني لم أر أيا منهن:

و كل ما أعرفه أن بشرتهن أقل سمرة من بشرات الرجال، و أنهن يقصصن شعورهن كالرجال باختلاف بسيط هو أنهن يزين شعورهن بسلسال من الذهب . و إن أولئك اللواتي تقابلهن من عامة الشعب في الشارع منقبات،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٤

و يختفين تماما في ثوب فسيح من القطن الأزرق. أما الأخريات فيرتدين سراويل زرقاء، فضفاضة، مزركشة بالفضة، و يلبسن أثوابا مزركشة، مصنوعة من حرير الهند. عند ما يخرجن، و هذا نادر الحدوث، فإنهن يغطين وجوههن بخمار أبيض أو أزرق فاتح يسمى habra، و هو ملاءات بالمجوهرات، شأنهن شأن كل النساء في الشرق و الغرب، و هن يلبسن خواتم كثيرة، و عقودا و أساور، كلها من الذهب، و يضعن في أقدامهن خلاخيل من فضة. تلك هي الثياب التي يلبسنها في الخفاء. أما في بيوتهن فقد أخبرت أنهن يخففن من الثياب/ ١٢٩/ حتى يمكنّ القول دون أن تجنى عليهن: إنهن شبه عاريات، و خصوصا الجواري.

و ليس بالنادر أن نلمح في الأجياد التي تقل فيها الحركة غير نوافذ لم يحكم إغلاقها، سهوا أو عمدا، النصف الأعلى للمرأة مكشوفا تماما.

لم أتحدث حتى هنا إلّا عن فضائل جدة، و إليكم الآن سيئاتها: فالماء العذب نادر فيها، و هواؤها سيء، في فصل الصيف؛ حار و رطب في الوقت نفسه، ترتخي له الأعصاب، و يرهن الجسد، و خصوصا هواء الجنوب؛ و إن كثيرا من الأجانب، و السكان الأصليين لا يستطيعون احتماله. فالزحار، و الحمى المتقطعة، و العقيبة تكاد تكون مستوطنة على هذا الشاطئ، الذي تنشر فيه الأوبئة أكثر من أي شاطئ آخر في الجزيرة العربية.

لقد عانيت أنا نفسي خلال بعض الأيام من هذا الحر المؤذي، و استطعت من خلال ما عانيته خلال هذه الفترة البسيطة أن أحكم على ما يكون عليه الحال في أيام القيظ. و على الرغم من أنني ما زال في منتصف شهر فبراير

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٥

(شباط)، فإن ميزان الحرارة كان يصل إلى ٣٣ درجة على ميزان رومير ؛ لقد كان هواء الجنوب العنيف يلفظ النار بدل أن يأتي بالنسيم، كان الحر خانقا، و كنت أشعر أنه يسحقني تحت وطأته، و كنت أجد صعوبة في السير، و كان جسدي كله مشبعا برطوبة غير محتملة. و أزيد على ذلك بالقول إن الذباب و البعوض كان مزعجا كل الإزعاج.

و يسكن جدة أيضا سكان آخرون ذوو أجنحة؛ و هم نوع من الوادنق (الباز)، نجده في كل المدن العربية، و أنا منذ رحلتي، ما إن أسمع أصواتها الحادة/ ١٣٠/ حتى ترتسم في اللحظة نفسها في مخيلتي منارات، و نخيل و عمائم.

و إذا خرجنا من جدة عبر باب مكة المكرمة فإننا نجد أنفسنا مباشرة في ممسكر إفريقي حقيقي: إن أكواخ القش أو النخيل المنتشرة على حدود الصحراء، و التي تبدأ كما هو الحال في بيتع و الطور و السويس على أبواب المدينة، تلك الأكواخ، هي مساكن النوبيين الذين يعملون في الميناء، و السوق، و تسكنها أيضا بعض الأسر الفقيرة من جدة، و التي لا تستطيع لفقرها السكن في مكان آخر.

إن النساء الحرائر من الطبقات الفقيرة يسكنّ أيضا هذا المصيف القذر؛ ناهيك عما يقوم بهذا الحي من صناعات بسيطة، فإنه يعقد فيه سوق للخشب و الخضار، و سوق للمواشي. و إن للعجول في هذا البلد حدبا، و هي صغيرة الحجم و عالية جدا؛ إذ يباع الواحد بستة تلرات؛ و هو لا يساوي في مصنع إلا تلرا واحدا. و ليس بعيد، و بالقرب من باب المدينة المنورة، هناك ثكنة عسكرية أقامها محمد علي أيام حربه مع الوهابيين، و قائد هذه الثكنة إسماعيل بيك، و هو بنباشي تركي، و هو أكثر أدبا من نظيره في سيناء، و قد كان يبدي

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٦

لي آيات الاحترام، دون أن ينسى تقديم القهوة و الشيشة. و غير بعيد عن الثكنة، هناك عدد من الطواحين الهوائية التي بناها محمد علي لاستخدام قواته، ثم أهملت مباشرة بعد رحيله باعتبار أنها بدعة أوروبية، و هي تستخدم اليوم مقرا للجنود غير النظاميين. و يوجد على مرمى حجر من الثكنة/ ١٣١/ مقبرة محاطة بالأسوار، و لها باب محكم الإغلاق، و هي فريدة من نوعها لم أر في الشرق مثلها، حيث تترك المقابر بلا سياج و لا حارس.

إذا، توقعوا من المدفون في هذه المقبرة؟ إنها حواء، أم الجنس البشري. و ينتشر بخصوصها لدى علماء البلد أسطورة لا تليق بأوهامنا الأولين.

فهم يحكون أن آدم الذي ملّ من زوجته، مع أنهما كانا سعيدين إذن ما يقارب مائة سنة، اتجه حيا في التغيير إلى بناة؛ لأنه لم يكن لديه خيار آخر، لأنه لم يكن هناك على الأرض نساء أخريات، و عند ما علمت الزوجة المتروكة بهذه الخيانة، أقسمت أن تنتقم؛ فاتجهت بدورها إلى أبنائها، لأنه لم يكن هناك على وجه الأرض رجال غيرهم، و لكن هؤلاء أخبروها بعض القسوة أنها عجوز، و أنهم لا يرغبون فيها.

إن أمنا جميعا التي حكم عليها أن تظل محتشمة، على الرغم منها، لقيت نتائج ما قامت به عند ما انتهت نفسها، فكظمت غيظها، و لكن آدم عاد، بعد خطته، إلى زوجته الشرعية، و بعد المصالحة قاما معا برحلة عبر الجزيرة العربية، فماتت حواء في هذا المكان عينه، و دفنها زوجها، و أجرى لها كل التشريفات التي تفرضها فضائلها الكثيرة. أما آدم الذي أصبح أرملا فقد تابع رحلته، و ذهب ليموت بدوره في جزيرة سيلان/ ١٣٢/ و دفن هناك، و لا تذكر القصة من دفنه، و لا كيف عبر البحر. إن انتهاكات المحارم المزدوج، الذي قام به أحد الطرفين حقا، و الآخر كان يتوبه، فتح بطريقة لا أخلاقية سجل الحياة الأسرية للإنسانية . إن المسلمين، و هم ممن يدافع بحزم عن الأسرة، لا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٧

يرون في القصة شاهدا على حظر تعدد الزوجات، و إنما يرونها دليلا قاطعا على أنه ليس من قوانين الكون أن يكون للمرء امرأة واحدة.

لقد حافظت النساء على مستوى و الدهن، و ظلن جديرات بثرائها على كل المستويات، و لكن قامتهن أصبحت أكثر قصرا؛ لأن طول قبرها ليس أقل من ٣٠ مترا ؛ و يرتفع فوقه مسجد صغير تعلوه قبة بيضاء . و تبدو بالطبع كل المدافن الأخرى كئيبة إزاء هذه؛ بيد أن مدفن عثمان باشا و أسرته يثير

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ١٤٨

الإعجاب. و ليس للقبور أي زينة خارجية إلّا شاهدتان مستقيمتان متصبتان، إحداهما عند الرأس و الأخرى عند القدمين؛ و لكن كثيرا منها تظلله أشجار النخيل، أو أشجار الصبار ، و جنبات حضراء تسع على مكان الموت هذا، هيئة زاهية. و كان هناك غير بعيد عدد من الشباب الهنود يلعبون بالراحية (ضرب من لعبة التنس) بمهارة فائقة و فرح غير عابئين بمن في جوارهم.

يا قفطانا مصنوعا من نسيج حريري صقيل (قفتTaffetas) أنـــــــــــوده ، و هـــــــــــو يشـــــــــــبه الحـــــــــــبرة habra ســـ

إن الموت لا يخيف المسلمين؛ و هم في هذا مسيحيون، أكثر من المسيحيين أنفسهم، إن الطابع المأساوي الذي نسبغه، نحن المسيحيين، على الموت مخالفين/ ۱۳۳/ بذلك عقيدتنا الأصلية، التي ترى في الموت خلاصا، هو باب للعبور إلى الخلود الأبدي.

يذهب أقرباء الميّت و أصدقاؤهم في بعض أيام الأسبوع، و خصوصا الجمعة، الذي هو عند المسلمين بمثابة يوم الأحد لدى المسيحيين، إلى المقابر؛ ليس للبكاء، أو الصلاة عليهم، و إنما للتحدث مع الغائبين و كأنهم موجودون، و لكي يتناولوا حول قبورهم وجبات خفيفة شهية بعيدا عن جو المقابر الكئيب . و إن النساء على الخصوص هن الحريصات على القيام بذلك، لأنه يسمح لهن كل أسبوع باقتناص بعض ساعات الحرية التي يستغلنها أحسن استغلال. إن مقابر إستانبول هي مكان التقاء و مواعيد، و تحرص النساء التركيات من ذوات الغنى و النسب على زيارتها كل يوم جمعة؛ و مع أنهن محجبات، فإنهن يظهرن من أنوثتهن ما يسلب ألباب المارة، و إذا كان مظهر

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۴۹

المقبرة في جدة زاهيا فإن الموضع الذي تقع فيه موحش و قليل الجاذبية: فمن جهة هناك البحر الذي ينتهي في هذا المكان بحيرة شاطئه تنتهي هي نفسها بسبخة ملحية، ثم تأتي بعد ذلك الرمال، التي تمتد حتى تخوم الأفق. و تلوح على البعد سلسلة من الجبال التي يلفها الضباب، و تختفي ملامحها في عتمة المساء. لقد توافرت لي في هذا اليوم أيضا فرصة مراقبة قصر فترة الغسق في/ ۱۳۴/ هذه المنطقة الاستوائية. كانت الشمس قد غابت منذ قليل، و لم يكن قرصها المتوهج قد غاص بعد في عرض البحر، بينما كان الظلام قد بدأ يلف الجهة المقابلة من السماء؛ و كان القيل قد نزل تماما عند ما دخلت جدة عبر باب المدينة المنورة. كان سكنا قريبا من هذا الباب، في المنطقة المرتفعة من الحي الشامي. هناك في جدة عدد من الخانات أو الوكالات لسكن المسافرين، يجدون فيها في الوقت نفسه مستودعا لأمتعتهم أو بضائعهم، و لأنفسهم غرفة خالية من كل شيء، و لكن هذه الأمكنة مخصصة للتجار، و لما لم تكن تجارا، و لا نريد أن نظهر كذلك، فإننا حصلنا على منزل كان فيما مضى يقيم فيه قنصل فرنسا، و هو اليوم متروك لسكن العصافير. كان مالك المنزل يقيم في مكة المكرمة، و كان وكيله المفوض في جدة لا يريد، أو لا يجرؤ على تأجيرة المنزل في غياب صاحبه، و كان يقول إنه سيرسل إليه رسالة للحصول على موافقته، و لكننا كنا على عجلة من أمرنا، و بينما كان يتردد، و يطلب وقتا للتفكير، استقر بنا المقام في المنزل مؤقتا، و دام هذا المقام المؤقت حتى مغادرتنا جدة؛ أي شهرا كاملا؛ و لما كنا لم نحدد أي مبلغ فإننا دفعنا عند مغادرتنا ۵ تالرات، و هو مبلغ مناسب للأجرة إن لم يكن كبيرا، بسبب الحالة التي كان المكان عليها. إذ لم يكن في الحقيقة/ ۱۳۵/ من السهل إزالة الأشغاث التي كانت تملأ المكان. و قد استطعنا في نهاية الأمر أن نجعل غرفتين من المنزل مناسبتين للسكن، و كانت أمتعة الرحلة من سجاد و وسائد، و فرش كافية تماما لفرشها. و استولى طباخنا غاسبارو على المطبخ الذي كان يقع على السطح؛ أما بقية الخدم فإنهم أقاموا حيث استطاعوا، و كما استطاعوا، و ها نحن في مسكننا نعيش كبر جوازيين حضريين.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۵۰

كانت غرفتي في الطابق الثاني، نقبت لها نافذة ضخمة، مغلقة، أو من المفترض أنها كذلك، بنظام بالغ التعقيد هو عبارة عن مصاريع للقمر، تسمح بدخول الهواء و الغبار و الشمس و العصافير؛ لأن الغرفة كانت طيلة بأعشاشها.

هاكم ما كنت أراه و أسمعه عبر تلك النافذة في الأيام و الليالي كلها. بادئ، ذي بدء، كنت أرى البحر يمتد امتدادا شاسعا لياذس السماء، في آخر حدوده الأقصى؛ و كان هناك قليل من الأشرعة التي ترصع هذا الحقل الأزرق، و لكنّ هرى ذلك البحر كان يزيد من جلاله، و يجعل الفكر مستغرقا في هواجس المطلق التي لا يمكن الحديث عن كنهها.

و إذا هدت إلى الأرض فإنني كنت أرى من على القسم الشمالي من المدينة كله، السوق الذي كانت تنتهي إلى منه أصوات الناس و الجمال، و كنت أرى أيضا السطوح التي كنت أتسح عليها في الليل خيال النساء، و كنت أرى أخيرا عددا من المساجد التي ترتفع منارتها. و كان على بعد خطوات مني مسجد صغير، و أنيق، و له/ ۱۳۶/ رواقان خارجيان، و كان له مؤذن عجوز، يصدح بالأذان خمس مرات في اليوم: الفجر و الظهر و العصر و المغرب و العشاء؛ و ينبغي على المسلم أن يتوضأ لكل صلاة، يغسل وجهه، و ما وراء أذنيه، و يديه حتى المرفقين و رجليه و أماكن أخرى، و مما يؤسف له أن صوت جاري المؤذن كان حادا و مرتعشا، و فهمت عند سماعه، لماذا جاء أحد سكان القاهرة القديمة بمؤذن ذي صوت جميل، و كان يخصص له راتبا لكي يظل يؤذن من المنارة نفسها.

و كان بالقرب من المسجد منزل يتصل به، و يسكنه العلماء، و كان يقام فيه كل ليلة، في وقت متأخر، ظهرس دينية صاخبة يتخللها أغان و صلوات و مواعظ، و كان ذلك مترافقا بالموسيقى؛ و أيّ موسيقى! و كان يرافقها الناي و الطبلة. و كانت تقام بالقرب منه، حفلات أخرى، من طبيعة أخرى، مختلفة كل الاختلاف: إنهم أفارقة سودانيون، عائدون من الحج الأخير إلى مكة المكرمة، يقضون المساء، كله يغنون و يرقصون، أغاني و رقصا متوحشين، يذهبان بالفكر بعيدا إلى أعماق القارة الإفريقية.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۵۱

و في كل صباح، و في الساعة نفسها، كانت تمر أمام نافذتي بدوية جميلة شابة من أسيوط في مصر، تمثل نمطا أصيلا بين بنات جلدتها، كانت تمر، و هي تغني،/ ۱۳۷/ بصوت ندي، و ناعم، أغنية مأساوية حزينة، كانت تكرر على الدوام الأغنية نفسها، و كانت رتابة الأغنية تجعلها أكثر حزنا و عويلا. كان قلبي ينفطر لسماعها في أول يوم و في آخر يوم من إقامتي. أما في المساء، فقد كان يحين دور أحد الهنود؛ و هو متسول ينام على حصيرة في زاوية من زوايا الشارع، و يغني هو أيضا على أرض أجنبية أنغام وطنه. كان يستمر في الغناء، إلى ساعة متأخرة من الليل، حتى إنه كان في غالب الأحيان ينعس من النوم، و لكنني كنت أغفر له ذلك لما كان يمنحني إياه من لذة؛ و أنا أستمع إليه، و بعد هذا كله، كنت على الدوام أسمع الصدى البعيد الجميل لصوت الدروكة في أحياء المدينة المختلفة، و أصوات الجوقات العسكرية، و عبارات البنادق باستمرار، و غالبا طلقة مدفع احتفالا بنصر، تحقق أم لم يتحقق، للأتراك على الروس، آلاف الأصوات، و بكلمة واحدة، ضجة ضخمة مختلطة، تشبه جلبة البحر البعيدة التي كانت في بعض الأحيان يطو ضجيجها على كل ذلك. و رأيت في أحد الأيام من نافذتي مركبا يدخل ميناء جدة قادما من الجنوب، و أعتقد أنني رأيت بمساعدة المنظار أن المركب كان محملا، بحمولة بشرية، و أخبرت أنه حقا يحمل من مصوع دفعة عبيد من الجنسين، و أنه كان بين النساء جارية تكاد تكون بيضاء، مع أنها حبشية. و دفعني فضولي إلى رؤيتها، و لكنها كانت قد بيعت فورا، و بثمن غال لأحد الأتراك الذي أغراه لونها الفاتح/ ۱۳۸/ و هو من العاملين في الديوان، أخو الباشا أو أحد أقربائه على الأقل.

إن العيد البيض تادرون جدا هذه الأيام في أسواق الشرق، و لا يكاد أحد يستطيع الحصول على ذلك إلا في إستانبول التي يوجد فيها وحدها الثروة الكافية للحصول على رقيق أبيض، إنها ثروة تكلف ما بين ۲۰ إلى ۳۰ ألف فرنكا؛ إن مثل هذه الجواهر ليست، كما نرى، في قدرة أيّ كان. إن خيلاء هؤلاء السودا لا يمكن احتماله؛ و لما كنّ يعرفن أن مصيرهن سيؤول إلى حمى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۵۲

أسياد من عليه القوم و أقويائهم فإنهن يحتقرن بقية الرجال؛ و يا لسوء حظ الشخص البسيط الذي يتجرأ على شراء إحداهن، فهو لن يتأخر عن إعلان توبته؛ و يكون عليه عندئذ أن يحمل مسرعا إلى السوق سلعته العنيدة المختالة.

عند ما كنت في مصر، تلقى عباس باشا عددا من خيول السباق هدية من إمام مسقط؛ ورد له عباس باشا الهدية، فأرسل له جاريتين بيضاوين؛ جورجيتين أو شركسيتين، و هي هبة غريبة، بسبب سن المهدي إليه، تاهيكك عن المصير المزعج الذي ينتظرهما. و حدث أن وقعت السفينة التي تقلهما خلال مرورها بمضيق باب المندب بأيدي سفينة حرب أوروبية فرنسية أو بريطانية، ليست أدري أيهما، كانت تقوم بملاحقة تجار العبيد في المحيط الهندي، و لما كان المركب المصري يحمل عبيدا فقد عدّوه غنيمة قانونية، و تم في الوقت نفسه/ ۱۳۹/ تحرير الجاريتين. و أجهل ما حلّ بهما، و لكنني، بحكم المعرفة التي اكتسبتها بطباع الشرقيين، متأكد من أن الجاريتين قاما بلعن محرريهما، بدلا من مباركة عملهم الإنساني الذي قاموا به؛ لأنهن يفضلن الحياة الهانئة، و العصير الطيب الذي وعدتا به عند ما تدخلان في جريم الأمير الحاكم، على الحرية التي لن تدريا ما ستفعلان بها. أما بقية العبيد الذين حملوا من مصوع، ذكروا كانوا أم إناثا، فإنهم كانوا أطفالا لا تزيد أعمارهم عن أربع إلى سبع سنوات أو ثمان، باستثناء حبشية يبلغ عمرها ۱۳ إلى ۱۴ عاما، و لكنها ذات هيئة تكون عليها الأوروبية في الخامسة و العشرين من عمرها، و قد كانت تلك الحبشية، بعد مواطنتها التي يمكن القول: إنها بيضاء، ألمن تلك الجواهر البشرية، لأنه على الرغم من لونها القصارب إلى السمرة، فإنّ الحُقّاب علقوا عليها آمالا كبيرا للحصول على ربح وفير. كانت الفتاة المسكينة معروضة في متجر مهجور في أكثر شوارع جدة سكانا، كانت جالسة على مقعد يرتفع عن الأرض ثلاثة أقدام، و كانت متسمرة عليه كأنها تمثال، تنتظر من يشترونها في صمت مهيب، لقد ألقى عليها لسترها قطعة من قماش الكاليكو الأبيض يلفها

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۵۳

من رأسها إلى قدميها؛ و لم تكن ترتدي أي شيء تحته، كان ذلك كل ما ترتديه، و لم يكن الزاعمون فيها جادين كانوا أم لا، يتورعون عن رفع ذلك الغطاء الرقيق من كل الاحتجاب ليتفحصوا، كما يرغبون، السلعة المعروضة كما يحدث عند شراء حصان أو رأس من الماشية. سبق لي أن رأيت في القاهرة، و في عدد من المرات/ ۱۴۰/ عروضا مشابهة، و تساءلت طالما عما تشعر به هذه المخلوقات، و عن التباوب الذي يجتويهم بين الخوف و الأمل كلما جاء قادم جديد يرغب في شرائهن.

كان الجلّاب (تاجر الرقيق) يرغب كل الرغبة في بيعي تلك الجارية؛ مع أنه يعلم أنه لا يمكن للفرنسيين شراء العبيد إلّا لتحريرهم، و أن كل عبد يشترونه يصبح حرا بمجرد أن تتم عملية الشراء. كان يطلب من أبناء جلدته ۱۵۰۰ فرنكا ثمنا لها (۱۲ صرة)، و قد خفض السعر إلى (ثماني صرر) لكي يغريني بشرائها، و قد جال بخاطري للحظة أن أقوم بعمل صالح، و لكنني للأسف ابتعت وصية الدبلوماسي الذي كان ينصح بالاحتراس من المبادرات الأولية لأنها مبادرات خيرة، و قلت في نفسي، و أنا محق في ذلك: إنني إن شرعت بشراء العبيد فإن الأموال المخصصة لرحلتي ستنفد عما قريب. لقد كان رفيق رحلتي من ناحيته يفكر بما كنت أفكر به، و لكن هدفه كان أقل نبلا مما كنت أفكر فيه: إنه الإحسان النفعي Carita ?Pelosa كما يقول الإيطاليون. و سواء كان خيرا أم شرا فإن مشروعه و مشروعي ظلا في حيز التفكير، و يبعت التابة الإفريقية، لست أدري لمن. أين هي الآن، و في يد من وقعت؟

إن الرق بالتأكيد نصف يبث على الثورة؛ إنه يحط من الطبيعة البشرية، و يتنج عنه آلاف التجاوزات. و لكنه ينبغي الاعتراف أن مصير أولئك الحبشيات ليس مجزيا كما يبدو/ ۱۴۱/ من النظرة الأولى. و لما كنّ صارات

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۵۴

إلى خدمة حريم المشترى فإنهن يصبحن من أفراد الأسرة، و ترتبط شروط عيشهن بمستوى عيش سيداتهن اللواتي يؤمن، هن أنفسهن، البيوت، و يكدن هن أنفسهن يكن جواري شأن جواريهن. و أعترف أن سيدهن قد يقضي منهن و طره، و هذا ما يحدث غالبا، و لكنه بذلك يحظر على نفسه أن يبيعهن مرة أخرى: لأنه من العار على مسلم أن يبيع جارية عاش معها، بل إن الأسياد يتزوجون عادة من الجواري اللواتي أنجبن منهم أولادا، و يتم ذلك خصوصا في مدن الجزيرة العربية . و إن هذا النوع من الزيجات لا يؤدي، و لو قليلا، إلى جعل لون سحنة العرب غامقة، و لكن التعصب ضد اختلاط الدماء غير موجود في هذه البلاد.

إن الأمر مهما كان وضعها، جارية سوداء من الفرار الأخير في السلم الاجتماعي في إفريقيا، لا تؤثر في أصالة الولد؛ إن الأب وحده هو أصل النسب، و ليس للأم أي حساب. و نحن نعرف أن السلطان نفسه الذي لا يعترف لأحد بالأصالة، و ليس له نظراء، لم يتزوج، و ربما ما زال، لا يتزوج إلا الجواري.

لقد شاهدت في مصر، و بين الأوروبيين، زيجات كثيرة من هذا النوع؛ و عددا من الفرنسيين الذين أعرفهم لم يكن لهم زواج آخر إلا هذا، و هم ليسوا في حال سيئة، عدا أن المشهور عن الحبشيات أنهن مبذرات، مما يدعو إلى القول: إنهن يخربن البيت. لقد عرفت منهن جميلات إذا غضضنا البصر عن لون بشرانهن، فإنهن صالحات في أي مكان، و حتى فيما يخص اللون/ ۱۴۲/ فإننا نعتاده بسرعة، و لم أعد خلال وقت قصير أعير ذلك التفاتا.

و تعوّض الحبشيات هذا العيب البسيط، إن كان عيبا، بأن لهن بشرة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۵۵

ناعمة، و شعرا طويلا ناعم الملمس، و بأن لهن قدودا ممشوقة، و أنحكلا أنيقة، و قسمات متناسقة، تقيّ بأكثر التماثيل الإغريقية جمالا، و لهن أيضا عيون ساحرة، و أسنان رائعة، و يدان صغيرتان، و قدمان دقيقتان. إنهن بكلمة واحدة جزن كل أسباب الجمال التي تكون في المرأة، و لست متدهشا من رؤيتهن يثرن رغبات تستثير مأججة حتى بعد الزواج.

كانت نافذتي مطلّا أشرف من خلالها على الميناء كله: لا يدخله أو يخرج منه شيء دون أن أراه. لقد وصل عدد من القلعات أو للاثيات الصغيرة المحملات بالسكر و الأرز، تاهيكك عن مراكب البلد التي كانت تذهب و تجيء في كل يوم.

لقد كانت مفاجأة سعيدة لي، عند ما رأيت في صباح أحد الأيام العلم الفرنسي يرفرف على سفينة حربية وصلت في الليل؛ كانت الجوّافة البحارية التي تحمل اسم لو كيمان Le Caiman، الكايمن كورميه Cormier من قاعدة الهند، وصل إلى جدة في رحلة استطلاع، و تحمل السفينة على متنها، تاهيكك عن طاقمها المعتاد، حوالي مئة من المدفعشقريين المجندين مؤقتا من جزيرتهم للخدمة على متن السفينة، مما يكاد يضفي عليها هيئة متوحشة. إننا أبناء بلد واحد جمعتهم المصادفة في جدة، و تم التعارف بيننا بعد وقت قليل، و أصبحنا أصدقاء، من الساعة الأولى./ ۱۴۳/ تناولت طعام الغداء على متن السفينة غير مرة؛ و فعل مثل ذلك قائد السفينة و طبيبها في منزلي، و أقيمت في القنصلية الفرنسية حفلة عشاء، رسمية كان الواجب يقرض حضورها بسبب مرض القنصل. رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۵۶

هذه المآدب المتقرفة، التي ليست بذات دلالة في أوروبا، تكتسب بعض الأهمية على بعد ۱۲۰۰ فرسخ عن باريس؛ لأن المسافات تجعل أكثر الأشياء ابتذالا.

Elongínquo reverentia

. لقد ترسخت الصداقة بيننا عند ما قدم لي ضباط السفينة هدية لا تقدر بثمن في هذا المكان، لقد تركوا لي عند مغادرتهم ۱۲ زجاجة من نبيذ بوردو Bordeaux . كانت الجوّافة لو كيمان Le Caiman قد ألقت مراسيها بعيدا جدا عن المدينة، و تم ذلك بناء على اقتراح السلطات المحلية، و أظن في الحقيقة أن الباشا كان يخشى أن يكون الهدف من مجيء الجوّافة هو الإغارة على المدينة، و أن ضحالة الماء في الميناء ليست إلّا حجة. و لكن ذلك لم يمنعه من زيارة الجوّافة في موكب ضخم؛ و هي زيارة لم تكن في الواقع إلّا ردا على المجاملة بمثلها لأن قائد السفينة بادر، كما ينبغي عليه، إلى زيارة الباشا أولا. و أطلق الجانبان مدافع التحية بانتظام كما هي

العادة فى مثل هذه المناسبات، و قد غالى الجانبان فى ذلك، و لم يختصرا.

و ظلت الحرّاقة أسبوعا، و فى يوم مغادرتها رافقتها مسافة ستة أميال. و خلال جولتى إلى اليابسة مع البحار المحلى الذى رافق الحرّاقة حتى خرجت من قنوات الملاحة، عاينت كثيرا من البحر الذى كان خلفنا، و من انعكاس الشمس على البحر الذى كان فى ذلك اليوم هادئا و شاحبا كأنه بقعة زيت. كان قائد السفينة المحبب يود بالحاح/ ۱۴۴/ أن يأخذنى إلى جزيرة بوربون Bourbon ، و كان الأمر مغريا جدا، بالنسبة إلى رحالة، و لو أننى استجبت لذلك الإغراء لما كنت مضيت بعيدا، لأن سوء حظ الحرّاقة لو كيمان جعلها تغرق على سواحل زيلع Zyla.

إن لقوانين أوروبيتين هما فرنسا و بريطانيا وجودهما فعليين فى جدة.

القنصل الفرنسى هو روشيه ديريكور Rochet D'Hricourt ، كان حينئذ على

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۵۷

حافة الموت، و قد مات منذ ذلك الحين، و ستأتى لى فى الصفحات القادمة فرصة الحديث عنه. أما القنصل أو نائب القنصل البريطانى فهو كول M Cole ، و هو فى الوقت نفسه، شأنه شأن زميله فى السويس، وكيل تجارى لشركة الهند الشرقية. و إن وظيفته ليست وظيفة بلا عمل بسبب العدد الكبير من الهنود الذين هم مواطنون بريطانيون و يقيمون فى جدة. و لا نستطيع أن نقول:

الشئ، نفسه عن زميله الفرنسى الذى ليس له فى الحجاز كله مواطن واحد.

و لعله من المفيد أن نعلم أن الباب العالى العثمانى يمتنع عن قبول اعتماد القناصل بحجة أن جدة مدينة مقدسة. كان سكنا ملاصقا لسكن السيد كول، و كنت أقضى فى منزله وقتا يساوى الوقت الذى كنت أقضيه فى سكنى. لقد حملت إليه رسالة من صديق مشترك هو السيد بيرتون، و قد أمدنى لى طوال مدة إقامتى فى جدة خدمات جليلة.

لم تأت إلى جدة لأجل رؤية جدة نفسها، و لكن بتية الذهاب إلى الطائف؛ و هى مدينة صغيرة تبعد مسيرة خمسة أيام إلى الداخل؛ و هى مشهورة فى الجزيرة العربية بفراولة/ ۱۴۵/ مياهها، و جودة ثمارها، و خضرة بساتينها. و هى دار إقامة الشريف الأكبر؛ أمير مكة المكرمة الذى بنى فيها

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۵۸

قصرا، و لما كنا مسجنين فإننا لا نستطيع القيام بهذه الرحلة بدون أن يأذن هو بذلك. و قد طلب السيد كول الإذن عبر مصطفى أفندى وكيل الأمير الشريف فى جدة، و لم يتأخر الجواب، و فيه أن الشريف سيستقبلنا بكل سعادة، و أنه سيهتم برحلتى الذهاب و الإياب. و سيرسل لنا هجنه و رجاله ليحملونا إلى الطائف، و يعودوا بنا إلى جدة. وصل هذا الجواب اللطيف فى ۱۷ فبراير (شباط)، و مهما كانت السرعة و المبادرة التى تعهد بها الشريف أن ينفذ بهما وعده، فقد كان أمامى أسبوع انتظار كامل؛ و كان ينبغى على أن أتخلف، و لكن كيف؟ لم يبق لى ما أراه فى جدّة. «لقد قال لى أحد السكان الأصليين: كيف - و أجبته بنعم، و لكن هل الممكن أن يدوم الكيف ثمانية أيام؟» و قد يسألنى أحد ما الكيف؟ و هأنذا أقول لكم:

عند ما ينهى العربى أعماله، مهما كان نوعها، و يكون يومه قد انتهى، يعتزل الناس بين حريمه، و يتخفف من ثيابه، و يأخذ شيشته، و يجلس متربعا على ديوانه، و يستغرق عليه دون شعور/ ۱۴۶/ هو يدخن فى استرخاء بدنى و روحى؛ هو نوع من النوم و الصحو، دون أن يكون لا هذا و لا ذاك. و لا يجرؤ أحد فى العالم أن يعكر عليه صفو هذه اللحظة الفلوسفية حتى لو كان زوجته نفسها، أو حتى أقرب الجوارى إلى نفسه. إن حالة البين - بين هذه، التى هى وسط بين الوجود و اللاوجود، و التى لا يمكن أن نعرفها لأوروبى، و لا يمكن له أن يفهمها- ليست إلا تطبيقا عمليا للمثل الشرقى القائل: خير لك أن تكون جالسا من أن تكون واقفا، و مستلقيا من أن تكون جالسا، و نائما من أن تكون مستلقيا، و ميتا من أن تكون حيا. ليس الموت الحقيقى هو المقصود هنا؛ لأننا فى هذه الحالة لا نفكر، و لا ننشر، و لا نحلم، و لا نعيش، و لكننا نتنفس، نعيش كما تعيش النباتات، و هذا يمثل لدى العربى النعيم الأعظم، و الشعور المسبق بالنعيم الخالد. ذلك ما يسمونه الكيف.

و قد جعل الأتراك، و خصوصا الطبقات الميسورة، من هذه العادة الروحية ممارسة مادية، و أفسدوا المتعة التى لا توصف للجسد و الروح، عند ما جعلوها مترافقة بشرب الكحول: إنهم يشربونه بشراهة حتى التساقط، و يتيح عن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۵۹

ذلك التصرف الحيوانى، عن ذلك الكيف الذى لا يليق به هذا الاسم، أن الإنسان يغط فى نوم عميق. و نرى من خلال ما ذكرته أن الإنسان لا يستطيع، مهما كانت قوة الإرادة لديه، أن يستمر فى ممارسة هذا النوع من الكيف أسبوعا كاملا؛ و لما كنت قد رأيت كل شئ، فى جدة، فإنه لم يعد فيها ما يثير فضولى، فتركت الاهتمام بالأشياء، و اتجهت نحو الناس، و إليكم بعضا ممن/ ۱۴۷/ خالطتهم لنقل الوقت حتى يحين موعد مغادرتى إلى الطائف.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۱

الفصل السابع لوحة نابضة بالحياة

المكان للمكين، لذلك أبدأ بالحاكم. كان الباب العالى العثمانى يرسل فيما مضى إلى المدينتين المقدستين، و جدة باشا يحمل ثلاثة ذيول احتراما

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۲

لقدسية المدن الثلاث. و مع أن هذا الامتياز الذى أسف عليه هواة الأصالة قد ألغى، فإن ولاية مهد الإسلام، ظلت أولى ولايات الإمبراطورية العثمانية، و الموظف الكبير الذى يولّى عليها لا يتقدمه إلا رئيس الوزراء، و يتقاضى سنويا مليونا و مئتى قرش، يضاعفها مرتين أو ثلاثا عادة، إن لم يزدها عشرة أضعاف، بالطرق المألوفة فى تركية و غيرها. و يبدو من الطبيعى أن يقيم فى مكة، و لكنه لا يقوم إلا- بزيارات نادرة إلى عاصمة النبى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و زياراته للمدينة المنورة أكثر ندرة، و يقيم فى جدة طول الوقت؛ بسبب أن هذه المدينة هى مقر الجمارك التركية؛ و هى المورد الرئيسى، و بكلا يكون الوجيد لموارد الحجاز العامة؛ و إننا لا نستطيع، حسب مبدأ الخيرى تيرى Terray ، أن نأخذ إلا حينما نجد ما يؤخذ، و من جمارك جدة غرف الباشا/ ۱۴۸/ ما شاء اللّه له أن يغرف . هنا يوجد الكثر فى نظر التركى، و هنا يوجد قلبه و شخصه أيضا.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۳

زرت الباشا منذ اليوم التالى لوصولى، و لكن ليس قبل أن أرسل من يخبره بذلك، بضع ساعات قبل موعد الزيارة، كما هى العادة بين ذوى الاعتبار. كان الاستقبال فى غاية اللياقة: إذ كان على الباب لجنة عسكرية لاستقبالنا، و كان العبيد و الخدم ينتشرون على الدرج و فى المدخل، و كان هناك الشيشة و القهوة و الشراب و الثنايا و الحلويات، و كان كل ذلك يطلب بصوت عال، و ذلك هى غاية اللياقة فى الشرق، حتى يستطيع الجميع أن يسمعوا التشريفات التى تقدم للزائر، و لم يكن ينقص الحفلة شئ. لقد خرج الباشا نفسه للقائى لدى باب المجلس، و قادنى إلى غرفة مستقلة تطلّ على البحر، مليئة بالسجاد و الدواوين، و الوسائد، و بكلمة واحدة مليئة بكل وسائل الراحة المتوفرة فى البلد.

أما قنصل فرنسا الذى كان طريح الفراش، و أغمده المرض الشديد من مرافقتى، فقد طلب رسميا من السيد دوكي Deque M? المترجم، و موثق العقود فى القنصلية أن يمثله، و قد تفضل السيد دوكيه بالقيام بدور المترجم، و قد قام بذلك بذكاء، و نفان. كان اسم الحاكم أحمد عزت باشا، و هو رجل حيوى، جيد الثقافة، و هذا نادر لدى الأتراك، بل إنه شاعر، يستعرض معارفه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۴

بكل طيبة خاطر. بدأ الحديث بالطبع عن الحرب التى كانت حينئذ قد بدأت، و قد أمر بإحضار/ ۱۴۹/ خرائط جغرافية تركية ليتسنح عليها التوضيحات التى كان يطلبها منى.

و جعلته أنا يدوري يتحدث عن الموضوعات التى تهمنى أكثر من غيرها، عن البلد الذى يحكمه، و قد استفيت منه المعلومات التى ذكرتها سابقا عن مدينة النبى صالح المهدمة. لقد زودنى بمعلومات أخرى هى فى نظرى موضع شك: فهو، على سبيل المثال، رفع عدد سكان مكة المكرمة إلى ۱۰۰ ألف نسمة، مع أن عدد سكانها لا يبلغ نصف هذا العدد، و قال: إن عدد سكان مكة المكرمة الذين تساعدهم إستانبول يبلغ ۲۰ ألفا. و علمت منه أن إحدى أرامل ملك لاهور رونجيت- سينج Runjet -Singh جاورت بعد موت زوجها فى مكة المكرمة، و هى تعيش من المساعدة التى تقدمها لها شركة الهند الشرقية، و هى تمارس فى عزلتها كل الفضائل التى أمر بها الإسلام.

و أود هنا أن أروى طرفة حدثت فى جدة الصيف الماضى، و هى تكشف بوضوح فساد الطباع لدى السيدات فى الشرق؛ و لكن رواية تلك الطرفة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۵

تحتاج إلى اتخاذ الحيطة و الحذر فى الحديث، و ليس بالسهل روايتها.

و سأحاول أن أفعل ذلك بطريقة لاتفه، إلا أنها مفهومة، و إن التلميح من الإشارة يفهم!

لقد فقد الحج كثيرا من ألقه؛ فالفقراء و المساكين يؤدون هذا الواجب الدينى بأعداد كبيرة؛ و هم إما ممن فترت عواطفهم، و إما من الشباب، و إما من المقترين. أما الأغنياء، فإنهم عزفوا عن أداء الحج؛ فلم تعد ترى سلاطين الماضى العظماء يأتون من كل بقاع العالم الإسلامى/ ۱۵۰/ ليظهروا بهذه المناسبة الاحتفالية كرمهم، و ليكون حجهم مادة لذكريات رائعة يمكن إدراجها فى عداد الحكايات الخيالية فى ألف ليلة و ليلة. مع ذلك فإن الحج الأخير شهد قدوم سيدة جليلة من أصفاق بلاد فارس، كانت على ما أظن أرملة، و هى، و إن كانت لم تظهر من آيات البذخ ما يظهره القادمون من بلاد فارس أو من إستانبول أو من بقية بلدان الشرق الإسلامى، كانت ثرية، و برفقتها حاشية لا يستهان بها. لقد كان معها خصى أسود مقصور على خدمتها، و كان يقوم لديها بوظيفة أمين الصندوق و القيّم. لقد قدمت الحاجة الشهيرة من مصر، و زودها القنصل البريطانى العام برسالة توصية إلى السيد كول، لست أدرى بأى قصد، و قد أكد لى السيد كول كل تفاصيل المغامرة الغريبة. عند ما وصلت إلى جدة التقى رجال الجمارك على أمتعتها كما لو أنهم يتفضون على فريسة، و بضراوة شرسة تتميز بها مصلحة الضرائب فى كل البلاد، اطلع رجال الجمارك على كل شئ، عدا صندوق امتنع الخصى بإصرار عن فتحه بأمر صريح من سيدته، و دارت بشأنه محادثات طويلة؛ و كلما كان الإصرار على عدم فتحه عنيدا، ازداد الحاج الجمارك على ضرورة ذلك، و زادت شكوكهم بسبب ما يرونه من مقاومة. و لما اخفاقت البداءة صرحت فى آخر الأمر للجمارك؛ أنهم إذا أصروا على فتح هذا الصندوق الذى دار حوله نقاش كثير فإنها/ ۱۵۱/ لن تسحبه أبدا، و ستكر ملكيتها له. و لم يكن لاعتراضاتها أية فاعلية، و فتح الصندوق على الرغم من كل معارضتها الشرسة. ما الذى كان فى ذلك الصندوق العجيب؟ إن كان فضولكم يدفعكم إلى معرفة ذلك

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۶

فيمكنكم أن تسألوا مؤلف رواية الساتيريكون Satyricon ، و باستطاعتكم أن تسألوا أيضا جمارك بيرينيان Perpignan الذين شهدوا منذ عهد قريب حصول مغامرة مشابهة لسيدة جليلة من نساء عصرنا.

إن أول التشخيصات الرسمية التى عرفتها بعد الباشا، و لكن على سبيل الفضول، كان كرد عثمان أغا ، كدا يسمونه فى بلاده و فى عمله، ولد فى كردستان، و كان سنجقا أو قائدا للخيالة غير النظاميين الذين يبلغ عددهم بين ألف أو ألف و مئتى رجل، و يعسكرون على بعد عدة فراسخ على طريق مكة المكرمة، و هم مستعدون على الدوام للتمرد، إن لم يتقاضوا مستحقاتهم المالية. لقد حصل من قبل فى معسكرهم اضطرابات خطيرة، و يتوقع أن يحدث تمرد عام إن لم تصل النقود بسرعة من استانبول.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۷

إن خيالة الشرق هؤلاء، الذين يسمون باشى بوزوق، و هذا يعنى بالتركية:

ميليشيا، هم داهية تحل فى البلد الذى يرسلهم الباب العالى فى حملة إليه:

إنهم يأخذون كل شئ، من الأسواق دون أن يدفعوا ثمنه، و يعاملون التجار الذين يطالبون بحقوقهم معاملة سيئة، إن حياة/ ۱۵۲/ الإنسان لا تساوى فى نظرهم حياة كلب، و هى أقل بكثير من حياة خيولهم. و إذا قابل أحد هؤلاء اللصوص امرأة غير متقبة، فإنه يشهر مسدسه و يصوبه نحوها، ثم يطلق يرودة أعصاب النار على رأسها على مرأى من كل الناس؛ ثم يقوم بعد فعلته، و بهدوء، بإرجاع سلاحه إلى خرامه، و يتابع طريقه، و هو يبرم شواربه، دون أن يفكر أحد بالوقوف فى طريقه، أو بالنظر إليه نظرة احتقار. و لتحليل مصير الشعب الذى تجعله الحرب تحت رحمة جنود غير منظمين، ليس لهم دين و لا خلق كهؤلاء الجنود الذين هم سر قائدهم. كان كرد عثمان أغا هو الرئيس اللاق لهذه الميليشيا التى أطلق لها العنان. كان طوله ستة أقدام، مفتول العضلات مثل هرقل، و نظن حين تراه أنه عملاق يقسم الجبال إلى شطرين، و لكن هذا العملاق كان بعد من الجبناء؛ فهو إبّان الأحداث الثورية العهد التى كان معسكره مسرحا لها لم يفعل شيئا لإعادة فرض النظام، و تلوح الآن فى الأفق اضطرابات أكثر خطرا أيضا، و هو لا يستعد للوقوف فى وجه العاصفة، و إنما يستعد للهرب إلى مصر، و قد أرسل إليها منذ زمن عائلته و أمواله. لقد سطا خلال نهب إحدى المدن التى لا أذكر اسمها، و لم يكن حينئذ إلا-مجرد جندى، على مجوهرات باهظة ب ۲۰ ألف قرش؛ و اشترى بهذا المبلغ جيادا، و كان ذلك بداية ثروته. و كانت مستحقاته حينئذ لا تزيد عن ۷۵۰۰ قرش فى الشهر، و لكنه كان يملك/ ۱۵۳/ الموهبة الكافية لرفعها إلى ۲۰ ألف، و بفضل كفاءته المالية التى تعوض عجزه العسكرى، كوّن لنفسه، بوسائل مشروعة تقريبا، و مع أنه ما زال شابا، وأسمالا يقدر بمئتى ألف تقرى، أى مليون فرنكه. إنه متحدث بارع، و يزعم أنه يعرف تمام المعرفة بلده الأصلى.

و يقدر أن عدد القرسان الأتراك المنتشرين فى كردستان يبلغ ۱۷۰ ألف فارس، و كان يذكر بفخر أنه يعرف مواضع سبعة مناجم ذهب فى جبالها، و لم تكن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۸

حماسته بأقل فى الحديث عن نبع يتمتع بخصوصية تكمن فى أنه يساعد على هضم الطعام فورا؛ لأن الأتراك حريصون كل الحرص على صحتهم. و يدّعى أيضا أن معرفته بالجزيرة العربية لا تقل عن معرفته ببلاده، و مع ذلك فإننى لم أستفد منه شيئا ذا بال. استهل حديثه بمقالة فيها الكثير من الهذر و الاضطراب عن طرقات الصحراء العربية و أفنائها، و لم يفهم منرجمنى، و لم أفهم أنا من ذلك

شيئا أبدا.

و إليكم بعض المعلومات التى أخذتها عنه، أظنها أكثر دقة، مع أنه من المرجح أن هناك شكا فى صحتها و أصالتها. يوجد فى مكان يبعد مسيرة ثمانية أو عشرة أيام عن جدة، باتجاه الشرق مكان، يسمى الدفينة، فيه حجر عريض قديم مغطى بأشكال محفورة، و هو مجهول الأصل. و على مسيرة عدة أيام فى الاتجاه نفسه، ترتفع جبال داثرة و متحولة تسامة. اسمها جبال مزان، و تبع من سلوحها ٧٥ عينا./ ١٥۴/ و تحدث عثمان أيضا عن نبع آخر مأوه يتحجر بمجرد احتكاكه بالهواء. أورد هذه المعلومات بحجرها و بحرها، و أود من القارئ، أن يخفضها لحسه النقدى، أكثر من اعتبارها إشباعا للفضوله.

إن المعارف عن قلب الجزيرة العربية قليلة، و ليس لدينا من سكانه أىّ معلومات واضحة؛ لذلك ينبغى أن يصغى المرء لكل ما يقال، و أن يجمع كل شىء، بشرط أن يستنتج بعد ذلك من هذا المزيج بعض جوانب الحقيقة.

لم يكن عثمان أغا يقيم فى المعسكر، كان يسكن فى مركز المدينة منزلا يجمع على الدوام بالضباط الأرناؤوط أو الأكراد فى لباسهم العسكرى الأصلى:

و هو عبارة عن سترة حمراء مطرزة بالحرير، و سروال منتفخ معقود عند الركبة، و حزام عريض فيه خناجر و مسدسات، و كان كل ذلك يشكل لوحة حيوية جذابة جدا.

إن الجيش غير النظامى معفى من ارتداء الزى الذى فرضه السلطان محمود على الجيش التركى. و ليس ذلك الزى، باستثناء الطربوش، إلّا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۶۹

نسخة مقلدة من الزى الغربى، و ينبغى على كل الموظفين، عسكريين أو مدنيين، الالتزام بارتداء ذلك الزى. و تجد صعوبة فى اعتياد رؤية الشيوخ العثمانيين الكلاسيكيين، و خصوصا الباشا، و هم يرتدون تلك القلنسوة الحمراء الشنيعة، و ذلك البنطال الضيق، و ذلك المعطف الضيق؛ و كل ذلك يمثل الآن الزى الرسمى.

إنهم متنكرون يرى الأوروبيين، كما كنا فى طفولتنا نتنكر برى التركى، و قد خسروا بهذا التحول بنسبة ۹۰٪. لقد كان الزى القديم باناسه و هيئه/ ۱۵۵/ يظهر تميزهم؛ و كان فيه نوع من النبل و الجمال، و هو خال من تلك الزينة المستعارة، و متناسب مع جوهر شخصهم، إنهم اليوم يبدون على حقيقتهم، فى غاية القبح عموما. بدناء قبل الأوان، و إن سوء مظهرهم لا يقل عن سوء مخبرهم. و إن المثل المأثور: قوى كالتركى، لم يعد صحيحا.

لقد احتفظ باشا مصر بمصالح ضخمة فى الحجاز منذ حرب الوهابيين، و هو يرسل إلى جدة للسهر على تلك المصالح قائما بالأعمال، كان إيّان زيارتى هو أمين بيكه، كولونيل سابق فى سلاح المدفعية، رجل حاذق، و مؤدب، عارف بكثير من الأمور، و منها التجارة، أفادنى بقدر ما كان لطيفا معى. عينه محمد على، و أبقاه عباس فى مصنبه، على الرغم منه، لأن مناخ جدة أتلف صحته، و كان يطلب بإلحاح أن يتم استدعاؤه إلى القاهرة. علمت منه أن الباب العالى لا يجنى أى فائدة من سيطرته على الجزيرة العربية، بل يبدد فيها كل سنة قسما كبيرا، ٢٩ أو ٣٠ ألف صرة، من الضريبة التى تدفعها مصر لإستانبول؛ كان أمين بيكه على علم تام بهذا الخصوص، باعتبار أن تلك الأموال تصرف بمعرفته. و إذا صدقناه فإنه كان لعباس باشا فى مكة أنصار.

و أجهل إن كان هذا الأمر صحيحا؛ و لكن ما علمته/ ۱۵۶/ من مصدر موثوق به أن عباس باشا يداهن بدو سيناء، و الحدود السورية، لأنه يرغب أن يكون ابنه الذى كان متزوجا بإحدى بنات السلطان، أو أنها كانت مخطوبة له، والى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۷۰

المدينتين المقدستين لكى يدعم بذلك نفوذه الخاص على العرب و يوسعه. و قد جاء موته المفاجىء، ليقصد سلسلة تلك المؤامرات.

كان أمين بيكه معارضا صلبا لحكومة الأشراف السابقة التى كان يأخذ عليها أنها تطبق نظاما غبيا فى الابتزاز و الجور من كل الأنواع، و هو مأخذ غريب عند ما يصدر عن خادم لعباس باشا، كان يذكر لى أشياء سيئة جدا عن الشريف الأكبر الحالى، و ينهمه بالبخل و الجشع، و يقول إنه لا يوثق به، و مخادع حتى المكر. و لكننى كنت أشكك فى هذا الحكم لعدة من الأسباب:

أولها أن أمين بيكه هذا صنيعة محمد على، الذى فرض حكم الأشراف، و لئا كان من أصل تركى، فإنه كان بالطبع منشبعا بآراء سيده، و يقاسم مواطنيه تحيزهم ضد السكان الأصليين. هناك كره متبادل، و متمكن و عداوة لا تقبل المصالحة بين الأتراك و العرب و بين العرب و الأتراك. و إن المثل القائل:

معاملة التركى للموري Maure ، هى فى هذه الحالة أكثر صحة من أى وقت مضى، و كلمة مور هنا مرادفة لكلمة عربى.

كان العثمانيون باعتبار أنهم الغالبون، يعاملون الشعب المغلوب بقطرسة، و بطغيان/ ۱۵۷/ لا يمكن احتماله. أما العرب فإنهم، من ناحيتهم، جنس مستقل و معتز بنفسه، و يكون لحكامهم الفرار، حقدا لا يترك مكانه إلّا للاحتقار؛ يختاطون من جهلهم، و يسخرون من طريقتهم السيئة فى التحدث بالعربية، و يأخذون عليهم أيضا، أنهم لا يحسنون قراءة القرآن فى المصحف، و أنهم لا يحرفون أداء الصلوات بشكل صحيح. و إن غدرهم هو الذى يثير العرب على وجه الخصوص؛ فهم لا يثيرون إليهم إلا ياسم: الخونة، و هم فى هذا السياق يستهترون بلقب «خان» الذى يحمله كبار رجال الدولة، فيحولونه من اسم إلى فعل يدل على الخيانة، و إليكم القصة التى يروونها فى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۷۱

هذا الموضوع. أخفت أحد السلاطين وعده لأحد العرب، فما كان من هذا إلّا أن نعته بسلطان خان، ففهم العثمانى لجهله أن هذه التثنيمة لقب تشريف، فأضافه إلى الألقاب الأخرى التى يحملها من قبل، و أورثه لذريته. و إن كلمة «تركى» إعادة، حتى لو خرجت من فم الأطفال، و هم يتنابزون بها بينهم، و ينادون بها الكلاب، كما هى الحالة فى أوروبا حيث يطلقون على كثير من هذه الحيوانات اسم: تركه .

و نفهم من ذلك لماذا كان الباشا و الشريف الأكبر مختصمين، و يسود بينهم شقاق معلن. إن السلطات الخاصة بكل من صاحبى المنصبين المرموقين غير محددة بوضوح و ينتج عن ذلك/ ۱۵۸/ خصومات أبدية، تاهيك عن الكره المتأصل و السياسى بينهما. و كانا يستغلان عدم الوضوح فى توزيع السلطات ليخرج كل منهما الآخر بكل الطرق الممكنة، و يملك كل الوسائل السيئة التى يمكن تخيلها، و وصل بهما الأمر إلى أن كلا منهما كان يأمر بسرقة رسائل الآخر الرسمية، بل و بقتل سعاة البريد.

كانت هذه الخصومة المعلنة، تجعلنى فى موقف حرج. كان الباشا يعلم عند ما وصلت إلى جدة أن هدفى هو الذهاب إلى الطائف، مقر حكم الشريف، و مركز سلطته؛ لذلك وجد الباشا نفسه مترددا بين أن يشجع رحلتى أم لا، و كان يخشى من أن يعرض نفسه للشبهات، و مع ذلك فقد عرض علىّ، و لكن بلا حماسة، حراسا لمرافقتى.

أما عثمان أغا الذى كانت ع داونه للشريف الأكبر أكثر استحكاما، فإنه من جانبه وضع فرساته تحت تصرفى. لم تكن مثل هذه الطريقة فى السفر تناسبنى؛ إذ لم أكن أنوى المثول أمام الشريف الأكبر، بصفتى رحالة يحميه أعداؤه و يفرضونه عليه، و لكن بصفتى رحالة حرا، و مستقلا تماما.

و لم تكن لدى أى رغبة فى رؤية الشعب العربى و الطباع العربية عبر الأتراك، و خصوصا عبر الباشا بوزوق، لذلك رفضت ما عرض علىّ بقليل أو

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۷۲

كثير من سلامة الطوية، و اتخذت القرار الوحيد الحكيم بالنجوء مباشرة إلى الشريف.

لقد أحس الباشا بالمهانة من جراء هذا الاختيار، مع أنه أزال حيرته، و أزاح عن كاهله عبء أى مسؤولية. و حرص كل الحرص، و هو/ ۱۵۹/ التركى الأصيل، ألا يظهر لى شيئا من ذلك، و خصوصا أنه كان مشغولا بأمر أكثر خطورة من ذلك بكثير: لقد كانت تنتشر فى جدة شائعة إقالته من منصبه، و علمت من مصدر موثوق به أن ذلك صحيح.

كان ديوان أمين بيكه يقع على مقربة من البحر، يفصله عن ديوان الحاكم ساحة كبيرة حارة، و مغبرة، كانت تعسكر فيها حينئذ شبه فرقة من المتطوعين، و إليكم حكايتها: كان فى جدة تاجر هندى ولد فى كابول، و كان يتوق منذ بداية الحرب الأخيرة إلى أن يؤدى دورا فيها، و قد جمع خلال سعيه لتحقيق ذلك كل ثروته، و لما ألقى عنه ثوب التجارة الرث، و تحول بشجاعة من عبادة إله النقود إلى عبادة إله الحرب، بدأ على حسابه الخاص، بتطويع مواطنيه، متسولين كانوا أم غير ذلك، فاستسلم هؤلاء، لإغراء العمل، و انضم إلى هؤلاء، المتطوعين الأوائل متطوعون آخرون كانوا راغبين فى ذلك، و كان اسم هذا المرتزق من النوع الجديد أحمد- يكه، و قد انضوى تحت لوائه ألفا رجل، يعلم الله وحده كيف تم تسليحهم، و لم يكونوا يتقنون للاطلاق إلا المراكب المخصصة لنقلهم عبر مصر إلى ساحة الحرب. كان هذا الكائن المغامر يسكن قريبا من سكنى، و كنت أذهب بدافع الفضول لرؤيته، و وجدت أن هيئه هيئة رجل حرب أكثر منها هيئة تاجر تركك التجارة، كان يلبس برنسا أحمر، و كان حزامه مملوء بترسانة كاملة من الأسلحة، يطلقان (سيف تركى محدب)/ ۱۶۰/ سيف، مسدسات و كل ما يلزم ذلك. و قيادته تتكون من جماعة من الناس المتشردين، يلبس أطقمهم أسمالا بالية، و كان يتردد من منزله ليل نهار صدر الاحتفالات العسكرية التى يصاحبها أصوات طلقات البنادق.

لم يعد فى جدة مسيحيون باستثناء الإخوة ساوةSawa ، و هم من الجزر اليونانية، انضووا فرديا تحت حماية القنصل الفرنسى، فى حين أن مصالحهم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۷۳

الاجتماعية يحميها القنصل البريطانى، و هى تركية عقرية تسمح لهم بالاستفادة من كلتا الجنسيتين، و من رعاية أكبر قوتين بحريتين فى الغرب.

و تقوم شركتهم بالاتجار مع السودان حيث يوجد لها وكلاء منتشرون حتى حدود الحبشة. كنت أرى فى بعض الأحيان هؤلاء التجار الذين كان والدهم عجوزا، و رب عائلة كبيرة أصله من ليمنوس Lemonos . و كانت نفسه تذهب حسرات على جزيرته التى ولد فيها، و التى كان على و شك العودة إليها.

يمتلك هؤلاء السادة مجموعة كبيرة من التراجيل الفارسية المخصصة لاستخدامهم الشخصى و لاستخدام زوّارهم؛ و إن ذلك النوع من التراجيل هو المستخدم فى جدة.

و أذكر لمن يهتمون بذلك أن هناك أنواعا مختلفة من التراجيل، و أن لكل نوع اسمه الخاص: و إن أكبرها و أجملها الكبرة Kdra ، التى ترتكز على ثلاثة قوائم، و هى من القصّة المضمنة المرصعة بطريقة فنية، و مجهزة بثبيق (بأنبوب) طويل لدن يسمى: الفن، و يدخن أصحاب الذوق الرفيع فيها تبغا شيرازيا. أما النوع الثانى فيسمى: الشيشة، و هو يكاد/ ۱۶۱/ يشبه الكدرة إلا أنه أصغر حجما. أما النوع الأخير، و هو أكثرها انتشارا، فهو ليس إلا جوزة هند محوفة، مملوءة بالماء، شأنها شأن النوعين السابقين، و يقوم مقام الفن فيها قصبة مثبتة فيها. و اسمها العامى هو: البورى. و يستخدم الناس عموما فى الأنواع الثلاثة تبغا قوى النكهة يسمى التباك يأتى من بغداد و البصرة .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۷۴

كان الإخوة ساوة لطفاء، يتصفون بلين العريكة مع أنهم تجار: لقد زودونى مقابل فائدة قدرها خمسة بالمئة بكل النقود التى احتجتها بوساطة كمبالة مدتها ثلاثة أشهر مسحوبة لدى م. حسونHusson .M فى القاهرة، و الذى استفاد كل الرحالة من خدماته الحميدة، و الذى لقى فى العام الماضى نهاية مؤسفة.

يكاد الحضارمة، و الهنود على وجه الخصوص، يسيطرون تماما على التجارة فى جدة؛ الحضارمة شعب متزمت، و لكنه حرفى من اليمن، و من أرياض حدن. و ليس نادرا أن تجد ثروة أحد الهنود و قد بلغت ثلاثة أو أربعة ملايين فرنكه: و إن أكثرهم غنى هذه الأيام رجل اسمه فراج يوسف، و هو

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۷۵

يملك عشر سفن ذوات حمولة كبيرة، و يكاد ذلك الهندى يكون أسود اللون، ممشوق القامة، و قد وهب هيئة فى غاية الظرافة، تبدو عليها قسمات اللطف و النباهة. و كان له ولد فى غاية الملاحة، اسمه عبد القادر، لون بشرته يساوى فى السواد لون بشرة والده، و كان يقف أمام والده وقفة احترام، و لا يجرؤ على الجلوس دون إذنه. و كان يلبس كلاهما/ ۱۶۲/ عباءة من الموسلين الأبيض، و ثوبا طويلا من حرير بلاهوهى. و قدما لى فى شركتهم الكشكرى و هو قهوة تصنع من قشور الحبّ، مضافا إليها نكهة القرفة و كبش القرنفل، و إن ذلك عادة يمنية، و هو شراب فى غاية السوء. لم أستطع أن أشرب كل ما قدم لى، و لم أستطع أيضا تدخين تباك الشيشه التى قدمت لى، لأنه كان ثقيلا جدا، و يحرق الحلق. و إن مما يجدر ذكره أن اليهود متمسكون جدا بالمراسم الرسمية.

لا بد لى، و أنا أضع اللمسات الأخيرة على هذه اللوحة الإنسانية التى طالبت أن أشير للذكرى فقط إلى قبطان المرفأ الذى لم يكن لى معه إلا علاقات سطحية، و إلى رئيس الشرطة، عبد الله أغا الذى لم أرد أن نكون لى معه أية علاقة، على الرغم من المبادرات التى خصنى بها و أخيرا عطا بيكه، و هو طبيب عسكرى شاب من إستانبول، كان يتحدث الفرنسية جيدا، و سلما صالحا و كان يتركنى فجأة عند ما يسمع صوت المؤذن، حتى لو كنا فى سياق حديث، ليتوضأ و يصلى فى غرفة مجاورة.

إن الشخصيات المتنوعة التى سلطت الضوء عليها هى جميعا من الأتراك و اليهود و اليونانيين، و كلهم غرباء عن البلد، فى حين أننى جئت للقاء العرب فى الجزيرة العربية. و لم أعرف من العرب معرفة قوية إلّا شخصا واحدا فى جدة، و لكنه عربى خالص، و ممثل لائق لأبناء جنسه، إنه الأنموذج الكامل لأبناء جلدته جميعا. إنه خالد بيكه بن عبد الله بن سعود، آخر زعماء الوهابيين ./ ۱۶۳/ لقد حمل إلى مصر و هو ما يزال فى شباه المبكر بعد

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۱۷۶

موت أبيه، و انهيار عائلته، و نشأ فى القاهرة برعاية محمد على و تحت أنظاره.

ثم عاد بعد فترة إلى الجزيرة العربية، و كان إيّان رحلتى يقيم فى جدة، و يعيش من النفقة التى خصه بها الباب العالى، بعيدا عن الأحداث. محكوما عليه بالعزلة التامة. ترددت عليه بطيبة خاطر، و كنت أجد فى بيته على الدوام شيوخا عربا يأتون إليه من القبائل المجاورة و خصوصا الهواجر ، إن أسعفتنى الذاكرة، و كانوا يرون فيه ابن عبد اللّه و حفيد سعود أعظم زعماء الجزيرة العربية المعاصرة. لقد أجرتنى قصته و أعجبنى شخصه: فهو محبب و مضياف، يجمع بين النبل و الظرف، و تلمس من أحاديثه و فى تصرفاته

أنه رجل يقدم بين جوانحه قلبا كبيرا، و تسيطر عليه مسحة من الحزن الرقيق و النبيل الذى لا يمس أصوله الكريمة، و لا يضيره فيما آل إليه.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۷۷

و على الرغم من أنه نشأ فى الغربة، و أكل من بصل مصر، فإنه لم يكن أقل حنكة من آبناء دينه، و ربما كان المستقبل يخبىء له مآلا عظيما فى حالة الاضطراب التى تسود الشرق. كان وضعه يفرض عليه الحذر و التحفظ فى كل أقواله و أفعاله، و خفت من أن يتعرض للشبهات إن شوهد بصحبتى غالبا، لأنه، و بسبب الظروف الحالية/ ۱۶۴/ كانت السلطات العثمانية ترى أن أرجائى هدفا سياسيا كانت بعيدة كل البعد عنه. مع ذلك كنت أرغب فى جعله يتكلم باستفاضة عن الوهابية، و عن أسرته و عن نفسه؛ إذ من الممكن أن يترصد بناء فعرضت عليه أن نجتمع فى بيت شخص ثالث، إنه بيت السيد دوكيه، حيث لن يسمعنا أحد، و لن يزعجنا أحد، فوافق على ذلك، و دام اللقاء طوال اليوم. و لما كانت السمات الحقيقية للوهابيين، و الدور الذى كان لهم فى الجزيرة العربية غير معروف جيدا فإننى سأوجز فى بضع صفحات المعلومات التى متحتها من مصدر فى غاية الأصالة و الشرف، و سأكمل تلك المعلومات بأخرى لا تقل عن الأولى ثقة و أصالة، و سأبدأ، لكى يتدرج ما سيأتى فى السياق المناسب، ببعض المعلومات عن الأشراف الذين ليس لدينا فى أوروبا فكرة صحيحة عنهم، و الذين يرتبط تاريخهم المعاصر ارتباطا وثيقا بتاريخ الوهابيين.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۷۹

الفصل الثامن الأشراف و الوهابيون

يعد الأشراف السلالة الوحيدة فى العالم الإسلامى التى توارثت النبل كابرا عن كابر؛ فهم يعودون/ ۱۶۵/ بنسبهم إلى الحسن و الحسين، ابنى فاطمة، الابنة الوحيدة للنبى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و هناك على امتداد العالم الإسلامى، حتى أعماق المغرب، عدد ضخم من الأشراف، يدّعون النسب نفسه؛ و لكن أشراف الحجاز عموما، و مكة على الخصوص ينظرون إلى أنفسهم، و ينظر إليهم، على أنهم الأحفاد الحقيقيون للنبى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن نسبهم هو الأكثر أصالة، و الأكثر توثيقا، و لما لم يكن فى الشرق أحوال مدنية فإن أشجار النسب تقوم مقامها، و تحفظ الأنساب بعناية كبيرة لذلكك يولعد الأشراف نسبهم بمستندات موثقة. إنهم مقسمون اليوم إلى فروع متعددة، لا يسمح دخول الغرباء فيها، فيها، و ينتشرون فى كثير من أنحاء الجزيرة العربية، و هم يعترفون بأنهم أقارب، و يعاملون بعضهم بحسب ذلكك فى المناسبات كلها.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۰

و إن كثيرا من هؤلاء الأشراف فقراء جدا و يعيشون على النفقة التى يدفعها إليهم الباب العالي، و لكن ذلكك لا يمنعهم من الاعتزاز بالدم الأصيل الذى يجرى فى عروقهم، و يعدون أنفسهم، على الرغم من فقرهم المدقع، أرفع مقاما من أعظم الباشاوات الأتراك.

يتشكل أشراف مكة طبقتين رئيسيتين: أولئكك الذين يعنون بالآداب و الشريعة و العبادة، و بالتجارة، و أولئكك الذين وقفوا أنفسهم على السلاح و الأمور العامة. يطلق على الأولين اسم: سيد، أما الآخرون فهم الذين يحكرون لقب الشريف. و ينتج الأبناء عادة وضع آبائهم/ ۱۶۶/ و أضيف هنا خصوصية غريبة، و هى أن بنات الأشراف الذين يصلون إلى سدة الحكم محكوم عليهن بألّا يتزوجن. و كان الأشراف فى الماضى يحكمون البلد، وحدهم مستبعدين الطبقات الأخرى. و شهدت حياتهم السياسة تقلبات كثيرة.

و أدوا فى مكة الدور نفسه الذى أداه المماليك فى مصر: فقد احتكروا كل المناصب المدنية و العسكرية، و كانوا يعدون أنفسهم الأجدر دون غيرهم بالسلطة، و يتصارعون طلبها بينهم بالسلاح غالبا، و يجرون معهم إلى خصوماتهم الشعب و البدو المجاورين. و ليس الجياد بمسموح. ينبغي طوعا أو كرها، مناصرة إحدى الأسر المتنافسة، و التعرض لأشد الأخطار، فى فتن أهلية تتجدد على الدوام. كان يراق فيها الدم غالبا، و كان المنهزمون يجلون عن البلد حتى يحدث انقلاب طارئ، يغير وجه الأمور، و يعيدهم إلى مسرح السياسة من جديد.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۱

كان و ما زال لدى أشراف مكة المكرمة عادة أشرت إليها باختصار فيما سبق، و هى تستحق أن أذكّر بها. كان كل الأطفال الذكور للشريف الحاكم يترعون من أمهاتهم، و من لبن العيش بين النساء بعد ثمانية أيام من ولادتهم و يعهد بهم إلى بعض قبائل الصحراء المشهورة بعظم قدرها، ليتلقا بينهم، و حسب عاداتهم؛ و لا يعود هؤلاء الأطفال إلى أسرهم إلا عند ما يبلغون العاشرة أو الثانية عشرة، و غالبا بعد ذلكك/ ۱۶۷/ و لا يظهرون بين الناس للمرة الأولى إلّا على متن الخيول إلى جانب آبائهم، و كأنهم رجال، لا أطفال. و ينتج عن تلكك التربية الرجولية و البطركية أن الأشراف كانوا و ما زالوا متفوقين أيضا، قوة و شجاعة و صفاء قلب و عقل على بقية الناس.

و يحفظ أولئكك الأطفال إبّان حياتهم كلها كثيرا من الود و الاحترام لأسرهم التى نشؤوا فى كنفها، و هم ينادونهم بقولهم: أبى و أمى و أخى، و يخاطبونهم هؤلاء بذلكك أيضا. و هم يفضلونهم دائما على آبائهم الحقيقيين الذين لا يعرفونهم، و لم يروهم أبدا، و لا يعتادون حياة المدينة إلا بصعوبة كبيرة، و كانوا يهربون فى بعض الأحيان ليعودوا من جديد إلى الصفارب التى نشؤوا بينها، و يتزوج كثير منهم من بدويات. إن هذه العادة قديمة فى شبه الجزيرة العربية، تعود إلى ما قبل الإسلام، و يروى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تربى بهذه الطريقة فى قبيلة بنى سعد. و تمتاز هذه الطريقة بأنها تساعد الأشراف منذ نعومة أظافرهم على إتقان لغة البدو و عاداتهم، و توجد بينهم علاقات تدوم طويلا بين الأسر، و كانت فيما مضى تؤمن لمختلف الأطراف فى مكة المكرمة أنصارا شجعانا و مخلصين.

لقد استطاعت بعض أسر الأشراف مع الزمن أن تتفوق على الأسر الأخرى بثرواتها، و عددها، و مناصريها من أهل الصحراء. و كان أقواهم إبّان فترة طويلة آبناء قتادة / ۱۶۸/ الذين تنتمى إليهم أسرة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۲

بركات التى ذاع صيتها فى طول البلاد و عرضها، لأن أمراء مكة المكرمة كانوا خلال عدد من القرون منها. إن هذا التعصب يظل محصورا فى أسرة واحدة على الرغم من أنه ليس وراثيا؛ و لقد كان للشريف على الدوام، و ينبغى أن يكون الأمر كذلكك اليوم، خليفة، و هذا الخليفة إن لم يكن ولده فهو على الأقل من أهله المقربين، و يكون الخليفة عادة من ينتمى إلى الطرف الأقوى، الذى يحدده الرأى العام من بين كل الآخرين. و عند ما يتولى الشريف المختار، زعام الأمور كانتا من كان، فإن السلطان يصادق على تعيينه دون إبطاء، و يلقى من السلطان فى كل عام خلعة ترسل له من إستانبول مع القفاتجي باشى. و قد آل الأمر إلى أن اقتصرت سلطة الباب العالي على

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۳

مكة المكرمة و ملحقاتها، الطائف و ينبع و بعض مدن الحجاز الأخرى، على استلام الخلعة السنوية، و الدعاء للسلطان فى الحرم خلال الصلوات العامة.

لقد كان هناكك، كما هى الحال اليوم، باشا تركى فى جدة، و لكن سلطته كانت اسمية محضة، حتى إن آبا الشريف الأكبر ما قبل الأخير استولى لنفسه على عوائد الجمارك الموجودة فى هذه المدينة (جدة) باسم السلطان و لحسابه. و قد حدث الشيء نفسه للقاضى الذى يتم إرساله سنويا من إستانبول لإقامة العدل، و الذى أصبح يتقاضى أجرا بلا عمل لأن القضايا كلها تعرض على الشريف .

إن حكومة الأشراف/ ۱۶۹/ تتفق فى أشكالها البسيطة مع طبائع الصحراء. فلم يكن هناكك فى أكثر الفترات ازدهارا أى حفلات عامة لتنصيب الأمير الجديد، و يقتصر الأمر على أن يستقبل الأسر الكبيرة التى تزوره، و التى تكون غالبا قد وقفت ضده، بينما تعرف فرقة موسيقية أمام بابه، كما هى العادة فى بلاد إفريقيا، و يدعو له الخطباء فى المساجد. يخاطبه أفراد رعاياه منذ لحظة استلامه للشرافة ب «سعادتكم» و هو لقب احتفظ به الشريف الحاكم حتى اليوم، و يطلقه الناس أيضا على كل الباشاوات؛ و عند ما يخرج الشريف على حصانه، يكون إلى جانبه فارس يحمل مظلة؛ و ليس فى ثيابه ما يميزه فى شيء من بقية زعماء أسر الأشراف، و مجلسه خال من كل علامات الأبهة و الفخامة، و لم يكن هناكك مراسم أو شكليات تفصله عن الشعب. و كان البدو، و ما زالوا، يدخلون إلى قصره كما يدخلون إلى خيمة أى شيخ عادى من شيوخهم، و يخاطبونه فى أمورهم بكل حرية، و بخفوية لا نكاد نجدها إلا عند سكان الصحراء. و إن الشريف الأكبر أمير مكة المكرمة ليس فى حقيقة الأمر إلا شيخ قبيلة أقوى من الشيوخ الآخرين، و إن سلطته، مع أنها أكثر اتساعا من سلطتهم، لها الصفة نفسها، و تقوم على الأسس نفسها، و تنبثق عن المبادىء.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۴

نفسها، و الشريف عند شعبه ليس أقل قدرا من السلطان نفسه، ليس باعتباره أميرا، و إنما باعتباره شريفا؛ أى سليلا مباشرا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و إن سلطته مع ذلكك، ليست سلطة تيوقراطية كما/ ۱۷۰/ هو شائع فى أوروبا؛ إنها سلطة دنيوية خالصة، تنتهى عند باب المسجد، و ليس لها أى تأثير فى مجال العقيدة و العادة .

و لا تقوم هذه الحكومة بالفبع على أى دستور؛ لأن له أساسا أكثر صلابة؛ فهى تصدر عن الشعب، و باعتبار أنها نشأت على هذه الأرض فإنها وطنية، و متناسبة كل التناسب مع طباع البلد و آراء أهلها، و لهذا استمرت قرونا طويلة. لقد كانت بالتأكيد سببا فى ظهور كثير من الدسائس، و كثير من التجاوزات؛ و لكن أى حكومة يمكن القول: إنها تحفو من كل ذلكك؟ كان من الندر أن تترك الأسر المنافسة للأسرة الحاكمة الأمير الجديد يعلى منصبه دون مناصبه العداء؛ بل إن أقارب المقربين يتحدون فى بعض الأحيان مع أولئكك المنافسين، و يقومون جميعا، بعد تنصيب الشريف الجديد، بتشكيل معارضة تناسب مع قوتهم. و لكن المهزومين يكتفون فى غالب الأحيان بالعيش منعزلين، يبدون استياءهم من كل شيء، على هواهم، دون أن يتعرضوا لأى اضطهاد.

كانت الأطراف كلها تخوض هذه الحروب الأهلية، و هى تحافظ على قدر كبير من الإنسانية و الاستقامة، كما هى الحال فى كل حروب الصحراء، و لم يكن ينبع النصر أى مظهر من مظاهر الانتقام.

إن طباع العرب رضية، و يتجلى كرمهم الفطرى فى كل شؤونهم العامة و الخاصة. و يمكن لنا الافتراض أن الأشراف من ذوى الحظوة، و الذين يتقلدون المناصب لم يكونوا على الدوام يحسنون التصرف بخصصاتهم المالية، و أن الأهواء الشخصية كانت تؤدى دورا/ ۱۷۱/ فى تصريف الأمور.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۵

و لكن الأمور بهذا المنظور لم تكن تتم بشكل أكثر سوءا مما كانت عليه فى الأنظمة الملكية الأوروبية فى العصر نفسه، ناهيكك عن الملكيات الأخرى.

لقد فقد ذوو بركات نفوذهم فى القرن الثامن عشر الميلادى، و وجدوا أنفسهم بعد نضال طويل مجبرين على التخلى عن الشرافة لذوى زيد الدين لم يتخلوا عنها حتى اليوم. و قد هاجر بعض من ذوى بركات إلى اليمن، و تفرق الآخرون فى أودية مختلفة من الحجاز.

تولى مساعد الشرافة لمدة عشرين عاما من عام ۱۷۵۰ م إلى عام ۱۷۷۰ م، و مساعد هو جد آخر شريف، و أول أو واحد من أوائل أمراء السلالة الجديدة، و كان عليه أن يناضل على الدوام، لمواجهة الاضطرابات التى يثيرها الأشراف الذين أكسبهم الاضطرابات السابقة طبعا متمردا، و لكنه لم يتجح إلّا قيما ندر بالنقب عليهم، و آنت الشرافة بعد موته، إلى حسين الذى كان أحد أقربائه، و لكنه كان فى كل مناسبة أحد أشد منافريه. و قد قتل حسين فى أثناء حرب ضد أحد آبناء مساعد و اسمه سرور الذى خلفه فى الشرافة عام ۱۷۷۳ م. يمكن مقارنة ما قام به سرور فى الحجاز بما قام به لويس

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۶

الحادى عشر Louis XI أو ريشيليو Richelieu فى فرنسا. لقد حطم سرور صلافة الأشراف، و فى بعض الأحيان رؤوسهم، و جعلهم يعيشون كبقية الناس. و كان مفا جزأهم على التمرد الدائم و العنف، أنهم كانوا متأكدين من أنهم لن يعاقبوا عليه، لقد كانوا يتعرون بسبب ضعف بعض الأمراء، أنهم فوق القوانين، و أصبح تهورهم بلا حدود. لقد أوجدوا أنفسهم/ ۱۷۲/ موارد مادية جديدة، لم تكن مألوفة فى مكة المكرمة، و ادعوا بغير وجه حق أن لهم حقوقا مالفا فيها، مما شكل عبئا على السكان؛ ناهيكك عن أنهم كانوا يبتزون منهم أموالا طائلة، و كذلكك عن الحجاج الأجانب، و لم يكن لديهم أى رادع يمنعهم من سلب القوافل؛ كما كان البلاء الأوروبيون يسلبون التجار و المسافرين فى القرون الوسطى. كانوا شأنهم شأن بلاء أوروبا، يمتلكون فى منازلهم التى تحولت إلى قلاع، خامات عسكرية مؤلفة فى معظمها من العبيد السود المدججين بالسلاح، يدعمهم البدو المخلصون لأسرتهم. لقد قضى سرور على داير الفساد المستشرى، الذى يخالف العدالة، و يعارض المساواة. و وقف الأشراف فى وجهه بالقوة، و لكنهم هزموا هذه المرة: فقتل أشراف كثيرون فى الحرب، بينما تم إعدام آخرين، و جلا الآخرون، و حل النظام و السكينة فى المدينة، بعد خروجهم منها. لقد نجح سرور فى مشروعه الصعب بفضل جبرية طبعه، و مساعدة سواد الناس من أهل مكة الذين كانوا إبّان فترة طويلة مضطهدين بنظام الأشراف الإقطاعى الذى لا يقف عند حد .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۷

لقد ظل سرور حتى نهاية حياته، يتمتع بشعبية يستحقها، بفضل ما كان يتمتع به من مزايا انفرد بها: كان فى غاية الاعتدال، و كان يعيش ببساطة شأنه شأن أى إنسان عادى. كان من الشجعان المجربين، و كان كريما يعطى بلا حدود، و كان يعدل بين الناس دون/ ۱۷۳/ تمييز، و بحكمة صارت مضرب الأمثال. و مع أنه كان قاسيا فى أفعاله خلال فترة حكمه، فإنه كان كريما حتى مع أعدائه الشخصيين: يقال إنه اكتشف مرة مؤامرة لاغتياله فى أثناء طوافه الليلى فى شوارع مكة المكرمة؛ فاكتفى بنفى المتآمرين. لقد نظم النواحى المالية، و ألغى كل الضرائب العشوائية. و كان يمول من حسابه الخاص حامية كثيرة العدد مؤلفة من البدو و العبيد الأقارقة أو الأحباش الذين كانوا يعملون باستمرار فى خدمته. و أقصى اليهود عن جدة بعد أن أصبحوا مكروهين بسبب غشهم و خداعهم؛ و لقد خلف موته حزنا شاملا؛ إذ شيعته مكة المكرمة كلها إلى مثواه الأخير، و ما زال أهلها يجلّون ذكراه، و كأنه أحد أولياء اللّه الصالحين .

ظل سرور فى الحكم أربع عشرة سنة، و مع أنه خلف ولدين؛ كلاهما يصلح لخلافته، كان أحدهما، عبد اللّه، شجاعا حتى التهور، فإن أحد أعمامه عبد المعين استولى على السلطة، و لكنه فقدها فى غضون بضعة أيام، و استولى عليها غالب، و هو أخ آخر لسرور، أصغر من عبد المعين، كان منذ زمن طويل يتمتع بشعبية كبيرة بسبب ما عرف عنه من شجاعة، و قدرة على الإقناع، و أساليب مغرية. كان ضخما، و كان له على غير عادة العرب شهية متناسبة مع قامته: فقد كان يشرب كل صباح فى قطوره دلوا من الحليب/ ۱۷۴/ و لم يكن

يتم بالرهبة أمام خروف كامل. كان ذا صوت جهوري، و بارعا في ألعاب القوة الجسدية، حتى إنه كان يقذف الجريدة بمهارة و قوة قلّ نظيرهما.

و كان يعد من ذوي المعرفة، و له معرفة بالطب، و لكن ذلك كله لم يرفع من شأنه لدى البدو. و قد أكد لي الأشخاص الذين عرفوه، أنهم لم يروا أبدا هيئة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۸

تتضح بالذكاء، و الروحية كهيئته. أوتي قدرا متساويا من الفطنة و الفصاحة، و قد كان من الصعوبة بمكان مقاومته، عند ما كانت مصلحته تقتضي أن يمارس الإغراء.

لقد كان أقل الأشراف- الأمراء الذين حكموا الحجاز حتى اليوم خصوما، و لا شبه له في ذلكه، و كان أكثرهم رسوخا و حزما، و جنى هاتنا ثمار الإدارة البارعة و الجادة التي اتبعها أخوه سرور.و لقد كان أكثر حظا من سابقيه إذ لم يواجه نزاعات حادة مع الأشراف إبّان العشرين سنة التي حكم خلالها، و استقل تماما عن الباب العالي؛ فقد استولى، كما ذكرت سابقا، على واردات جمارك جدة التي كان ينبغي أن يقتسمها مع السلطان، أما واردات جمارك ينبع فكانت حصته وحده، و كان يرسل إلى تلك المدينة لجمع تلك الأموال حاكما يخلع عليه لقبا طنانا هو: الوزير.

و كان القسم الأعظم من موارده يأتي من هذين المصدرين. و كان، ناهيك عن ذلك، يفرض ضريبة على البن المجلوبة من المناطق الداخلية إلى جدة، ۱۷۵/ و على المواشي أيضا. و لم يكن يفرض على سكان المدن التي يسيطر عليها أي ضريبة أخرى، لا على أملاكهم، و لا على أنفسهم، و إن سورية و مصر لم تتمتعا بمثل هذا الامتياز الفسرائي. أما الحجاج الفرس الشيعة فقد كانوا يخضعون لضريبة رأس كانت بالقطع تذهب إلى خزينة الشريف، غالبه، زد على ذلك الهدايا القيمة التي تقدم له، ناهيك عن أن الهدايا التي كانت مخصصة للمساجد لم تكن تصل إلى وجهتها إلّا بعد أن يأخذ منها جزءا كبيرا، و كانت المبالغ المرسلة من إستانبول لمكة و المسجد الحرام يظل معظمها تحت تصرفه.

كان سرور يعمل في التجارة، و كان يتجر كثيرا مع اليمن، أنوا غالب فقد كان له تجارة أكبر أيضا مع بلاد مختلفة، و خصوصا مع بومباي، كان يكدّس في مخازنه، باعتباره تاجرا و مالكا، من البضائع و المؤن ما يكفي لرفع الأسعار، فيحقق أرباحا ضخمة، دون أن يرى في ذلك ضررا من الاحتكار، شأنه في ذلك شأن باشا مصر.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۸۹

كان غالب بخيلا لا يفكر إلّا في زيادة ثروته؛ و كانت كل الوسائل تبدو له موائمة لبلوغ ذلك، فقد كان الجانحون، حتى المجرمون يشترون حياتهم بمبالغ كبيرة يدفعونها له نقدا؛ و كان يفرض على أبسط المخالفات غرامات كبيرة، و إذا كانت الدماء، لم ترق خلال فترة حكمه، فإنما لا تستطيع قول الشيء نفسه/ ۱۷۶/ عن الذهب الذي كان يتدفق إلى خزانته من كل الجهات و بكل الوسائل.

و قد سمعت الناس يقدرون عوائده ب ۶ أو ۷ ملايين فرنك، و لم يكن ينفق منها على بيته إلّا خمس مئة ألف. لقد كان يمتلك جيشا دائما يبلغ عدده أربع أو خمس مئة من العبيد الذين يتم اختيارهم من بين عبيده أنفسهم، و من البدو الذين يتم تطويع عاليتهم في نجد، و في اليمن و في جبال عسير. و كان يقود هذا الجيش عدد من الأشراف، و يعسكر في مكة المكرمة، و في جدة، و في مدن الحجاز الأخرى.

و كان هذا العدد يزداد في أيام الحرب، بقدوم مشايخ الصحراء الذين كان عليهم و على قبائلهم أداء الخدمة العسكرية لأمير مكة المكرمة، كما كان يفعل ذلك المقطوعون Vassaux في القرون الوسطى تجاه أسيادهم الإقطاعيين. لم يكن لهم مرتبات محددة، و لكن الأمير كان يغدقهم في خدمته بتقديم الهدايا، و كان يترك لهم نصيبا من غنائم الحرب. و كان يملك الطريقة نفسها مع الأشراف الآخرين الذين ينضمون إليه، و الذين كان عددهم كبيرا، و قد كان بذلك لا يرهق ميزانيته.

لقد زجّ غالب نفسه في حرب الوهابيين؛ و انتصى تحت لوائه في بعض الأحيان ما يقارب عشرة آلاف رجل؛ و هي قوة ضخمة بالنسبة إلى البلد. كان جنوده المئة مسلحين يبتادى القبلة Mosquets، و بالخناجر؛ أما القرسان

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۰

فقد كانوا يتقلدون الرماح؛ و لم يكن هناك أي نظام تتبعه تلك القوات التي يتم تشكيلها بطريقة ارتجالية. و عند ما تنتهي الحملة العسكرية يأوي كل واحد/ ۱۷۷/ إلى خيمته، و يظل هناك حتى حصول حملة جديدة. من المفترض أن للشريف- الأمير سلطة على كل القبائل المنتشرة في صحراء الحجاز؛ و لكنه لا يمارس على تلك القبائل إلا سلطة أدبية، مع أنها تعد خاضعة لسلطته، و ليس لذلك أي قانون محدد. و لما كان بين القبائل منافسات مستمرة، فإن الشريف- الأمير كان يستخدم هذا الأمر للحفاظ على سلطته، مستفيدا من خلافاتهم، و داعما بالتناوب، و حسب المصلحة في تلك الفترة، هذه القبيلة أو تلك.

لقد كانت سياسة الأشراف على الدوام تقوم على مداهنة البدو لكسب ودهم؛ إنه الحكم البطريركي بالمعنى الحقيقي للكلمة، كما كان سائدا في المجتمعات البدائية.

لم يخرج غالب عن هذا التقليد، و اتخذ من هذه السياسة أساسا لحكمه.

لقد نشأ بين البدو، شأنه شأن أبناء الأشراف كلهم، و كان يبدي اهتماما فائقا بأسرته التي نشأ عندها، و كان يعاملهم على رؤوس الأشهاد، باحترام فائق.

و كان البدو جميعا، كانوا من كانوا، يجدون منه استقبالا لطيفا؛ و كانوا ينزلون في قصره كما ينزلون في الفندق أو الخان، يسكنون، و يأكلون، و يعيشون على هواهم، و عند ما يعزمون على مغادرة منزله، كان يأمر بأن تملأ غرارتهم بالمؤن اللازمة للعودة/ ۱۷۸/ كان حكم غالب معتدلا و شموليا، و لم تكن له قسوة سرور، و لكنه لم يكن يدانيه في إقامة العدل. لقد كان غالب يطبعه معتدلا، و كان يتجاوز بسهولة عن الأخطاء، و لم يكن يضطهد أحدا، حتى أعدائه المعلنين الذين كانوا يقيمون بسلام في مكة المكرمة دون أن يزعجهم بشيء. و لم يكن يتورع عن ابتزاز أموال أهل مكة، إلّا أنه كان يحفظ عليهم أنفسهم التي لم تكن أمرا هينا، و كانت إهانته تنصب على الجماعة، و نادرا على الأفراد. كانت عامة الشعب تتمتع بحرية نصل في غالب الأحيان حد الفوضى، و حتى إن المشاجرات بالعصي بين الأحياء كانت تستمر عدة أسابيع دون أن تتدخل الشرطة. لقد كان غالب، على الرغم مما يقوم به من ابتزاز،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۱

محبوبا من أولئك الذين لم يكن لديهم ما يخسرونه، و قد أسف عليه الناس كثيرا.

لقد تولى السلطة في ۱۷۸۶ م و احتفظ بها هاتنا ما يقارب خمسة عشر عاما، و كان يمكن أن يحتفظ بها طوال حياته لو لم تقع أحداث غير متوقعة وضعت حدا لحياته السياسية، و أفسدت عليه آخر أيامه في السلطة. أقصد بذلك ظهور الوهابيين و دخولهم الحجاز.

يرجع ظهور الوهابية إلى منتصف القرن/ ۱۷۹/ الماضي (الثامن عشر)، و مؤسسها هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ و هو عربي من نجد،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۲

رجل علم جليل، تجول في أنحاء الإمبراطورية المختلفة ، و حزن لما رآه من فساد عقيدة المسلمين، و لما لاحظه من مفاسد أدرجت ضمن العبادة، و خصوصا لدى الأتراك. و قرر حينئذ أن يقوم بإصلاح ديني عرض مسوغاته في عدد من كتبه. لقد اتخذ من القرآن الكريم وحده أساسا لإصلاحاته بغض النظر عن كل الشروح، و كل البدع التي نشوه في نظره صفاء الفطرة الأولى. لم يدأ يدعو إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأصلية، و إلى الإيمان بالوحدة المطلقة لله عز و جل. و كان انطلاقا من ذلك يحرم أن ينظر إلى النبي صلّى الله عليه و سلّم بأي صفة أخرى عدا أنه إنسان، و أنه لا- ينبغي تقديسه و لا-التوسل إليه مباشرة، و أبطل عادة الأولياء، التي اكتسبت أهمية كبرى في كل الأديان؛ و أعلن أن الزكاة و العدل واجبان ضروريان شأنهما شأن الصلاة، و نهى عن اتباع البدع التي رآها سائدة لدى العثمانيين، و أوصى بالورع و التقشف مستخدما في الدعوة القوة التي منحه إياها سخطه على الأوضاع، و قد بلغ به التشدد أنه حزم على أتباعه التدخين.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۳

و يمكن مقارنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالمصلحين الذين ظهروا في أوروبا في القرنين الخامس عشر و السادس عشر لقد كان يجمع بين صفات/ ۱۸۰/ كالفن Calvin و سافونارولا Savonarola.

إن محمد بن عبد الوهاب لم يؤسس، مهما قال عنه أعداؤه، لا مذهبا جديدا و لا عبادة جديدة، و لكنه دعا إلى أن يقوم ذلكك كله على القرآن، كما كان لوثر Luther و هوس Huss يدعوان إلى الاعتماد على الكتاب المقدس. و ليس بمستغرب أن دعوته إلى الأصالة لم تعجب الأتراك الذين كانوا يرقونه، و كانوا لا يتوان يتبعون استراتيجية تشويه مذهبه لكي يتمكنوا من الاقتراء عليه.

و لما استفتى باشا مصر علماءها رأيهم في الدعوة الوهابية أقروا أنها دعوة سنية، و أضافوا: أنه إذا كان ما عرض عليهم هو حقيقة الوهابية فهم أنفسهم وهابيون و مهما يكن من أمر فإن المصلح العربي، لم يلق إلا نجاحا بسيطا في دعوته إبّان حياته؛ لأن الشرق أكثر تمردا من الغرب أيضا في وجه الإصلاحات. و لما أنجز أسفاره، و عزم على العودة إلى وطنه، استقر مع أسرته

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۴

في إحدى مدن نجد المسماة الدرعية التي أصبحت عاصمة الإصلاح في الإسلام. و كان أهم شخصيات هذه المدينة حينئذ هو محمد بن سعود الذي تزوج ابنة الشيخ و اتبع دعوته .

و كان محمد بن سعود الذي اتخذ لقب الأمير، أول أتباع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، و كان مؤسس الإصلاح السياسي، بينما كان والد زوجته مؤسس الإصلاح الديني. و قد خلف محمدا بن سعود على الإمارة لمتابعة الرسالة، ابنه عبد العزيز الذي اغتيل في عام ۱۸۰۳ م، ثم خلفه سعود بن عبد العزيز و حفيد محمد بن سعود الذي شهدت في عهده الدعوة الوهابية التي اتبعها جده انتشارا واسعا.

إن السلطة الدنيوية في الإسلام، مرتبطة بإحكام بالسلطة الروحية، حتى إنه/ ۱۸۱/ لا يمكن الفصل بينهما. فليس القرآن كتابا دينيا فقط، بل هو أيضا شرعة سياسية، و مدنية تنظم علاقات البشر كلهم، و تستخدم أساسا للمجتمع، و لأيّاته كلها: فالعدالة، و القصاص، و الزواج، و الإرث تستمد كلها أحكامها

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۵

من القرآن، و يكاد كل شيء، يكون محددا بالمبادئ، الإلهية. و لا تستطيع تعديل أي مادة دون أن تهدم بذلكك الصرح كله.

لقد كان الوهابيون، و سعود على رأسهم، يأملون، و هم يدعون إلى العودة إلى المفهوم الأصلي للإسلام، و إلى جوهر الشريعة الإسلامية، كانوا يأملون، و قد حققوا ذلكك، بأن يقيموا في الجزيرة العربية دولة تتركك لكل قبيلة حرية حركتها، و حياتها الفردية، و تتوحد جميعا تحت سلطة على الشريعة مشتركة مصدرها القرآن؛ أي الذات الإلهية نفسها؛ تتنقل من القوضى إلى النظام، و ينبغي على الفرد أن ينضوي تحت لواء المصلحة العامة. أما الخصومات الخاصة التي كان حلها متروكا للمصادمات الدموية الناشئة عن قتال يتجدد باستمرار، فقد أصبحت اليوم تعرض على محكمة عليا، ليس لها أي مصلحة في القضايا المتنازع عليها، و كانت كل أوامر الله عز و جل، عبادة الله، و الله وحده، و الزكاة، و صرامة الطباع، و بساطة الثياب، كل ذلكك كان يطبق دون أي تهاون.

كان هدف كبير من البدو، يعيشون في جهل مطبق بأبسط المفاهيم الأولية/ ۱۸۲/ للشريعة الإسلامية، مع أنهم ولدوا قريبين كل القرب من مهد النبي محمد صلّى الله عليه و سلّم، و كانت عبادتهم تكاد تقتصر على التكرار الآلي و الدوري للصيغة التي تلخص شريعة الإسلام «لا- إله إلا الله محمد رسول الله». و كانوا يجهلون كل شيء غيرها. أما أولئك الذين كانوا يعرفون أكثر من ذلكك بقليل، فإنهم لم يكونوا يطبقون أي شعائر دينية؛ فإن تصحتهم بالوضوء، أجابوا أنه لم يعد لديهم ماء للقيام بذلكك، و إن حدثتهم عن وجوب صيام رمضان، فإنهم يعفون أنفسهم من ذلكك قائلين: إنه ليس من الضروري فعل ذلكك، لأنهم يصومون طوال السنة. و لم يكونوا أكثر حساسة للصلاة. و إن قلت لهم إن الله عز و جل قد أمر بها يجيبون: «إننا لم نسمع ذلكك» و إن أضفت قائلا: إن أوامر الله عز و جل محفوظة في القرآن الكريم، ردّوا عليكه بالقول: إنهم لا يحسنون القراءة. إذا لقد كان شأن دين أكثر الناس جهلا، شأن دين أولئكك الذين هم أكثر اطلاعا؛ إذ يقتصر على التأليه الغامض دون عقائد و لا عبادات. بل إن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۶

عددا كبيرا منهم، لم يكن يمتلك ما يكفي من الوعي؛ فكان يقضي حياته في شرك عميم .

و ما زال في الجزيرة العربية حتى اليوم، بعض من يجاهرون بكفرهم، و لم أعرف السبب الذي يدعو الناس هنا إلى تسميتهم بالماسونيين -Francs - Maons.

تقدم الوهابية للبدو مفاهيم أكثر صحة عن الألوهية، و عن مصير الإنسان على هذه الأرض، و عن واجبات الإنسان تجاه الإنسان. لقد فتحت أذهانهم على أفكار أكثر نبلا، و قلوبهم على خلق أكثر سموا؛ و علمتهم/ ۱۸۳/ احترام ملكية الآخر، و أساءت عادة السرقة، فأصبحت الصحراء أكثر أمانا من أكثر المدن حراسة، لقد حاربت التصعف في الطلاق، و حدّت من عادة الثأر، إن لم تستطع القضاء عليها تماما، و قد كان الثأر هو القانون العام لدى البدو، يتوارثون العداوة بسببه كابرا عن كابر. و أبطلت بعض العادات القريبة التي تشبع بين بعض القبائل، و التي تخالف الشريعة السماوية، بقدر ما تخالف القوانين الإنسانية [...] و لكن كل ذلكك تواري تماما بفضل الدعوة الوهابية.

لقد صنّف سعود تعليم العرب كتابا في العقيدة كان يدرّس في المدارس ، و يتضح في كل سطر من سطوره بروحانية خالصة، و بسمو في

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۷

المشاعر يختلف كل الاختلاف عن المادية الفظة التي ينغمس الأتراك فيها. إن ما يميز الوهابية، و يوضح مبادئها الحقيقية كما يبدو ذلكك في الكتب الأساسية التي نشرتها، يقوم على عدم الاهتمام بالمظاهر الخارجية، و نبذ الممارسات الخرافية كلها. و قد كان النبي صلّى الله عليه و سلّم نفسه قد أحس بخطر الخرافات على شعب يمتلكك مخيلة خصبة، و بارع في/ ۱۸۴/ بث الحياة في كل شيء؛ لذلكك حزم عليهم تحريما قاطعا كل أنواع الصور، خوفا من أن تكون بابا يمرون منه إلى الشرك. و لم يأت الوهابيون في هذا المجال، و في كل المجالات الأخرى بجديد إلّا أنهم التزموا بأفكار النبي صلّى الله عليه و سلّم و توجيهاته الجلية؛ و لهذا السبب كانوا يهدمون القباب المقامة على أضرحة الأولياء بحماسة فائقة، و يقولون: إن القبة هي من ميزات المعابدة و إن تقديس أي إنسان، مهما

كان قدره و كراماته، يوقع في المحرمات، و القدسية ميزة انفرد بها الله تعالى وحده.

كان سعود يسكن الدرعية مع عائلته الكبيرة و المتماسكة، و كان من هناك يحكم القبائل الخاضعة لسلطته. لقد كانت سلطته تشبه بكثير من الاعتبارات سلطة الشريف- الأمير في مكة المكرمة إلاّ أنها كانت سواء في جانبها الدنيوي أم الروحي، أكثر متانة و حزما و مهابة. كان يهى الطعام، ذا صوت رخيم مما جعل العرب يقولون إن كلماته كلها تصل إلى القلب. كان متواضعا مع سذهبه، يطبق كل مبادئه، و كان هو و عائلته و أتباعه يلبسون عباءات بسيطة من الصوف لا يدخل في حياتكها أي خيط حرير، كان مثالا يحتذى في إيثاء الفضائل، و لم يكن يسمح لأي امرأة من أسرته أن تلبس أي قطعة من حلي، مهما صغرت، و كان أتباعه يفعلون مثل ذلك التزاما/ ۲۸۵/ بنص القرآن الكريم . و كان في كل مساء يقيم الصلاة في أهل بيته، كما تفعل كثير من العائلات البروتستانتية في أوروبا. و كانت الخيل أعظم متعة يرفح بها عن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۸

نفسه؛ فقد كان يملكك ألفي رأس من الخيل الأصيلة النادرة الأنساب في نجد، و كان ثمن بعضها باعطاءا شأن تلك الفرس التي دفع ثمنها ما يقارب ۱۵ ألف فرنك، و كان لديه أيضا كثير من الإبل النجبة التي تتمتع بسرعة عجيبة .

و كان من اليسير على كل الناس أن يدخلوا عليه، و كان بيته على الدوام يعج بالشيوخ، و البدو العاديين، الذين يأتون إليه يستشيرونه في أمورهم، فيأكلون كما لو أنهم في بيوتهم، و كان الجميع، حتى أفقرهم حالا، يحدثونه بحرية لا تتجاوز حدود اللياقة، و يحيونه باسمه، و يأخذون يده، و يطلقون عليه لقب «أبو شوارب »، لأن له شاربين كبيرين. كان لطيفا في تصرفاته، و يرغب في أن يظل الناس جالسين عند ما يظهر إليهم. و كان متأنيا في النصح، ماهرا و حازما في تصريف الأمور، و كان يقيم العدل بين الناس بتجرد و موضوعية، لا يعرف الانحياز إليهما سبيلا. و مع ذلك فإنه نادرا ما كان يصدر حكما بالإعدام. و كان هناك عقوبة يختشاها المجرمون أكثر من الموت و هي أن يأمر الزعيم الوهابي بحلق لحاهم.

كان، و هو الصادق الوفي بوعده، يمقت الكذب، و يأمر في بعض الأحيان بجلد الكذابين؛ و لكنه كان يرغب/ ۱۸۶/ في أن يبادر الحاضرون إلى تهدئة روحه عند ما يأخذه الغضب، و كان يشكر ذلك لمن يقوم به. كان فصيحا و متمكنا من التراث الإسلامي، شأنه شأن صفوة العلماء، و يحب الخوض في نقاشات دينية، و يدافع عن رأيه بحماسة، و يسمح لخصومه بالقيام بالشيء نفسه، و كان عند ما ينتهي النقاش يختمه بجملة جوهرية «الله أعلم» و يعلم الحاضرون عادة أن هذه الجملة إيذان بانهاء الحوار [...].

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۱۹۹

و لم يتردد سعود عن الاعتراف في نهاية حكمه أن سوء الحظ الذي أصاب الوهابيين كان بسبب أخطائه . كان سعود مصدر السلطات كلها؛ إذ جمعها في يده، و لم يكن في زمن السلم يستشير إلا صفوة العلماء الذين يتمون حصرا إلى أسرة مؤسس المذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب. كان سعود يجن المشايخ الكبار، و كان لهم على الأخرين سلطة لم يكونوا أبدا يسرفون في استخدامها؛ لأن سعودا كان حافظا جدا، و يعرف حق المعرفة طبيعة العرب فكان يداريهم، و لا يحاول حكمهم بطريقة استبدادية، لأن أي استبداد يثيرهم، و قد كان تجنيهم ذلك الثمن الذي يدفعه سعود لضمان سلطته عليهم. كان يرسل إلى القبائل الخاضعة لسلطته قاضيا يدفع هو أجره، و كان مكلفا بإقامة العدل باسم سعود، و يشدد عليه في الوصاة بألا يقبل أي أموال. و لا زالت تراعة أولئك القضاة مضرب المثل في الجزيرة العربية. لقد كان/ ۱۸۷/ القانون الوحيد المتبع هو القرآن الذي يطبق بحذافيره، بلا تأويل و لا تعسف.

و يمكن الاعتراض على أحكام القاضي كلها لدى الأمير، و كذلك على كل أعمال الشيوخ؛ مما كان يسهم في جعل هؤلاء، و أولئك يستقيمون في أداء واجباتهم، و في التزام القانون.

كان سعود أيضا يرسل عمّالا لجمع الزكاة المخصصة ليت المال، و تألف من العشور التي تدفع عينا، و من الغرامات، و من خمس الغنائم، و من ۲,۵٪ من رأسمال التجار الذين ينبغي عليهم، كما كان الحال في روما القديمة، أن يوضحوا مقدارها مقسمين على صحة ما يقولون. أما القبائل المتمردة، فقد كانت تعاقب بالنهب، و كانت الأموال تذهب لزيادة الموارد العامة ليت المال .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۰۰

كانت هذه الضرائب المختلفة تبدو لبدو كثيرة، و هم الذين اعتادوا ألّا يدفعوا أي ضرائب، و لكنهم مع ذلك كانوا يدفعونها لأنهم يرونها تستخدم بإخلاص لمصلحة الجميع. لقد كانوا يدفعون فضلا عن ذلك ضريبة خاصة مخصصة بكاملها لأعمال الخير، حسب ما نظم النبي صلّى الله عليه و سلّم مقاديرها، و تسمى تلك الضريبة الزكاة، و لها طبيعة دينية، و لا يجوز أحد من الوهابيين أن يمتنع عن أدائها أو ينكثر منها، و إلّا يعد من أشرار المسلمين.

لم يقبل البدو بسهولة أداء واجب الخدمة العسكرية التي فرضت عليهم أعباء ثقيلة، و أجبرتهم على تنقلات كثيرة. لقد كانت الخدمة العسكرية/ ۱۸۸/ تجنيدا حقيقيا، ما عدا الاقتراع الذي يطبق عند ما لا يكون هناك استنفار عام؛ إذ كان بالإمكان تقديم بديل عن المطلوب للخدمة. لقد كان يترك للجود قسم كبير من الغنائم التي يكسبونها من الأعداء، و التي كانت تقسم حسب قانون يطبق بدقة. و كانت تلك الغنائم في غالب الأحيان كثيرة لأن الحروب لم تكن في واقع الأمر إلّا غزوات ضخمة تطال أكثر القبائل قطعانا. كان سعود هو الذي يخطط لتلك الغزوات، و يقودها هو أو أبناؤه بكفاءة نادرة، و كانت في غالب الأحيان غزوات ظافرة [...].

لقد كان هناك عدد كبير من القوات يحارب على ظهور الهجن، و قلة على الخيل، و الكثرة الكاثرة مشيا على الأقدام. و كان كل واحد من أولئك يعود بعد الحرب إلى بيته، و لا يبقى على أهبة الاستعداد بصفة قوات نظامية إلّا حراس شخصيون يتكونون من أشجع الجنود، و أكثرهم حنكة، و الذين كان سعود يستبقيهم لديه في الدرعية.

كانت القبائل الحضرية في نجد هي المبادرة في الخضوع للسلطة الدينية السياسية لعبد العزيز و لابنه سعود الذي وصل بغزواته عبر اليمن إلى مسقط، و قاد جيشه الظافر حتى أبواب/ ۱۸۹/ البصرة و بغداد و حلب، و حتى أبواب دمشق، و لكنه لم يكن أبدا يفكر في مدّ نفوذه خارج حدود الجزيرة العربية .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۰۱

أمّا غزواته ناحية الفرات و لبنان (كذا) و ربما يقصد سورية) فلم تكن إلّا غارات سريعة يقوم بها للحصول على الغنائم لزيادة مكاسبه و مكاسب جنوده. و إن تلك البلاد، أعني العراق و سورية، تابعة تبعية مباشرة للأتراك الذين يعدهم هراطقة، و إن في تلك البلاد كل الأسباب التي تدعوه لكراهيتها، و كل ما فيها يجعل غاراته عليها مسوغة. لقد انتهى الأمر بباشا بغداد إلى التأثر بتلك الغارات، و سير في عام ۱۷۷۲ م لمحاربة الوهابيين المحتلين حملة لم تحرز أي نجاح، و لم ترد على أنها دعمت الازدراء و البغضاء اللذين يكنهما الوهابيون للعثمانيين.

أما باشا دمشق فقد كان يعتده نهيئة حملة لإبادتهم، و لكن تلك الحملة ظلت فكرة، و لم تخرج إلى حيز التنفيذ. و قد كان الوهابيون أقل حظا في منطقة الخليج العربي حيث كان لهم ميناء، اسمه رأس الخيمة، دمره الأسطول البريطاني في عام ۱۸۰۹ م لمعاقبة السكان على عدد من أعمال القرصنة التي تعرضت لها في الخليج سفن التجارة البريطانية .

و كان سعود حينئذ قد أبطل الدعاء للسلطان العثماني على المنابر في الصلوات العامة، مما يعني أنه أعلن الثورة الذي يعادل إعلان الحرب.

كان أكثر جيران سعود شعورا بالتهديد هو الشريف غالب بلا ريب الذي كان حينئذ يحكم الحجاز، و قد كانت الأراضي التي تخضع لسلطته تتصل

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۰۲

بأراضي/ ۱۹۰/ الأمير الجديد. و قد قام هذا الأخير بعدد من التوسعات، و كان يخشى من توسعات أكثر خطورة في المستقبل.

لقد كان غالب المذعور، لا يكف عن تشويه صورة الوهابيين لدى الباب العالي، و عن إثارته ضدهم، أملا في أن يساعده الباب العالي في توجيه ضربات حاسمة لهم. و لئا لم يستطع التغلب على حذره حمل السلاح منذ عام ۱۷۹۳ م، و مع أنه اعتمد على موارده الخاصة، فإنه حقق بعض الانتصارات في نجد.

و استمرت الخصومة عدة سنوات بين الجارين، و كانت الحظوظ إبّان ذلك متساوية بينهما؛ و لكن، و في النهاية، و على الرغم من حنكة غالب العسكرية، كان الانتصار من نصيب الوهابيين: لقد دخلوا الحجاز بقوة كبيرة، و استولوا على الطائف في عام ۱۸۰۱ م و على مكة المكرمة في عام ۱۸۰۳ م، و كان انضباطهم مضرب المثل في المدينة المقدسة، و لم ترتكب أي مخالفة. و لم يعان المكيون إلّا من وجوب مداومة الحضور إلى المسجد في أوقات الصلاة، و من حرصهم على إخفاء ملابسهم الحريرية، و من الامتناع عن التدخين علانية، إلّا أنهم عوضوا عن ذلك بالتدخين كما يحلو لهم في منازلهم.

و انسحب غالب إلى جدة، و تبعه سعود إلى هناك، و لكن أسوار المدينة منعه من دخولها، و بدأ المفاوضات مع الشريف- الأمير الذي عاد إلى مكة، و استعاد سلطته فيها، و لكنه لم يحصل على ذلك إلّا بعد أن اتبع المذهب الوهابي . و كان سعود قد استولى على المدينة المنورة، و عامل السكان معاملة أقل احتراما من تلك التي/ ۱۹۱/ لقيها منه سكان مكة، فوضع في المدينة المنورة حامية وهابية، و جرد ضريح النبي صلّى الله عليه و سلّم من الأشياء الثمينة التي تبرع بها المؤمنون، و قد حاول أيضا أن يهدم القبة العالية المقامة على الضريح، كما قاموا بهدم كل القباب التي لم تكن تابعة للمساجد . و قد قيل خطأ: إن الوهابيين ألغوا الحنبلي؛ لأن النبي صلّى الله عليه و سلّم شدد على تطبيق هذه الفريضة.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۰۳

و لا يمكن، و الحالة هذه، أن يقوم الوهابيون بإلغائها، و لكن الوهابيين الذين أزعجتهم التجاوزات المتطرفة التي كان يمارسها الحجاج الأتراك، أجبروهم على تصرف أكثر لياقة، و ردعها بقسوة القوضى التي كانوا يثيرونها . و لم يتعرض الحجاج المغاربة الذين كانوا أكثر تنظيما لأي مضايقات، و كذلك الهنود و أفارقة السودان. و إن كانت قوافل الحج من بغداد و دمشق و القاهرة قد توقفت؛ فإن سبب ذلك هو أن الباشاوات و القوات العثمانية التي ترافقها عادة لم يعودوا يجرؤون على المخاطرة بالسفر عبر المناطق التي يسيطر عليها الوهابيون الذين كان مجرد ذكر اسمهم يثير رعبا كبيرا بين أعدائهم.

كان السلطان العثماني قد حثن في هذه الأثناء، محمد علي، الذي سيذيع صيته بعد ذلك في أنحاء العالم، باشا لمصر، و فرض عليه أن يخلص المدينتين المقدستين من أيدي الوهابيين الذين سيطروا عليهما. و لما تولّى محمد علي منصبه الجديد عام ۱۸۰۴ م شغل/ ۱۹۲/ بالقضاء على المماليك، و لم يفكر بتنفيذ أوامر السلطان إلّا في عام ۱۸۰۹ م، عند ما كلف ابنه الثاني طوسون بمكة الذي كان له من العمر ثمانية عشر عاما، و لكنه كان ذا شجاعة مجربة، نادرة اليوم لدى العثمانيين، و خصوصا في أسر الباشاوات، كلفه، قيادة حملة تزلت في ينبع عام ۱۸۱۱ م. و كانت بدايته سيئة؛ إذ تقدم نحو المدينة المنورة التي كان الوهابيون لا يزالون يسيطرون عليها، و الذين هزموه شر

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۰۴

هزيمة في مضيق الجديدة . و أجبر على التراجع إلى ينبع، و التحق بجيشه هناك، و نجح في السنة التالية- بفضل المساعدات التي تلقاها من مصر- أن يستولي على المدينة المنورة. و وجدت الحامية الوهابية التي ظلت معتصمة في القلعة نفسها مجبرة على الاستسلام بعد ثلاثة أسابيع من المقاومة، و خرجت بأسلحتها و بأمتعتها بفضل عهد أمان؛ و لكنها ما إن قطعت مئة خطوة خارج القلعة حتى انقض الأتراك عليها و سلبوها و ذبحوا أفرادها، و تساءل ما يتمتع به العثمانيون من نية حسنة !

و قد عين أحد المارقين الاسكتلنديين من خدم البيك الشاب ليحض الوقت حاكما للمدينة المنورة، و لكنه سقط بعد ذلك قتيلا و سلاحه بيده في مواجهة الوهابيين. و سقطت أواخر السنة نفسها مكة المكرمة ثم الطائف في أيدي الأتراك الذين كان يقودهم مصطفى بيك، صهر محمد علي، و هو رجل

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۰۵

شرس سفّاك من قبل دماء المصريين، و كان يفخر/ ۱۹۳/ قائلا: «إن عدد من سيموتون تحت عصى جلاده يفوق عدد الرجال الذين يولدون في أسرته، لو أن كل واحدة من زوجاته ولدت في كل يوم مولودا ذكرا» . و إن ذكريات وحشيتهم و خداعهم لا زالت ماثلة في أذهان العرب بعد أربعين سنة. لقد أخطأ الوهابيون إذن تلك الحملة كلها عند ما استهانوا كثيرا بأعدائهم، و لم يواجههم بالقوة المطلوبة، و نتج عن ذلك أنهم أجبروا على تركك الحجاز، و على العودة إلى حدودهم الأولى.

و قد عين الباب العالي طوسون بيكك باشا جدة، و قدم والده بشخصه من القاهرة إلى مكة المكرمة في عام ۱۸۱۴ ليجني ثمار الانتصارات التي لم يحققها بنفسه.

أمّا الشريف غالب فإنه كان يصرف شؤونه بكثير من الحذر و البراعة الفائقة؛ حتى إنه استطاع المحافظة على سلطته في هذه الظروف القطيعة. لقد كان يتقل ولاءه بين الأتراك أو الوهابيين حسب المصلحة الآنية، أو حسب حظوظ المدوين في النصر. لقد كان يراعي الخصمين، متجنبا توريط نفسه بالقيام بأي إجراء ذي دلالة مفرطة، مؤمنا لنفسه في كل الظروف مخرجا. لقد تمثلت سياسته في التذبذب، و في التهدئة؛ أملا في رؤية أحد العدوين اللذين يخشاهما بالتساوي يضعف أحدهما الآخر، كان يجد خلاصه في الكره الذي يكنه أحدهما للآخر. و عند ما ظهر أن النصر سيكون نهائيا بجانب العثمانيين، ضم قواته إلى قواتهم، و حضر بنفسه معركة الاستيلاء على الطائف. و قد كان أبرز زعماء/ ۱۹۴/ الوهابيين و أكثرهم توفيقا في تلك الحرب هو المضايفي

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۰۶

صهر الشريف غالب الذي كان يكرهه، و لم يجد حرجا من أن يعد بمكافأة لمن يقتله أو يأسره. و قد تم تسليم المضايفي لغالب غدرا، فادر مسرعا في نشوة النصر بإرساله إلى استانبول حيث تم قطع رأس العربي المقدام. و كان غالب الذي أرضى حقده، يأمل في أن يرضي الأتراك بذلك. لقد كان ذلك جهلا طباعهم، و لم يدم و همه إلّا قليلا. لقد ذهب إلى جدة لاستقبال محمد علي عند وصوله إلى الحجاز، و عادا معا إلى مكة المكرمة، و تعاهدا رسميا على القرآن في المسجد الحرام ألا يحاول أحدهما القيام بأي شيء يعارض مصلحة الآخر، و أن يعينا متحدين. و لقد كان باشا مصر، على عادة الأتراك المتأصلة فيه، يفكر، و هو يقر بذلك العهد، في أن يخرقه. أما الشريف فقد كان على العكس يحرص على الوفاء بعهده، و لا يمكن حتى لأحد أعدائه أن يتهمه بأي ميل لخرق ذلك العهد. ذلك هو الفارق بين الرجلين: العربي يحترم العهود التي يبرمها، أما التركي فلا يحترم أي شيء.

كان الشريف يقيم في مكة المكرمة في قصر محصّن تحصينا متينا، تدافع عنه حامية مؤلفة من ۸۰۰ رجل، و مدفعيون، مما يجعل

السيطرة عليه مستحيلة. و لئن لم يكن محمد على يستطيع، مفاجأته أو القبض عليه فى وسط الحاشية الكبيرة التى كانت ترافقه على الدوام عند خروجه، فإنه دبر له/ ۱۹۵/ كل أنواع المكائد التى لم تجد فى البداية أى نجاح. و قد كان ينوى القبض عليه، و لو كان ذلك فى المسجد الحرام، لو لا أن القاضى أمر باحترام حرمة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۰۷

المكان المقدس. ثم نصب له محمد على فى نهاية الأمر فخا متقنا، و مدبرا إحكام توقع فيه غالب، و تم أسره مع مراعاة المظاهر الخادعة، و اكتفى بعد ذلك بالقول باحتقار: «لو أننى كنت خائنا لما حدث ذلك أبدا». ثم نفاه السلطان إلى سالونيك، و قد مات فيها متأثرا بالطاعون فى صيف عام ۱۸۱۶ م. رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى ۱ ص ۲۰۷

انتهت بموته حكومة الأشراف. و كل الأشراف - الأمراء الذين جاؤوا بعد غالب، عينهم الباب العالى، و اكتفوا بالمرتب الشهرى المحدد الذى كان يدفعه الباب العالى. و أصبح شأنهم شأن موظفى الإمبراطورية العثمانية كلهم، فهم لا يتمتعون إلا باستقلال شكلى، و بسلطة اسمية. و قد كانوا يعاملون على الدوام كما يعامل شيوخ قبائل الحجاز، كانوا يختارون من قدماء الأسرة الحاكمة، و لكنهم لم يكونوا فى الحقيقة إلّا موظفين لدى الحكومة التى تعينهم و تدفع رواتبهم، شأنهم شأن الوزراء و الباشاوات. و كان يحيى أول الأشراف الذين عينهم محمد على، و يحيى أحد أقارب غالب، و لا يمنع بأية موهبة، و هو مناسب تماما لما يريده محمد على.

لقد كان الباشا يريد أن يزيل النفوذ العربى و التقليدى لأحفاد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من جذوره؛ ففى ثلاث مئة منهم إلى مصر، و لم يترك للآخرين إلا أعمالا ثانوية/ ۱۹۶/ مثل أن يكونوا على سبيل المثال، أدلاء فى جيشه. أثار سجن غالب و الصدر الذى كان ضحيته استنكار العرب كلهم ضد الأتراك. و قد بدا المكيّون أنفسهم محرومين لذلك. و لم يكن الوهابيون أبدا ليقوموا بمثل هذه الأعمال الدنيئة، لقد كانوا عاجزين عن ذلك، و لما كانت آية مقارنة بينهم و بين الأتراك ستكون لصالحهم بالتأكيد، فإنهم قد نالوا الحظوة الشعبية لأنفسهم.

لقد دفع محمد على ثمن غدره عددا من الهزائم التى كادت تودى بحياته؛ أولها كانت الهزيمة الساحقة فى تربة حيث انتصر الوهابيون على صفوة قواته التى كان يقودها ولداه طوسون، و هزم تلك القوات شر هزيمة عرب اليقوم، الذين يعمل بعضهم فى الزراعة، و بعضهم الآخر فى الرعى، تقودهم أو تلهمهم على الأقل امرأة اسمها: غالية.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۰۸

لقد كانت غالية جان دارك الصحراء، و كانت هى الشيخ الحقيقى للقبيلة، و كان الأتراك يالطبع ينظرون إليها على أنها ساحرة، و أن سحرها يجعل أنصارها لا يهزمون . و أذلّت القوات العثمانية بهزيمتين لم تكونا أقل عنفا من الهزيمة الأولى فى زهران و القنفذة ، و هى إحدى مدن الحجاز الخمس.

أمّا محمد على فكان لا يستطيع الخروج من وراء أسوار مكة المكرمة، و قد كانت الاتصالات مع جدة غالبا مقطوعة. و أصبح جيشه فى أسوأ حال: إذ كانت الجمال تتضعضع للثقل، و قد/ ۱۹۷/ هلكت من ذلك الجيش ثلاثون ألفا فى تلك الحرب. كانت الأهذبة نادرة فى كل المواقع، و قد وصلت أسعارها حدا غير معقول. أمّا الجود الذين كانت روائبهم غير مجزية، أو أنهم لا يتلقون رواتب أبدا، فإنهم لم يكونوا يحصلون إلّا بصعوبة كبيرة على حاجاتهم الضرورية الأولية، و قد كانوا يرفعون أصواتهم بالاحتراض، و يفرون بأعداد كبيرة، و لم يعد المجندون يصلون إلى الحجاز أبدا، و كان محمد على وحده هو الذى لم ييأس، لقد كان متأكدا أن خسارة الحجاز تعنى بالنسبة إليه خسارة مصر، و قد بذل لكى يحتفظ بالحجاز جهودا جبارة، و أظهر حزما نادر المثال.

و لما أخفق فى الحرب لجأ إلى المفاوضات، و بدأها أولا مع القبائل المجاورة لمكة المكرمة، و استمال عددا منها بدفع مبالغ مالية كبيرة [...].

لقد أبدى محمد على للبدو ودا و محاباة جعلت له بينهم أصدقاء كثرا:

كان يستقبلهم بلا تكلف، و يسمح لهم بمخاطبته على طريقتهم فيما اعتادوه من عدم المجاملة، و يغدق عليهم الهدايا، و يدفع بكرم لكل المتطوعين الذين

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۰۹

يقدمونهم للخدمة فى جيشه، و كان فى كل الخصومات يجعل الحق دوما إلى جانبهم ضد جنوده أنفسهم و أوفل فى هذه السياسة فأصبح يستجدى رضا أهل مكة المكرمة، و مع أنه ماسونى بالمفهوم الغربى لهذه الكلمة، أى ملحد و مشرك مجاهر، فإنه كان يتظاهر بالحمية و الإخلاص، و يكرّم العلماء، و يجرى لهم الجرايات، و يرمم الأماكن المقدسة، و يزد/ ۱۹۸/ بكثرة إلى المساجد، و يؤدى بدقة الشعائر الطويلة حول الكعبة، كان، بعبارة واحدة، يؤدى كل الواجبات التى يؤديها المسلم المثالى.

و عند ما ظهر له أن تلك الوسائل و ما شابهها جعلت الأمور تستقيم له بادر بكل قوته، و بمساعدة فرقة من الخيالة الذين جلبهم من الصحراء الليبية، إلى تنظيم حملة جديدة ضد الوهابيين المجتمعين فى بسل؛ و هى قرية إلى الشرق من الطائف، و أحرز شخصيا نصرا حاسما فى شهر يناير (كانون الثانى) ۱۸۱۵ م. كان سعود قد توفى العام الفائت فى الدرعية، و انتقلت السلطة العليا الوراثية فى أسرته إلى ولده عبد اللّه بن سعود الذى كان يتفوق على أبيه فى القدرة العسكرية التى عرف بها، و لكنه كان أقل من والده حكمة فى سياسة القبائل، و فى صيانة مصالحهم و التوفيق بينها.

لقد حصلت فى بداية حكمه اضطرابات داخلية بين صفوف أسرته نفسها، ثم امتدت تدريجيا إلى عدد من القبائل. و بدأ كبار مشايخ تلك القبائل يبدون استقلالا لم يكونوا يجرؤون على مجرد الحلم به إبّان حكم الأمير السابق الذى كان أكثر حزما، و كانت القبائل بالإجماع تخضع لسلطته.

و أضعفت تلك المنازعات الداخلية الانضباط الذى تشتد الحاجة إليه إبّان الحرب، و الذى لم يكن فقدانه بعيدا عن أن يكون السبب الرئيسى فى هزيمة بسل . لقد كانت كلمات سعود الأخيرة قبل موته لولده عبد اللّه أنه/ ۱۹۹/

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۱۰

نصح له قائلا: «لا تقاتل الأتراك أبدا فى أرض مكشوفة» و لأنه لم يتع هذه النصيحة القيمة، وقعت تلك الطامة الكبرى . لم يكن عبد اللّه يقود القوات بنفسه فى معركة بسل، بل كان على رأس جماعة من الاحتياطيين؛ كان عليها حماية منطقة أخرى من حدوده. و كان يقود القوات الموجودة فى بسل أخوه فيصل .

لقد نسج الأتراك و أسرفوا فى استغلال النصر بوحشيتهم المعهودة؛ فقد كان هناك ثلاث مئة من الأسرى الذين وعدوا بصيانة حياتهم، ثم رفعوا على الخوازيق بأمر من محمد على: حسبون على أبواب مكة المكرمة، و مثلهم على باب جدة، و الباقون على طول الطريق الواصل بين المدينتين. و ظلت أجساد أبناء الصحراء المتجمعات معروضة حتى ملأت الضوارى و الوحوش بطونها

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۱۱

من لحومهم. و يمكن لهذا التصرف المقفع أن ينبىء بالمقاطعات الأخرى. و من بسل سار الباشا على طريق اليمن، حيث كان عدد الوهابيين كثيرا، و كان يأمل أن يحقق غنائم كثيرة لأن تلك المنطقة تشتهر فى الشرق بغناها الفاحش، و لكن القوات عانت معاناة كبيرة فى مسيرتها، و لم تكد تصل إلى منتصف الطريق حتى تمردت، و رفضت الذهاب إلى أبعد من ذلك: فدفع ذلك الوضع الباشا إلى الأمر بإرسال تلك القوات إلى مكة المكرمة، و من هناك إلى مصر ليستبدل بها قوات أخرى جديدة.

و إن هذه الحملة الفاشلة أعطت بفشلها محمد على/ ۲۰۰/ فرصة لإظهار جلده و ممارسة قسوته على بعض أحد شيوخ القبائل الذين مكّنه الخيانة من القبض عليهم. فأمر حرسه الخاص بقتله أمام عينيه شر قتلة؛ إذ طلب من حراسه الخاصين أن يجزوه بطء بسيوفهم لكى يطول عذابه، فقضى المقدام العربى المسمى بخروش نحبه دون أن تصدر عنه آنة ألم واحدة. أمّا محمد على الذى كان راضيا عن الانتصار الذى حققه فى بسل، و ارتأى أنه حقق ما يكفى لرفعة مجده، و لمصلحته عند ما خلّص المدينتين المقدستين، فإنه عرض شروطا للصلح على عبد اللّه بن سعود، و ذهب إلى المدينة المنورة لانتظار النتيجة التى ستسفر عنها عروضه السلمية. و كان طوسون باشا قد سبق والده إلى المدينة المنورة، و كان حين وصول أبيه فى منطقة القصيم؛ و هى إحدى مناطق النفوذ الوهابى، لإبرام سلام باسمه مع أمير الدرعية، و فى هذه الأثناء كان محمد على الذى لم يدعم ابنه لا بالمال و لا بالرجال يحر ثانية و بسرعة إلى مصر التى كان يرى أنها ثمر بفترة حرجة، و هى مهددة بأن يهاجمها أسطول الكاپتان باشا. و عند ما وصلته معاهدة الصلح التى أبرمها ولده، لم يرفض الموافقة عليها، و لكن غموض لغته أثبتت لأقل الناس بصيرة أن له مطامع مستقبلية فى الجزيرة العربية. و تحقق ذلك فى عام ۱۸۱۶ م عند ما قام بإرسال ابنه البكر إبراهيم باشا مع جيش جديد، هدفه الاستيلاء على

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۱۲

الدرعية، و تقويض/ ۲۰۱/ دعائم الحكومة الوهابية نهائيا. و قد أبدى إبراهيم فى هذه المناسبة شجاعة و كفاءة لا يمكن إنكارهما، و أظهر حزما تكلل بالنجاح، و استطاع أخيرا فى سبتمبر (أيلول) ۱۸۱۸ م بعد سنتين من الجهد المستمر، و القتال بلا هوادة، الاستيلاء على الدرعية التى هدمها رأسا على عقب، و أجبر السكان على البحث عن ملجأ فى مكان آخر. و أخضع نجدا كلها، و استطاع بفضل مساعدة باشا البصرة أن يصل بجيشه الظافر إلى ما وراء جبل شمر بالجناء بغداد.

لقد دافع عبد اللّه بن سعود عن عاصمته بتصميم كبير، و شجاعة نادرة، و لكنه لم يلق فى دفاعه دعم السكان الذين أنهكهم الحصار الطويل، و لبّط هممهم، و الذين كانوا يفضلون الحظوظ التى سيوفرها لهم الاستسلام، على الويلات التى سيجرها عليهم هجوم إبراهيم باشا، و لكن تفكيرهم بذلك يعنى أنهم يجهلون طباع الأتراك. لم يعد عبد اللّه يستطيع الاعتماد إلّا على حرسه الخاص المكوّن من أربع مئة عبد أسود كانوا مستعدين للموت حتى آخر رجل منهم دفاعا عنه. و لما فقد كل الأمال كان باستطاعته الفرار و الالتجاء إلى قلب الصحراء بانتظار أيام أفضل؛ و لكنه كان يفضل الاستسلام لأعدائه، و الاعتماد على أريحية المنتصر، كما لو أن التركى يتمتع بأى قدر من الأريحية؟ و بعد بضعة أيام من الاستعدادات و التردد سلم نفسه بإرادته لإبراهيم باشا الذى كان لا يزال فى ريعان الشباب، و استقبل عبد اللّه بن سعود فى خيمته باحترام كبير/ ۲۰۲/ و قال له مواسيا: إن الرجال العظام يعانون صروف الدهر، و إن باستطاعته الاعتماد على عفو السلطان».

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۱۳

لقد كانت النهاية التى آل إليها هذا المشهد فظيعة. أرسل عبد اللّه إلى القاهرة، و معه حاشية كبيرة، و من القاهرة إلى إستانبول، و قد عرف عبد اللّه هناك عفو محمود الذى كان جيتك السلطان. لقد طيف بعبد اللّه إبّان يومين فى كل شوارع المدينة، و فى اليوم الثالث تم قطع رأسه فى ساحة القديسة- صوفيا، و تركت جثته للدهماء، لكى تروى غليل تطرفها، و تبلغ ثأرها من جثمانه الذى يعث على الحزن.

لقد حدثت هذا الحدث الفاجع و المقيت فى نهاية عام ۱۸۱۸ م. أما أسرة عبد اللّه فقد بقيت فى مصر، و نشأ أولاده، كما ذكرت سابقا، فى رعاية محمد على . و لم ينهض الوهابيون أبدا من كبوتهم التى أدت إلى خراب عاصمتهم، و أسقطت حكومتهم، و لكن، و إن لم يعد لهم نفوذ سياسى، و لم يعودوا قوة مستقلة، فإن عددهم ظل كثيرا فى الجزيرة العربية، و خصوصا فى الجنوب حتى حدود مسقط؛ و يكادون يسيطرون وحدهم على صحراء نعمان التاسعة الواقعة على مسيرة خمسين يوما من مكة المكرمة/ ۲۰۳/ و قد كانوا يدفعون، أو ينبغى عليهم أن يدفعوا، ضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف تالرى Talaris . لقد كانوا على الدوام يدينون بالطاعة لرجيم هو أحد أفراد الأسرة السعودية، و آخر من علمت به من زعمائهم هو فيصل ، قريب خالد بمكة، ابن أو حفيد لفيصل الذى كان يقود الوهابيين فى يوم بسل المشئوم.

و هاجرت بعض الأسر الوهابية إلى سواحل بلاد البربر، ما زالوا حتى اليوم، و خصوصا فى ناحية طرابلس، يشكلون تجمعات محترمة لصرامة طباعها .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۱۴

التى تذكر بأخلاق المرابطين فى أوروبا الشمالية.

و نستطيع بعد ذلك القول: إن الحكومتين الحقيقيتين المستقلتين فى الجزيرة العربية، زالتا الواحدة تلو الأخرى، بل الواحدة بيد الأخرى، الوهابيون و الأشراف: فالأولى لم تعد إلّا دعوة، و الثانية لم تعد إلّا سرابا.

و لم يكن صعبا على الباب العالى أن يستغل تنافسهما، و أن يبسط سلطته على أنقاضهما. فلو أن أميرى مكة المكرمة و الدرعية تحالفا بصدق و صراحة ضد عدوهما المشترك، و اتفقا على تسوية مصالحهما الخاصة بعد ذلك، و لم يكونا متفرقين، كما فعلا، فى بداية الحرب، لما استطاع الأتراك أبدا أن يطؤوا أرض الحجاز، بل لو أنهما بادرا بالقيام ببعض الخطوات، لما خرج أحد من الأتراك من الحجاز حيا. لو حصل ذلك لكانت الجزيرة العربية مستقلة اليوم/ ۲۰۴/ و لتخلصت، و إلى الأبد، من الطغاهين التركى؛ إن أطماعهم تلك الفرصة المناسبة يقتضى أن تبدأ من جديد عملية تخليص الجزيرة العربية من الأتراك، بما يتطلبه ذلك من تضحيات جديدة. و إن الخطأ الرئيسى كان ما قام به غالب الذى لم يكن عليه، حرصا على مصلحته الخاصة، أن يتواطأ مع الأجانب، و لا أن يساعدهم فى تنفيذ مخططاتهم. لقد أخل فى ذلك الظرف بالحنكة التى كانت أصماله حتى ذلك الوقت تدل على تمتعه بها، و يحق لنا أن نعجب من ذلك، لأنه فى الحق لم يكن الإنسان بحاجة إلى كثير من الحكمة الثاقبة ليتوقع النتائج النهائية لتصرفه الغامض، و غير الحكيم. لقد خسر كل شىء فى سعيه لإنقاذ كل شىء، لقد أسقط بسقوطه العقبة الوحيدة التى كانت تستطيع بمساعدته وقف عدو وطنه، و الحفاظ على وطنيته.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۱۵

الفصل التاسع من جدة إلى الطائف

فى يوم ۲۲ فبارير (شباط) جاء مصطفى أفندى، وكيل الشريف الأكبر ليقول لنا إن المهجن و الرجال الذين أرسلهم الأمير لمرافقتنا إلى الطائف قد وصلوا. لقد تلقى الأمر بمرافقتنا، و بألّا يتركنا إلّا عند عودتنا إلى جدة، رجل ذو اعتبار فى البلاد، و شريف، و حاكم مدنى أو وال لمكة المكرمة/ ۲۰۵/ لقد كان ذلك أكثر من مجرد اهتمام، إنه شرف استثنائى بسبب أهمية الشخصية. كان اسم ذلك الرجل هو الشريف حامد الذى زارنا بعد بضع ساعات من وصوله، يرافقه خمسة أو ستة من العرب، يرتدون ثيابا جميلة، و هم مدججون بالسلاح. كان يلبس و شاحا كبيرا أبيض، و جبّة أرجوانية، و يلتمع فى خزامه يطقان مزخرف. كان هو و حراسه حفاة، و لم أره أبدا

يلبس حذاء. كان عمره سبعة و عشرين عاما، و لون بشرته أسمر داكنا، و كان له عينان واسعتان سوداوان تشعان حيوية ورقة. و كان لأسنانه بياض ساطع، و في صوته رنة الشباب، و نداوة الفتوة، و كان له ابتسامة ظريفة استغلها بما يليق بمقامه، و بمنصب الأمير الذي أرسله؛ و لكنه طوال الإربارة لم يبس ببيت شعة، و ليس ذلك مستغربا في الشرق حيث لا تتكلم عند ما لا يكون لدينا شيء لتقوله.

مع ذلكك، استغربت صمته، بل إنه، أكثر من ذلكك، أغاظني. هل كان ذلك خجلا أو خبرة؟ و لست أدري إلى أي من السبين (الخجل أو المعرفة) أرجع ذلك الصمت المتمكن. و كان حكمي عليه في إطار الشكك قاسيا.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۱۶

و أعترف أن الاطلاع الأول كان بعيدا كل البعد عن أن يكون إيجابيا.

زرناه في اليوم التالي في بيت مصطفى أفندي حيث كان يقيم، و وجدنا المنزل يمج بالعرب الذين سارعوا للتسليم على شريفهم. و استقبلنا بأدب جم/ ۲۰۶/ و دون أن يصل به الأمر إلى الانفتاح، فإنه كان أقل صمتا مما كان عليه في اليوم السابق.

جادت الشيشة و القهوة و تلاها الشراب الذي تم تقديمه في كؤوس كبيرة مذهبة، و قام بعد ذلكك بعض خدم المنزل بصبّ ماء الورد على أيدينا و على ثيابنا، و هم يفعلون ذلكك لمن يريدون إكرامهم، و في نهاية الزيارة فقط. و حدد يوم المغادرة بعد صلاة العصر من اليوم نفسه.

لقد سمح الفضل الفرنسي بناء على طلبي للسيد دوكيه، موثق العقود و المترجم في القنصلية بمرافقتي، و قد كنت مسرورا بذلكك. وجدت في دوكيه مرافقا بسارع لأداء الخدمات، مرهفا، و مترجما متمكنا من لغة البلد المستخدمة و الرسمية. كان علي، لو أنه لم يكن موجودا، الاعتماد على رفيق رحلتي، و كنت أفضل ألا أفعل ذلكك. و لئا كان هذا الأخير يتكلم العربية لأنه كان دائم السفر إلى الشرق منذ عدد من السنوات، و كان يزهو لنفسه خبرة صيقلة بالناس و الأشياء. تركت له منذ انطلاقنا من القاهرة الإدارة المادية لقافلتنا الصغيرة، و مع أنه كان سيء الإدارة، و أبدى من التكير أكثر مما هو منتظر، فإنه في هذا اليوم استفاد صبري و صبر الشريف حامد، ناهيكك عن السيد كول، فتصل بلاده الذي عيل صبره.

كان علينا أن نتطلق عند العصر/ ۲۰۷/، و عند ما حلّ العصر لم يكن شيء جاهزا؛ مع أنه لم يكن علينا أن نحمل إلّا أمتعتنا الضرورية لاستعمالنا الشخصي، و لو فعلنا غير ذلكك لعدّ ذلكك إهانة للأمير المضيف الذي كان يعاملنا معاملة في غاية النبل، و يود أن يوفر لنا كل ما نحتاجه. باختصار، لم نتطلق إلّا عند المغرب بعد أن تبدى لي أننا لن نتطلق أبدا. و لو حصل ذلكك لكان الأمر خطيرا؛ لأنه كان من المهم أن نتطلق في يومنا هذا، الذي لم يكن اختياره عشوائيا؛ فقد كان يوم خميس، و هو أكثر أيام الأسبوع مناسبة لبدء

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۱۷

الأسفار في نظر المسلمين، فالثلاثاء، يوم منوّوم، و العرب لا تحب السبت لأنه يوم اليهود الذين يحتقرونهم كل الاحتقار. أما الأحد و الاثنين فمن الشائع أنهما يرمان مباركان، و الأربعاء، تسنوى الأمور فيه. و أما يوم الجمعة فهو يومهم المقدس، و هم يسافرون راضين بعد صلاة العصر.

كانت القافلة تتكون كما يلي: كاتب هذه السطور، إن كان من المناسب أن يبدأ الإنسان بنفسه، ثم رفيق رحلتي، و السيد دوكيه، و ستة من الخدم، بينهم أوروبيان؛ بلجيكي و طباخنا غاسباروا ثم الشريف حامد مع أحد أقربائه، و بعدهما أحمد حمودي رئيس جثالة الشريف الأكبر، ناهيكك عن اثني عشر عبدا أو خادما من خدم الشريف، يلبسون ثيابا جديدة، و هم جميعا مسلحون بالرماح/ ۲۰۸/ و بالخناجر، و لم يكن معهم أسلحة نارية. و رأينا من المناسب ألا نحمل أسلحتنا معنا لكي لا يبدو أن مثقال ذرة من الحذر قد خطر ببالنا:

لأن المرافقة التي أرسلها الشريف كانت في نظرنا تكفي لحمايتنا، و لئا كنا ضيوفه، فإنه لم يكن مسموحا لنا أن نتوقع حدوث أي حدث سيء. لقد أرسل ثلاثة عشر جملا و هجانا كانت كافية لحمل كل من أشرت إليهم، لأن المرافقين يمشون على الأقدام، و يستطيعون عند الحاجة أن يصعدوا خلف جماعتنا.

إن الهيجان الذي خيّم ركوبي كان الركوب المفضل لدى الشريف الأكبر، و كان يستحق هذا التفضيل لرقة مقوده، و حسن طبعه؛ كان اسمه:

مجابة. أمّا هجان رفيقي فكان اسمه: أم القصب، و كان لا يقل في شيء عن ركوبي، و كان يمتاز منه بأنه ثاقب النظر في الظلام؛ لذلكك كان الأمير يمتطيه في الليل عادة. كانت أرحلنا راتعة، مزينة بأنواع من الزينة من كل الألوان، طرزتها بالحرير و الصوف المزين بالفضة يد صناع، و كانت الأرحل تغطي الحيوان تماما على الرغم من ضخامته. و كان ترويسا الرحل من الفضة أيضا.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۱۸

أما الزمام فكان من الجلد المضفور بمهارة. كان لنا، و نحن على ظهور الهيجن لحقّ بنا المرافقة، و الشريف يقودنا/ ۲۰۹/ هيئة مؤمنين حقيقيين يتجهون إلى الحج. و عند ما رآنا أحد الأطفال الذين كانوا على قارعة الطريق الذي كنا نمر به أخطأ و قال لرفاقه: «انظروا، إنهم ذاهبون إلى مكة المكرمة». فأجابه أحد الصبية ممن هم أكثر بصيرة، كيف ذلكك؟ إنهم نصارى.

و لئا كان خروجنا من باب مكة المكرمة فإننا عرنا معسكر التوبين، و أرض المعرض المقام خارج الأسوار، ثم يأتي بعد ذلكك صفين من الحوانيت و المقاهي المشيوهة المنتشرة على جانبي الطريق لمسافة كيلومتر. لقد رافقنا عدد من معارفنا منهم: السيد كول على حصان، و مصطفى أفندي على بغلته، و الإخوة ساوند، و آخرون أيضا، ظلوا يرفقننا حتى الرقامة المقهى الأول من اثني عشر مقهى منتشرة على الطريق من جدة إلى مكة المكرمة. شربنا في الرقامة قهوة الوداع، و كان الليل قد هبط منذ ما تفرقنا. كنا في قلب الصحراء، و كانت الرمال تجعل القافلة تتقدم بخطوات بطيئة، حتى إن شيئا لم يكن يعكر سكون الليل. و قابلنا في الظلمات قافلة طويلة من الجمال كان الصمت يخيم عليها، و لم يكن هناكك ما يشير إلى مرورها.

بدأنا بعد بضعة أميال نرتقي أحد الشعاب المحصورة بين جبلين منخفضين، و كانت النجوم تلمع على قمتيهما كأنها النيران. و كان هناكك في أسفل السفح المقابل مقهى الرياضة، و هو ثاني مقاهي الطريق. و كنا نتوى الاستمرار في المسير حتى المقهى الثالث، بل أبعد من ذلكك/ ۲۱۰/ و لكنني أصبت بنوبة من الحمى مفاجئة و عنيفة؛ مما جعل من المستحيل المضي أبعد من ذلكك، و اضطرت القافلة إلى التوقف في المقهى الثاني لقضاء الليل، و لكن ليس من دون أن يقوم الشريف بنشر حراس من حولنا لتأمين الحماية. لم تحمل معنا خيامنا، و كان لي بدلا عنها حصيرة نصبت على أربعة أعمدة، و استلقيت فيها على سجادتي بتثابني القلق من الظرف الطارىء، و يتملكني الخوف من أن يكون للوعكة التي أصابتني عواقب غير محمودة، و يظن العرب أن سبب مرضي يعود إلى شرب فنجان من القهوة مباشرة بعد

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۱۹

تناول قطعة من البطيخ الأحمر، و هذا في رأيهم أمر إن فعلناه فلا تتجاوزه بسلام. و لئن كان ذلكك السبب الحقيقي لما أصابني أم لا، لقد شفيت خلال الليل، و في الصباح لم يعد لمظاهر الحمى أي وجود.

و لئا لم تكن الهيجن تحمل إلّا راكبيها فإنها سرعان ما أصبحت جاهزة للانطلاق، و لئا أشرقت الشمس وجدتنا منطلقين. كان منظر القافلة في غاية الروعة. كان أحمد رئيس الجثالة على رأس القافلة، و هو يركب هجانا رائعا.

ثم يأتي بعده الشريف حامد الذي كان يتسلح بالمترك؛ و هو عبارة عن قضيب قصير معقوف يستخدمه العرب لتوجيه الجمل من على الرحل. و كان الأشراف وحدهم الذين يباح لهم في الماضي حمله. كنت إلى جانب الشريف أتجاذب معه أطراف الحديث بواسطة السيد دوكيه الذي كان ينقل إليه تساؤلاتي و يترجم لي أجوبته. و كان أصحابنا يتبعوننا على جمالهم، و كان رجال المرافقة يسيرون على أقدامهم سواء، كانوا مستظلين أم متلوشين/ ۲۱۱/ مرة في هذا الجانب و أخرى في ذاكك.

ثابعا على تلكك الحال طريقنا خلال عدد من الساعات، نسير في سهل رائع تحيط به الجبال من كل الجوانب، و ليس فيه من الزرع إلّا الهوسج و بعض أجمات الأشواكك. كان يمسكر في هذا السهل خيالة كرد عثمان أغا.

رأينا من بعيد الخيام البيضاء، و الخيول ترعى بحرية تلكك الأشواكك.

كانت القافلة تتقدم بهدوء، تحت شمس لطيفة، و فجأة، و بناء على إشارة من الشريف حثت الخطى، و استمر الجرى المصحوب برنين الأجراس نصف ساعة قطعنا خلالها بلدات كثيرة. و لم يكن المشاة أقل سرعة في الجرى من الهجن، و لم يتأخروا عنها خطوة واحدة. و لم يجرنا الشريف أبدا سبب تلكك المناورة السريعة، و لكنني أحاول تخمينه: إنه حالة العداء التي تسود بين العرب و الأتراك، و لما كان الشريف حامد لا يحهل الجند الذي يكنه السنجق

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۲۰

(عثمان أغا) للشريف الأكبر، فقد كان حامد يخشى أن يعرض هو نفسه أو نحن لبعض الشتائم من الباشي بوزوق. و لكن الحركة التي فرضها الحذر عليه تمّ تنفيذها فجاءة و كادت تكون قاضية بالنسبة إلي؛ لأنني لم تتوافر لي الفرصة لاعتياد ركوب الهجان إذن رحلة سيناء لكنت اطرحت على الأرض.

وصلنا نخبّ إلى مقهى حدة أكبر المقاهي الأحد عشر كلها، و تقع تقريبا في منتصف الطريق بين جدة و مكة المكرمة. و يتألف مقهى حدة من/ ۲۱۲/ سقيفة من أغصان الأشجار يحيط بها عدد من السقائف الصغيرة، و كل ذلكك يشرف بوجود مسجد في الجوار. تجد في هذه المقاهي حليا و أرزا، بل إننا وجدنا خروفا قدمناه هدية للرجال الذين يرافقوننا فأتوا عليه بسرعة كبيرة. كان الجو شديدا، فجلسنا في ظل السقائف نستريح بضع ساعات، و لم نتطلق إلّا بعد العصر. كنا حتى الآن نسير بخط مستقيم نحو الشرق باتجاه مكة المكرمة التي كنا نسير على طريقها، ثم غادرنا الطريق فجأة، و انحرفنا نحو الجنوب لنتفادى المرور في المدينة المقدسة؛ لأنه محظور على غير المسلمين ليس دخولها فقط، و إنما رؤيتها و لو من بعيد. إذا، كان ينبغي الالتفاف بمهارة حتى لا نسترق النظر إليها، و نحن نعلم أن الحظر يشمل المدينة المنورة أيضا، بل هو في المدينة المنورة أشد صرامة لأن أهلها أكثر تعصبا و شدة.

و لا يزال الناس يتحدثون بسخط عن ذلكك الطبيب الإيطالي الذي قضى فيها أيام حرب محمد علي و الوهابيين أربعة أشهر كاملة بحماية خاصة من محمد علي. لقد أقيمت حول مكة المكرمة أعلام بين كل مسافة و أخرى لتحديد حدود الأرض المقدسة و المحرمة على غير المسلمين، و حيث لا يجوز أيضا إراقة دم الإنسان أو الحيوان؛ فالصيد محرم فيها، و لا يمكن أن تذبح ديكا. إن التعاليم بهذا الخصوص صارمة، و لم/ ۲۱۳/ يتركوا تفسح تلكك الأحلام الخطرة خوفا من أن تمتد النظرة الغائرة إلى أبعد من ذلكك. إلّا أنه لم يكن بالإمكان أن يخفى عنا جبل الثور، و هو محرّوط

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۲۱

ضخم تقع مكة المكرمة في أسفله، كان أمامنا، و كان جديرا بالاسم الذي يحمله، لأنه كان يقتع تحت حرم ضوء الغروب. أما السهل الواسع و الرائع سهل معرة Moebarreh(۴) فقد كان يحول بيننا و بين جبل الثور؛ و كانت ثمر ذلكك السهل تبدو أكثر خطا منا، كانت ثمرّ من فوق رؤوسنا لتذهب إلى مكة المكرمة حيث كانت هناكك بدون شكك أوكارها، لم تكن إلا على بعد ساعة على الأكثر من مكة المكرمة، و لكن أحدا لم ينطق باسمها و لو مرة واحدة. و عند الغسق دخلنا في سهل آخر هو سهل العكيشية و فيه أدركنا الليل. ثم سرنا ساعتين في ظلام دامس، و بصمت مطبق. لم يكن أحد يغني، و لا أحد يتكلم، و كان يبدو أن لا أحد يتنفس؛ و لم تكن تسمع إلا صوت تكسر الأعشاب اليابسة تحت خفاف الهجن.

و فجأة توقفت القافلة. لقد ضللنا الطريق.

يمر الطريق العادي بين جدة و الطائف عبر مكة المكرمة، و لم يكن العرب الذين يرافقوننا بدءا من الشريف حتى العبيد، قد سلكوا من قبل طريقا غيرها، لأنه لم يكن عليهم أن يرافقوا قبلنا مسيحيين، و لم يكن عليهم بالتالي أن يتجنبوا المرور بمكة المكرمة. و لئا كانوا يحرصون على إخفائها عن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۲۲

عيوننا، فإنهم ضلوا الطريق الصحيحة، و إن التفافهم على الطريق بدافع التقوى/ ۲۱۴/ جعلهم يخطئونه، و بذلوا جهودا لم تنفع للاهتداء إليه، و أصبح من المستحيل عليهم أن يسلكوا الوجهة الصحيحة. حينئذ تشاور الشريف و رئيس الجمالة بصوت منخفض، انصرف الأخير مباشرة بعد ذلكك مسرعا لاستكشاف الطريق. كنا في تلكك اللحظة قريبين كل القرب من مكة المكرمة التي ذهب إليها رئيس الجمالة على الأرجح، و ألقينا عصا الترحال بانتظار عودته.

قلت في بداية هذا الفصل إن انطباعي الأول لم يكن إيجابيا عن الشريف حامد، و إنني فسرت صمته تفسيرا خاطئا؛ و لم أتأخر في العودة عن حكمي المتعجل، و في مواجهة نفسي على ظني الذي لم يكن عادلا.. إن ما فتئته عجرفة كان خجلا، و لا يمكن تصور الرعاية التي أحاطني بها خلال الرحلة، و العناية الموثرة التي خصني بها عند ما ألمت بي الوعكة القصيرة في الأمسية السابقة، و الاهتمام الذي أولاني في مساء ذلكك اليوم الذي ضللنا فيه الطريق.

كان يخشى أن يكون ركوب الهجان خلال اثني عشرة ساعة قد أرهقني، و لم يقنع التأكيد المتكرر بأنني لست مرهقا في إقناعه بذلكك، و كان لا ينى يثير لي بأروع الكلمات و أفصحها عن قلقه و أسفه. لقد أخذ زمام هجاني، و جعله يسير إلى جانب هجانه، خوفا من أن/ ۲۱۵/ ينحرف عن طريقه في الظلام؛ كان يقوم بكل ذلكك على أحسن وجه، و أتم آيات الأدب.

كان بين المرافقين عبد ضخم و وسيم، يسمّى: أبو سلامى. Abou Slace ؟ و كان موضع ثقة الشريف الأكبر، و كان يبدو أن له نوعا من السلطة على الآخرين، لم يعرنا منذ الانطلاق أي اهتمام، و لم يكن لطيفا، و كان يقوم بما يكلفه به سيده من مهمات بامتياز ظاهر. و عند ما ظللنا الطريق كان يردد شكوى محزنة، و يحتج بسذاجة قائلا: إن سيده يبالغ فيما يقوم به من أجلنا، و إننا لسنا في نهاية الأمر إلّا نصارى، لا نستحق كل هذه التشريفات، و إن في معاملة الكفار مثل تلكك المعاملة في مهد الإسلام إغضابا لله تعالى الذي جزانا بجعلنا نضل الطريق في قلب الظلام.

لقد نبهه الشريف بلطف، و أظهر له أن كلامه غير لائق، و قال له: إننا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۲۳

ضيوف الشريف الأكبر، و هذه الصفة تفرض عليه احترامنا، و إنه يسيء، كل الإساءة إلى سيده بتصرفه الذي لا يتناسب أبدا مع نزاهته. و أضاف أن حسن الضيافة هو الواجب الأول الذي يقوم به العرب إزاء الأجانب، و أن النبي صلّى الله عليه و سلّم أوصى بذلكك حتى تجاه الكفار أنفسهم، و أننا نأتي من بعيد جدا لزيارة بلاده، و عند ما نعود إلى أوطاننا، ماذا سنقول/ ۲۱۶/ عنهم لمواطنينا إن لم نجد

فى الجزيرة العربية ما نستحقه من تقدير و احترام» و لم يفت السيد دوكيه كلمة واحدة من ذلك الحوار، و أعاده على مسامعى كلمة كلمة فى اللحظة نفسها. و لكن «أبو سلامى» لم يرع بعدها، إلّا أنه بدا أكثر تحفظا فى كلامه، و لم يكن ليجرؤ فى المستقبل على القيام بمثل تلك التجاوزات.

ظهر أحمد (رئيس الجماّلة) من جديد أخيرا، و حمل معه كما يبدو معلومات محددة، لأن القافلة عادت إلى مسيرتها دون أى تردد، كان عليها أن تعود القهقرى بعض الوقت، ثم تحرف فجأة نحو الجنوب، و ترتقى هضبة و عرة لم أتبين فى الظلام ملامحها. و عند ما وصلنا إلى القمة لمحنا أضواء على البعد، و سمعنا نباح الكلاب، و مررنا بعد لحظات قليلة قرب قطيع من الأغنام؛ أما رعاته الذين لم أتبين إلا أشباحهم السود، فقد برزوا أمامنا، و حيوا الشريف باحترام، و قادونا إلى ملكية مسورة، واسعة، مكونة من أفنان متداخلة، و استقبلنا هناك ظاهر أغدى، أحد خدم الشريف الأكبر» و أستعمل هنا كلمة خادم بالمعنى الذى كانت تحمله فى القرن السابع عشر، للإشارة إلى شخص حر يعمل فى قصر أحد الأمراء. كان ظاهر أغدى قد جاء من مكة المكرمة فى اليوم نفسه لاستقبالنا، و قد خلصه وصولنا المتأخر من ۲۱۷/، فلق كبير: كان الوقت قريبا من منتصف الليل، و كان يرتعد خوفا من أن يكون أصابنا أى مكروه.

و بالعظم دهشتى عند ما رأيت موظف أمير مكة المكرمة هذا يرتدى بزة أوروبية.

لقد رافقنى مصطفى أغدى للقيام بجولة فى البستان السور المسمى الحسينية، و هو ملكية زراعية أو رعوية للشريف الأكبر، اطلعت خلال الجولة على مشهد حقيقى من مشاهد الحياة العربية: كانت الملكية مسورة بإحكام من كل الجهات، و كانت المساحة الداخلية غير مسقوفة، و كان المولد يأتجج فى

الوسط، و قد وضع عليه قدر ضخم من النحاس. و كان هناك عدد من الخدم يذرعون البيت جيئة و ذهابا، يقومون على العناية بالطبخ؛ أما خدمنا فقد استقلوا حول النار متعبين من يوم شاق.

كان البستان فسيحا يتسع للجميع، و ظلت الهجن وحدها فى الخارج، و كانت قطع من الخشب الصمغى قد أشعلت بمثابة مشاعل، و تنشر فى المكان رائحة قوية طيبة، و انعكاسات حمراء لها مظهر رائع، و لم يأخر طعام العشاء:

كان عبارة عن خروف ضخم مسلوق كاملا؛ إنه خروف الضيافة الأصيلة؛ استخرجوه من قعر ذلك القدر، و وضعوه أمامنا فى جفنة .

ثم قام أحد العبيد السود بشقه إلى قسمين بضربة بطقان، و قامت أصابعنا بعد ذلك مقام شوكات الطعام، و نال الجميع أسيادا و ثيما نصيبهم من الوليمة. و عند ما انتهينا من الطعام قام الخدم بمد السجاد على الأرض الجرداء/ ۲۱۸/، و استلقينا عليه دون أن نخلع ثيابنا، و نمنا مختطفين، نلتحف السماء. لم يكن النهوض أقل روعة من النوم، و لكنه لم يكن مبكرا، و مع أن الجميع انتهوا بعد فترة وجيزة من الاغتسال، و كانت الشمس قد بدأت بالسطوع منذ زمن طويل عند ما كنا جاهزين للانطلاق. و كان عدد من عبيد المنزل أو بمبارة أدق: البستان، قد جيوا عند الاستيقاظ بالضرب على طبول صغيرة يحملونها معهم على الدوام.

و كان ينتصب أمام الحسينية جبل ثور حيث اختبأ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مع صاحبه المخلص أبى بكر رضى اللّه عنه فى الغار للإفلات من مشركى مكة المكرمة الذين كانوا يلاحقونهما، و تذكر إحدى الحكايات المحلية أن النبى داود عليه السّلام مدفون فى

هذا الجبل، و هناك عدد من الروايات المعروفة بهذا الخصوص. و إن لم تضربه، أو ما يسمى بذلك، مدحلة ضيقا، لا يدخل منه الرجل المتوسط القامة إلّا بصعوبة: و إن أولئك الذين يستطيعون تجاوز المدخل يصبحون واثقين من خلاصهم، أمّا الآخرون فإنهم لن يدخلوا الجنة أبدا. و يحكى فى مصر مثل هذه الحكاية بخصوص عمودين فى مسجد عمرو بن العاص فى القاهرة القديمة؛ إذ يحكى المصريون بخبث أن عباس باشا، عند ما حاول تجاوز اختبار المرور بين العمودين علق بين دعامات الاتهام، و كانت محاولة إخراجه من بينها من الصعوبة بمكانا و يستنتجون من ذلك بالطبع أنه سيعاقب فى الآخرة على الجرائم التى ارتكبها فى الحياة الدنيا/ ۲۱۹/.

انضم ظاهر أغدى إلى القافلة، و كان يمتطى بغلة كما يليق بأغدى مثله، و رافقنا حتى الطائف. سرنا فى البداية فى واد عريض جدا، محاط بعدد من الهضاب كثيرة الحجارة، و تغطيه رمال شديدة النعومة، و شديدة البياض، و كانت يقع أحيانا من العشب ذات اللون الأخضر الجميل تخفف من التماع الرمال، و كانت بعض الأشجار المنتشرة فى المكان تنشر ظلالا لا تقدر بثمن، لأن الحر كان قد بدأ يشتد.

كان هناك عدد من القنوات المائية تنشق الأرض، و تذهب لتصبّ فى حوض محفور فى الرمال لجمع الماء، و كان هناك بعض قطعان المواشى التى ترعى فى الجوار، ثم تأتى إلى الحوض لتروى عطشها: كانت قطعان من المعاز الأسود ذى الشعر الطويل، و من الأغنام الجميلة البيضاء، ذوات الآذان المسترخية؛ و من العجول و الأبقار من ذوات الحدبات، و هى أصغر من مثيلتها فى أوروبا.

و كان هناك أطفال شبه سود عراة تماما، يجرون على الرمل بين المواشى، و رعاة يقاربونهم فى السواد، و هم ملثمهم فى قلة الثياب التى يرتدونها، يكملون، و الرماح فى أيديهم؛ تلك القصيدة الرعوية العربية. كان لون جباههم داكنا، و كانت مثل خيام البدو كلهم مبعثرة بأعداد قليلة فى سفح الهضاب. قدم لنا أولئك الرعاة المتجولون، القادمون من الشرق، و الذين

يمرون من هنا، الحليب، فقبلناه و شكرنا لهم ذلك. إن أكبر إهانة يمكن أن توجهها للبدو هى أن تعاملهم معاملة تجار الحليب: إنهم يعطون حليب حيواناتهم و لا يبيعونه أبدا/ ۲۲۰/ تصبح البلاد بعد بضعة أميال أكثر انفتاحا، و تتجلى فى الأفق العيد الواسع سلسلة من الجبال.

كان الوقت ظهرا، عند ما وصلنا إلى سفح جبل عرفات الذى يقع على بعد ثمانية أو عشرة فراسخ إلى الشرق من مكة المكرمة، و هو المكان الذى تجرى فيه كما ذكرت سابقا المناسك التى تختم الحج. و كان ينتصب فى قمة الجبل عمودان يحددان المكان الذى يقف فيه خطيب مكة المكرمة، ممتطيا ناقة بيضاء، مزينة بزينة نفيسة، ليلقى الخطبة التى تعلن نهاية الحج، و التى ينتهى على الحاج سماعها ليحمل هذا اللقب.

إن هذا المكان المقدس فى الإسلام، الفاحل و الصحراوى، يكون فى ذلك اليوم مكانا لمشهد رائع؛ إذ يتزاحم فيه جمع هائل من المؤمنين الذين يجتمعون فيه فى زمن واحد، و يوجد هناك معسكر خاص بكل جنسية من المسلمين؛ فالعرب، و الأتراك، و السوريون، و الفرس، و الهنود، و المصريون، و المغاربة، حتى السودانيون، لكل منهم، معسكره الخاص.

و إن الأوروبيين الذين استطاعوا تأمل هذا المشهد العظيم أكدوا جميعا أنه ليس هناك ما يمكن أن يعطى فكرة عنه. يوجد هذا الجبل المقدس على أرض قبيلة قريش التى اكتسبت بذلك شرفا كبيرا، و تعد واحدة من أكثر قبائل الجزيرة العربية نبلا، و مع أنها اليوم قد تقلص عدد أفرادها إلى ثلاث مئة شخص. يا للغرابة! إن المسلمين الذين لا يتركون غير المسلم يرى رأس منارة من منارات

مكة المكرمة، و لو لمحا فقط، يسمحون له بالصعود بحرية إلى جبل عرفات، و باستكشافه على هواه. و لما ذكرت/ ۲۲۱/ ذلك التناقض للشريف حامد اصطفع أنه لا يفهمنى، و كان جوابه الوحيد أنه رفع صوته قائلا: «اللّه أكبر، و محمد رسول اللّه»، و لكن ذلك لم يكن يكفى للإجابة عن سؤالى.

لقد كان يجرى فى تلك الأحذ، نبع ماء بارد و نميرا و ذلك كثر لا يقدر بثمن فى تلك الصحراء، كان النبع يجرى من أسفل الجبل و يذهب إلى مكة المكرمة عبر قناة مغطاة، منيلة و مطيبة، و ينسب الناس شرف هذا العمل إلى السيدة زبيدة إحدى نساء الخليفة هارون الرشيد. و عند ما تجاوزنا المدينة المقدسة أدركنا لها ظهورنا و كان فى هذا الجانب من المدينة عدد من المقاهى كما فى الجانب الآخر، و بعد استراحة قصيرة فى مقهى عرفات الذى يقع فى أسفل الجبل الذى يحمل اسمه، و حيث وجدنا، و هذا شىء نادر، لبنا. ثابعنا طريقنا عبر وادى نعمان؛ و هو واد رملى، شديد الحرارة، تنتشر فيه جيبات شوكية، و نباتات جميلة جدا، لها أوراق سميكة، طولها من ست إلى ثمانى أقدام، و لها أزهار بيضاء و بنفسجية، بتلاتهاPe?tales ناعمة نعومة المخمل.

و عند ما يكسر سائقها يخرج منه سائل يشبع فى البلد أنه يذهب بالبصر. نسيت الاسم الذى يطلقه العرب على هذه النبتة؛ و يسمونها فى السودان حيث تنتشر بكثرة عشر Ochar ، و كان أحد الضباع الضخمة القابع وراء دخل قد هرب لدى اقترابنا منه، و ظل طوال مدة جريه يبدو و كأنه نقطة سوداء على رمال الصحراء الملتمعة. توقفنا ثانية/ ۲۲۲/ لاستراحة طويلة فى مقهى شداد الواقع فى أسفل جبل كرا، الذى كان طوال اليوم فى مواجهتنا، و الذى كان علينا الآن تجاوزه. كان علينا الترجل عن الهجن التى لا تستخدم وكريا لدى تجاوز الجبال، و هى فى الواقع ليست مهيأة لذلك. لقد كان على هجن قافلتنا أن تقوم

بالتفاف طويل كى تصل إلى الطائف. و أرسل لنا الشريف الأكبر بدلا منها ما يقارب خمسة عشر بغلا كانت تنتظرنا فى المقهى، و بينما كنا نعدهاء كان يطاف علينا من جميع الجهات بشراب فى صحيفة من خشب، و كانت أخبار وصولنا اجتذبت بدو الجوار. كانوا جميعا يرتدون أثوابا زرقاء، مشدودة، إلى الخصر بضفيرة من الجلد تلتف اثنى عشرة أو خمس عشرة مرة حول الجسد، تاهيك عن أنهم يتجدون حمالات سيوف مزينة بصفائح صغيرة من الفضة، موضوع بعضها فوق بعض على شكل حراشف الأسماك. أما الخنجر المغطوف الذى يسمونه هنا جنبية فقد كان موضوعا فى أحزمتهم، و كانوا يحملون فى أيديهم رمحا جميلا، قناه طويلة جدا، و مستقيمة، و مجلوة. أما العصا فقد كان يلتف حولها سلك من النحاس الأصفر المجدول بطريقة فنية، و كان بعضهم يحمل بنادق بفتيلة، كان أخمص كل منها مرصعا، و مرصعا بالعاج.

و كانت الكفيات الزرقاء تغطى رؤوسهم، و قد وضع عليها عقال أسود مصنوع من خليط من الشمع و الزبدة و الراتنج المعجونة معا، و تكون حواف ذلك العقال الخارجية مزينة/ ۲۲۳/ بعروق اللؤلؤ .

كان هؤلاء الرجال طوالا، مشتوفى القامة، و قسماتهم متناغمة، و بشرتهم سمراء داكنة، و كان يتهم أطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم عشرة أو اثنى عشر عاما، يلبسون كالرجال، و يتسلحون بمثل سلاحهم، و كانوا فى غاية الكياسة. لقد شد انتباهى السلوك الأبى و المؤدب فى الوقت نفسه لدى الرجال و الأطفال على حد سواء. كانوا يعتون بنا دون تجاوز حدود الاحترام، و كانوا يحدثوننا دون ارتباك، كنا نلمس لديهم الاستقلالية، و عزة النفس، و ضربا من النبل الفريزى الذى لم يستطع أى احتكاك بالأجنبى أن يفسده عليهم فى عمق صحرائهم.

ليس بالإمكان تقديم لوحة أكثر روعة، و لا استعراضا أكثر تأثيرا و مفاجأة. كانوا أول بدو أشاهدهم فى بيئتهم الحقيقية، و حملت لهم مذ ذلك

اللحظة احتراما و استطاعا لم تزدهما التجربة الطويلة إلّا تمكنا. و كانت إحدى قبائل الجوار باتجاه الجنوب، و التى آسف لنسيان اسمها، تدّعى بحق أنها تتكلم العربية الفصحى فى الجزيرة العربية. و بعد أن استبدلت آسفا كل الأسف بالهجان الزاحم الذى كنت أركبه بغلا، و بالرحل الحريرى المزين بالفضة سرجا من الجلد كانت له كثير من صفات الردعة. ركبت الطريق متأخرا. و كانت تضاريس الأرض قد تغيرت تماما: إذ حلت محل الرمل أرض صلبة و وعرة، كان يصدر عن حوافر البغال عند وقوعها عليها صوت يشبه صوت احتكاك المعادن. و بعد ميل على/ ۲۲۴/ الأكثر قطعناه فى أرض سهلية، دخلنا فى مضيق واسع فى بدايته، و لكنه يضيق بعد قليل متكمشا، و يرتفع تدريجيا، و تمتد على جانبه ككتل كبيرة من النضيد الرخامى بطبقات أفقية. كان جبل كرا الذى كنا جيتنا تتسلق أولى منحدراته ينتصب أمامنا، و كأنه يتحداناء كانت جوانبه متصدعة متشققة، و قمته جرداء و منحوتة على شكل قباب و رؤوس مسننة. إن الجبال التى لا تزال على حالة خلقها الأولى أكثر توحشا و وعورة من جبال العصور التالية. إنها هياكل من بداية العالم، كانت، كما نرى، عرضة للهزات و جعلتها الاختلاجات العميقة متعرجة، و هدمتها الاندفاعات الهائلة.

تلك هى طبيعة جبل كرا، كتلة جرانيتية انبجست فى بداية الخلق، مثل جبل سيناء، من أحشاء الكون. تمثاله الشمس كاملا عند غروبها، و تضفى فجأة على كل التموءات درجة إشراق الألوان الذهبية و السوداء، مما يمنحها انعكاسا مدهشا. كانت تلك اللحظة قصيرة و لكنها مهيبة. كان الضبّ قد بدأ يخيم على الأجواء السفلية من الجبل عند ما تلفت فرأيت بعيدا ورائى جبلا آخر منفردا، ضخما يغشاه أيضا حتى قواعده لون زهرى فاقع. يسمى ذلك الجبل كبكب، و هو واحد من أعلى جبال الحجاز. أرخى الليل سدوله مبكرا على المنظر/ ۲۲۵/ الرائع، و أدركنا فى أكثر مناطق المضيق الذى نسلكه و عورة،

و أكثرها توحشا؛ لقد أصبح ضيقا، و لا يتسع إلّا لمرور بغل واحد، و منحدرا لا يمكن التقدم فيه إلا ببطء شديد. كان فيه عقبات كثيرة، جعلها الظلام أكثر صعوبة أيضا، بيد أننا أدركنا بلا حواجز مقهى الكر ؟ و هو مكان واسع مسور بالأحجار بلا طين، و فى وسطه موقد مشتعل كما فى الحسينية، و لكن هذا الموقد ليس عليه أى قدر، و عليه، فليس هناك عشاء، مع أن الشريف كان قد أمر بأن نجد العشاء هناك جاهزا» و لكن يبدو أن الرسالة لم تبلّغ كما هى، أو أنها لم تبلغ أبدا. ثم يعدوا لنا أى حروف و لو كان صغيرا. و كنت على الدوام أذكك فى أن العبد «أبو سلامى» هو الذى فعل ذلك بنا على طريقته.

و كان على غاسياو الذى لم يجد منذ جدة ما يفعله أن يمارس مهاراته هنا.

و لكن الحقيقة أن ذلك لم يكن ليهمه كثيرا» لأنه كان علينا أن نرضى بالحليب و الأرز. ذهبنا، بعد هذا العشاء المتواضع، للنوم كل على سجاده، تحت قبة السماء، التى تزينها النجوم، و لما كنا قد وصلنا إلى الكر ليلا فإنى لم أستطع تبين ملامح المكان الذى كنا فيه. و رأيت فى الصباح أننا فى قعر حفرة ذات فوهة واسعة، جدرانها شديدة الانحدار، و جوانبها مسننة برؤوس تتفاوت فى حدتها/ ۲۲۶/ و كانت رؤوس تلك المسننات عند ما انطلقنا نضاء الواحد تلو الآخر حسب علوها بضوء الشروق، و كانت بعد جزم القمم، قد بدأت تتسرب على طول التموءات الصخرية العليا؛ إلّا أن عشة الشفق ما زالت تغشاناء و كنا بحاجة إلى عدد من الساعات للوصول إلى المناطق التى تضيئها الشمس. كان ينبغى ألّا نشكو مما قاسيناه من مصاعب، لأن الصعود الشاق الأبى سيجعل ذلك ذكرى جميلة، و قد كان يمكن أن يكون أكثر الصعود أكثر صعوبة لو أننا لم نبادره فى جو بارد. و هذا ما كان الشريف حامد خططه له بدقة. و مع أن جبل كرا أقل ضخامة، و أقل هولا من جبل سيناء، فإنه يذكر به، بوعورة طرقاته، و بقحطه. لعله، شأنه شأن جبل سيناء، قد تعرض لهزة عميقة؛ لأن الصدعات الواسعة و التهدمات التى تنتشر فيه و تكثر، هى آثار لا تدحض

لزلال عنيفة خربته. لم أر في امتداده كله شجرة واحدة، هناك بعض الجنيبات الشوكية، و بعض من أشجار السرو القزمة التي تظهر على مسافات متباعدة عبر الصحور. كان الطريق في كل الاتجاهات متحدرا و وعرا كل الوعورة في بعض المواضع، و إذا رأيته من الأسفل فإن سلوكه يبدو مستعصيا أبدا. لقد وصلنا على أية حال إلى نهايته بفضل خطوات البغال الواثقة، و نفهم لماذا لا تستطيع الجمال سلوكه هذه الطريق. إن مدفعية محمد علي، إبّان حرب الوهابيين/ ۲۲۷/، استطاعت مع ذلك تسلق هذه المنحدرات الوعرة، و ما زالت على الطريق الجانبة آثار بعض الأعمال التي نفذت في ذلك الوقت لجعل الطريق سالكة. بل تم في بعض المواقع تعبيده مما جعله اليوم أكثر صعوبة:

لأن الزمن و الأمطار أزالت ذلك التعبيد، و لم يتم إصلاحه بعد ذلك أبدا، و قد تحولت مواد التعبيد اليوم إلى أحجار متحركة، و إلى أفخاخ مزروعة عمدا تحت أقدام المطايا. و قد بلغت الصعوبات في بعض الأحيان حدا كان ينقضي الترجل عن البغال، و إنزال كل الأحمال عنها، كانت البغال منتشية بالأرض، تتزلق إلى الوراء، تكاد تسقط في الهوة، لو لا أن البغالة كانوا يسندونها، و كانوا عالبا مضطرين لحملها. أما عرب المرافقة فكانوا حفاة الأقدام، يقفزون من صخرة إلى صخرة، و كأنهم من طباء الجبال، و كان يمكن لهم أن يخلقوا وراءهم بسافة طويلة، لو لا أنهم كانوا يتوقفون غالبا لانتظارنا.

كانوا، و هم جالسون أو واقفون على رؤوس الصخور، يحفون الحياة في الطبيعة القاسية التي كانوا سمة من سماتها الأساسية.

وجدنا أنفسنا بعد ساعتين أو ثلاث من الصعود المتعب، و كأننا للتعويض عن ذلك التعب، و مكافأة عليه مستحقة، أمام نبع عذب محمي تحت كتلة ضخمة من الجرانيت و محاطة بالمعاتج، و الزقوم Absinthe ،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۲۲

و الخزامى، و نباتات أخرى ذات رائحة عطرة/ ۲۲۸/. كان الشريف حامد على غير عادته قد سبقنا بما يقارب مئة خطوة، و أعدّ لنا هناك قرب النبع و جبة طعام بسيطة، كان ماء النبع البارد و التمير أبازيره المناسبة. و ظهر في إعداد الوجبة ما عرفناه من أناقة الشريف في كل أفعاله. كان النظر من هذا الموضع يقع، إذا نظرنا إلى الخلف، على هوة واسعة من الحجر خرجنا من قعرها الذي تستطيع العين بهلم أن تقدر مدى عمقه؛ إذ تنتشر في كل مكان شعاف جرداء، و جروف شاسعة، و منحدرات مذهلة. كان يشبع في تلك الطبيعة المخيفة صمت عميق، لا يقطعه إلاّ أصداء بعيدة لأصوات بعض الرعاة الذين لا نراهم. و في الأفق البعيد نحو الغرب، و فيما وراء تلك الشعاف، كان يقبع بجلاله و انفراده جبل كيكب الرائع الذي بدا لي في مساء اليوم السابق، و قد غشاه لون وردي جميل. أما الآن فيغشاه لون أزرق لامع، أكثر غمقا من لون السماء، كان ينتصب في الأفق و كأنه جدار من الفولاذ الأسمر.

أمّا جبل كرا فيسكنه نزلاء أكثر حبا للسلم، أعني القرود التي يحمل كل ما يمكن القبض عليه منها إلى مكة المكرمة، و يحملها الحجاج معهم من هذا المكان إمّا إلى دمشق و إمّا إلى القاهرة حيث رأيت عددا منها يصل إثنان الحج الأخير/ ۲۲۹/، و لكنني في مقابل ذلك لم أر أيا منها حرا متوحشا في الطبيعة. و يروي الناس بخصوصها حكاية، يضحك العرب لها كثيرا؛ إذ يروى أن المطر أصاب بضاعة أحد تجار الطرابيش فبلّلها، فنشرها في الشمس لتجفيفها؛ و ما إن رأت القرود ذلك حتى هرعت من كل أنحاء الجبل، و كم كانت دهشة التاجر عند ما رآها تتوالب حوله، و قد اعتصر كل واحد منها طربوشا. و تشيع دعابة مماثلة في الموالي، الحرية الأوروبية يفارق بسيط هو أن الطرابيش تتحول في الحكاية الأوروبية إلى قبعات من القطن .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۳۳

كان الطريق من النبع إلى ذروة جبل كرا أكثر و عورة و خطرا، و في النهاية، و بعد ثلاث ساعات أو أربع من هذا السير الشاق، وصلنا قمة الجبل، و أصبحنا تحت أشعة الشمس التي كان الجبل نفسه يحمينا منها. إن أول ما يلفت النظر هو المجرى المائي الصافي الذي كان ينظرنا على جانبه مفاجأة أخرى، بل إكرام آخر. كان هناك في استقبالنا أحد أشراف المنطقة ممتطيا هجينا أبيض، و كان معه في انتظارنا أيضا شريف آخر اسمه سليم، يمتطي فرسا بيضاء، أرسلهما الشريف الأكبر من الطائف مبالغة في إكرامنا. كان يلتف حولهم ستون/ ۲۳۰/ من البدو، من قبيلة هذيل المشهورة بالشجاعة، و كانوا يرتدون ثيابا تشابه تماما ما كان يرتديه البدو في مقهى شداد، و هم مسلحون أيضا بالخناجر و الرماح و البنادق ذات الفتيلة. كانوا مشهورين بأنهم أمهر الرماة في الصحراء. لقد استطاعوا على طريقنا بكل الاحترام الذي يليق بضيوف أميرهم، و لكن بغير نظام، و لا انضباط، و كأن كل منهم كان يفعل ما يحلو له، و يزاوله الشخصية. حدث كل ذلك في صمت مطبق: لم يصدر عن البدو أي صيحة، و الشريفان لم ينبسا ببنت شفة؛ و اكتفيا بالسلام علينا كما يسلم الشرقيون بوضع اليد اليمنى على الصدر، ثم على الفم، ثم على الجبهة. رددنا السلام بالطريقة نفسها، ثم قادتنا بعد ذلكثم يرافقنا ستون من البدو، إلى بيت مجاور أعدّ لنا.

كان اسم المكان الهدي، و كان قد أسس المنزل أو يسكنه على الأقل أحد المارقين من أهل موسكو لم أستطع الحصول على أي معلومة عنه، و علمت بعد ذلك بالمصادفة في القاهرة من أحد اليونانيين، و كان يعرفه، أنه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۳۴

من قدامى ضباط الحرس الذين تورطوا في الفتنة العسكرية عام ۱۸۲۵ م، عند ما تسلم العرش الإمبراطور نقولاNicolas . ثم أقلع في الهرب و لجأ إلى إستانبول، و لكن السفير الروسي ألح في طلبه، و خوفا من أن تستجيب الحكومة التركية الضعيفة للمطالب المتكررة/ ۲۳۱/ لجأوا القوي، اعتنق الإسلام لكي يفلت من ثأر القيصر. و لما أصبح يتمتع بالحصانة بسبب تخليه عن دينه، فإنه ذهب للإقامة في الحجاز حيث قضى فترة طويلة، ثم قضى أيامه الأخيرة في الأناضول. و مع أن أوروبيا كان يسكن ذلك البيت، فليس فيه ما يذكّر بأوروبا: كان مرصعا جدا، مبنيا بالحجارة فقط، تمتد أمامه مصطبة، و يحيط به عدد من الأقنية التي تظل غرفاته عليها.

كانت الغرف الرئيسية في الطابق الأرضي، و كانت مغطاة بالبسط، و قد أعدت لتستريح فيها، خلوت بنفسي بضع ساعات للاستظلال، بل قل للاستراحة؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يتحمل الحركة و اختلاط الأمور في منزل صغير، حقّ فيه رحالهم ما يقارب مئة رجل مسلح. لم يستطع الجميع دخول المنزل، بل ظل كثير منهم في الخارج، مستلقين على الأرض، أو يجلسون القرفصاء بمحاذاة الجدران، أما الآخرون فقد كانوا يتزاحمون في فناء المنزل.

لقد أكلنا و شربنا هذا الجمع الغفير كله كيفما اتفق. أما نحن فقد قدّم لنا في البداية اللبن، و له لدى العرب استخدامات كثيرة، و المعروف أنه صحي جدا في تلك الأجواء.

ثم حملوا إلينا بعد ساعتين جبلا من الرز يعلوه خروف ضخم مشوي، يحمله عبدان يتودان بحمله، ثم وضعوه أمامنا. دعونا الشريفين لمشاركتنا الطعام، و ها نحن جميعا جالسون على شكل دائرة، و أقدامنا/ ۲۳۲/ متصالبة حول هذه الجفنة الضخمة. كنا سعداء، و كانت شهيتنا مفتوحة، و لما شبعنا نحن السبعة كان الطعام لا يزال وفيرا، و ذهب ما بقي من المائدة إلى المعتبين. كانت الساعة حوالي الثالثة عند ما فكرنا بالانطلاق؛ لأن الوصول إلى الطائف كان يحتاج أربع ساعات على الأقل. لم يرافقنا شريف الجبل و رجاله من البدو، و تمت مراسم الوداع من الجانبين بالمراسم و الصمت اللذين سادا عند الوصول.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۳۵

انضم إلينا الشريف سليم وحده كما فعل ذلك في اليوم السابق ظاهر أقدامي في الحسينية: كان الشريف سليم على رأس القافلة ممتطيا فرسه البيضاء، و قد اكتشفنا خلال الطريق مدى نقاء و ورعه. توقف في المغرب و العشاء، و مد سجادة الصلاة على جانب الطريق، و سجد فوقها متجها باتجاه مكة المكرمة، و أدى الصلاتين في موعدهما المحدد. و لما لم يكن هناك ماء، فقد تيمم بالرمل، كما رخص القرآن بذلك للمسلمين كافة.

إن قمة جبل كرا مستوية، و تنتشر عليها بين كل مسافة و أخرى مخارط جرانيتية، واضحة، و منتظمة حتى لتظن أن يد الإنسان قد نحتتها. و تبدو من بعيد حقول الشعير و القمح؛ و تكثر في هذه المنطقة الأشجار المثمرة التي تعيش في أجوائنا الأوروبية، و خصوصا أشجار المشمش/ ۲۳۳/ و الدراق و الفوز، و تعطي غلة وافرة، و ليس هناك أشجار نخيل أو برتقال لأن جبل كرا المعلوه غير مناسب لها. أما دوالي العنب فإنها تنتج عنبا من أفضل الأعناب و أحلاها. لقد اختل مقياس الضغط الجوي لدينا خلال الرحلة، و لم يكن باستطاعتي تحديد درجة ارتفاعنا عن سطح البحر؛ و لكنني لا أبالغ، حسب الصعود الطويل و الشاق، إذا قلت إننا كنا في هذه النقطة على علو ۱۶۰۰ أو ۱۷۰۰ متر؛ مما يجعل درجة الحرارة في هذه النقطة تقارب درجة الحرارة المتوسطة في بلادنا؛ لذلك يأتي إلى هذا المكان سكان مكة المكرمة خلال الصيف بحثا عن الخضرة و البرودة. لقد وجدت أن للمكان شبها بلقت الظهر بعض أقسام جبال الألب الوسطى في فوسيني Faucigny ، و بصخرة إيطاليا الكبيرة Grand -Rocher D'Italie في أبروز Abruzze .

كنا لبعض الوقت نسير في منطقة سهلية، ثم تأخذ بالتموج و الاضطراب أكثر فأكثر؛ اختفت الأراضي المزروعة ليحل محلها الرمل، عدا بعض طاقات العشب التي تظل برأسها بصعوبة، لتكون جيئذ مرعى للأغنام الهزيلة، ثم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۳۶

تختفي المزروعات تماما، و ترهص كتل الجرانيت الضخمة المتراكبة فوق بعضها بنهاية الأرض السهلية.

بدأنا بالانحدار، و لكن، باستثناء بعض المنحدرات الشديدة بعض الشدة، و بعض الممار التي كان في عبورها شيء من الصعوبة، فإن هذا الجانب لا علاقة له البتة/ ۲۳۴/ بالجانب المقابل، و إذا قورن به فإنه سيكون بمثابة انحدار صغير. و قد كان بإمكان الهجين أن تسير عليه بيسر و سهولة. كان هناك منحدر أول، يتبعه شعب رهلي مستو كل الاستواء، محصور بين هضبتين منخفضتين، و ينتصب في آخره حصن مهدم كان فيما مضى مخصصا لحماية القوافل. و لم يعد اليوم يستخدم إلّا لتزيين المشهد، و سكن الجوارح التي تخفي فيه أو كارها. لقد كان الأفق حتى هنا مغلقا، ثم انفتح فجأة، كما لو أن ذلك تم بفعل السحر. لقد انبسط أمامنا سهل ضخم دائري، و لكنه كان أكثر انخفاضا من المنطقة التي كنا فيها و تحيط به من كل الجهات سلسلة جبال غروان الجرداء؛ و هي جبال متساوية العلو تقريبا، و لكنها تتفاوت في أشكالها، و كانت كلها جيئذ يغشاها لون السماء الأرجواني. و كان شيء من البياض يبدو في وسط السهل: إنها الطائف. يؤدي منحدر ثان أقل انحدارا و قصرا من الأول إلى وادي القرن الذي كان مرصعا بالروضات، و تشقها كلها سواقي المياه التي تدل على أن الشعب الذي يسكن المكان شعب حاذق.

قابلنا طوال الأمسية كثيرا من العرب المسلحين في الجبل، و قابلنا أكثر منهم أيضا في الوادي، و لكنهم بلا سلاح، و يعملون بسلام على استخراج الماء؛ ترى روضاتهم أو لسقاية قطعانهم/ ۲۳۵/، و كان الجميع يتركون أعمالهم عند اقترابنا منهم، و يقبلون للسلام على الشريفين و علينا بطريقة غير مباشرة.

كانت رؤوس هؤلاء البدو المزارعين الذين هم أكثر سوادا من بدو حدّة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۳۷

حاسرة، و كان كل ما يلبسونه ثوبا قصيرا من الكتان الخشن. و كان كل شيء يوضح أنهم يعيشون حياة ريفية شاقة، و أنهم يتمتعون بلطف فائق، و بطباع و عادات غاية في البساطة. كانت تبدو في عيونهم و هم يرونا نمر أمامهم علائم الدهشة و الفضول في بعض الأحيان، و ليس علائم العدوانية أو الضغينة، و لم يكن ثمة أي ظل من التعصب.

لم يكن علينا بدءا من هذه المنطقة أن نتحذر؛ لأن الطريق كان يخرج في بعض المواضع، و لكنه كان ليّنا جدا، و كانت حوافر البغال تتغمس بكاملها في الرمال، و كانت تسير ببطء شديد مما أخر سيرنا. أدركنا بعد قليل ليل دامس، و لكنه مرصع بالنجوم؛ و كانت هناك بعض الأعشاب الشوكية التي تنتشر حولنا، و تقف في طريقنا، و تعلق رؤوسها الحادة بيراننا و عباءاتنا.

وصلنا أخيرا إلى أسوار الطائف، كانت الساعة السابعة مساء، و كان الباب مغلقا، و لكنه انفتح لحظة وصولنا، و كأننا بفعل السحر، لأننا لم نر أحدا يقوم بذلك. دخل الشريف سليم أولا، و كان مقدّما. كان مركز الحراسة التركي المؤلف مما يقارب اثني عشر جنديا من المشاة في رتل واحد، و قد تقلدوا السلاح تأدية تحية الشرف عند مرورنا/ ۲۳۶/ و لما دخل الجميع تحركت مفاصل الباب من جديد، و انغلق كما كان قد انفتح. فاتني القول: إن ظاهر أقدامي سبقنا قبل ميل تقريبا من الوصول إلى الطائف، ليخبر الشريف الأكبر بوصولنا البيمون، و لكي يتأكد بنفسه بلا شك من أن كل شيء يتم كما ينبغي. رأينا كيف تم كل شيء، على أحسن حال، و سنرى في الفصل التالي أن كل شيء سيتم لاحقا بأحسن مما سبق.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۳۹

الفصل العاشر الطائف

عرنا قسما من المدينة الغارقة في الصمت و الظلام، و قادنا الشريف سليم مباشرة إلى المنزل الذي جهزوه لإقامتنا: كانت تشتمل على بابه عدة مشاعل، و اصطف لدى الباب أيضا حرس مكون من عبيد منزل الأمير، و هم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۰

يلبسون و يتسلحون كما كان الرجال الذين يرافقوننا يلبسون و يتسلحون، ناهيك عن جندي انكشاري يحمل عصا في رأسها كرة من الفضة، و كأنه من حرس الكنائس أو القناديل السويسريين. و عند ما ترجلنا جاء إبراهيم أغا خازن الشريف الأكبر حتى الشارع لاستقبالنا/ ۲۴۷/، و أدخلنا إلى مجلس مستو يطلّ على الفناء، الذي كان في واقع الأمر امتدادا له، و لا يتميز منه إلّا بأنه مغطى، و أكثر ارتفاعا ببعض درجات. كان الفناء مرصوفا ببلاط كبير، و في وسطه بركة من الرخام الأبيض فيها نافورة مياه، و كان هناك دالية تعرش على طول الجدران. كان المجلس مفروشا بسجاد أحمر و أسود جميل، و تنتشر فيه أرائك من الحرير الأخضر المطرز بخيوط ذهبية.

و كان هناك أربعة قناديل مضاءة تتدلى من السقف، و شمعدانان ضخمان، يبلغ علو كل منهما ثماني أقدام، يتلألآن في ضوء الشموع، و عبدان أسودان يلبسان ثيابا فاخرة، و يرتجان برصانة مبخرتين زاخرتين بالعود، و تنبعث حولنا عند دخولنا سحابة من البخور؛ و هو تقليد لا يقومان به إلا عند استقبال شخصيات مهمة. لقد هيؤوا لنا كراسي أوروبية. و ما كدت أجلس حتى أحضر عبدان الإبريق لغسل اليدين، و بينما كان أحدهما يصب الماء الفاتر على يدي من وعاء جميل، كان الآخر جاثيا على ركبتيه أمامي، و هو يحمل إبريقا عريضا ذا قعرين، مثبتا في وسطه كوب صغير لوضع الصابون؛ و كان في القعر الأول ثقوب متعددة يتسرب منها الماء، و يختفي في الداخل.

قدّم لي بعد ذلك فوطة طويلة من الكتان، مزينة بالأهداب، و مطرزة/ ۲۴۸/ بالذهب من الطرفين. تلك الأشياء كلها: الإبريق، و الوعاء، و المبخرتان، و الشمعدانان، و القناديل، مصنوعة من الفضة المصمتة، المرصعة بمهارة، و قد جلبت- شأنها شأن بقية الأشياء- من منزل الشريف.

و عند ما قدّر القائمون عن خدمتنا أننا نلنا قسطا كافيا من الراحة انفتح باب في صدر المجلس، و ظهرت لنا طاولة أعدّت على الطريقة الأوروبية؛ مع الصحون، و غطاء المائدة، و السكاكين، و حولها الكراسي؛ أي كل الأشياء المجهولة في الشرق حيث يأكل الناس جلوسا على الأرض، و تقوم أصابع

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۱

المدعوين مقام كل الأشياء الأخرى. كانت الشوكات من الحديد، و لها قبضات من العاج، و الملاعق كانت من المحار المرصع بزخارف ذهبية.

كان العشاء يزخر بأنواع الأطعمة المحلية، جاء أولا الحروف الذي يعدّ من عادات الضيافة، كان محشوا بالرز، و اللوز و الفستق. ثم تلته أوراق العنب المحشود، و الكباب؛ و هو قطع من اللحم مربعة و مشوية على السفود، و عصائر الورد المختزَلة المطبوخة مع صدور القرانيح أو الخراف، أتت بعد ذلك كله تشكيلة متنوعة من الحلويات تسمى «القطير» ناهيك عن الأشياء الأخرى العجيبة؛ كان كل ذلك مثيلا بالأعشاب المطبوبة المقطعة في الخل، و له صلصة بالكريما المطيبة بالتوابل؛ و هو خليط كان يثير الرعب لدى بدر الدين حسن؛ الحلواني المشهور في «ألف ليلة و ليلة». ثم أعلن تقديم اليلاف نهاية العشاء الذي جرت مراسمه بسرعة كبيرة.

كان الساقي/ ۲۳۹/ يحمل دورقا، أو قلّة، مملوءة بالماء البارد يطوف به في كأس من الفضة يشرب الجميع منها، و لست بحاجة للقول: إن النبيذ لم يكن موجودا؛ و لكن القائمين على خدمتنا كانوا يعرفون عادة المسيحيين، فقالوا لنا بلطف: إنه لا ينبغي أن نخجل من ذلك؛ إذا كنا نحمل معنا، و قد كنا في واقع الأمر قد اتخذنا الاحتياطات لذلك؛ إذ أننا لم نشربه إلا في غرفنا الخاصة احتراما لمستضيفنا.

و لمّا انتهى الطعام، عدنا إلى المجلس لشرب القهوة و التدخين، و في جوالي العاشرة قادونا إلى الحر ملكك في الطابق الأول حيث أعددت لنا مبالغة بالاهتمام أسرة أوروبية. و كانت النساء قد غادرن المنزل في الصباح ليخلين لنا المكان، و مع أنهن غائبات فإن كل شيء في البيت كان يذكّر بهن. كان هذا البيت من أجمل بيوت المدينة، و يمتلكه تاجر غني من أصل هندي اسمه محمد سيد شمس ، و كانت أصداله في مكة المكرمة، إلا أنه كان في تلك الفترة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۲

يسكن الطائف، و وضع بينه تحت تصرف الشريف من أجلنا، و ذهب مع أسرته كلها إلى منزل آخر، و كان في الأسرة ثلاثة أجيال ابنه عبد الله، و حفيده عبد القادر الذي يذكرني، سنه، و صورته، و ثيابه، بشيء آخر يحمل الاسم نفسه؛ إنه ابن فراج يوسف في جدة، و قد كان هنديا مثله.

إن اسم عبد القادر الذي اكتسب شهرة واسعة في قرننا هو اسم ولي من أكبر/ ۲۴۰/ أولياء المسلمين، و هو شائع جدا في الشرق. كانت الأجيال الثلاثة في استقبالنا عند وصولنا. و لكن ابن محمد شمس وحده هو الذي لبى دعوتنا للعشاء، بينما ذهب الجد بسبب كبر سنه، و الحفيد بسبب صغره إلى النوم في ساعة مبكرة. و تناول الشريف حامد طعام العشاء معنا، و لكن الشريف سليما الذي أنجز مهمته استأذن منا للذهاب إلى منزله للاستراحة.

و باستثناء واحد أو اثنين من خدم المنزل، كان الجميع قد قدموا من بيت الشريف الأكبر الذي تخلى لنا عن طباخه الخاص، و استغنى عنه طوال مدة إقامتنا في الطائف؛ لقد كان فتانا حاذقا، أصله من إستانبول، و أخذ عنه غاسارو عددا من وصفات المطبخ المحلية، و حضرها لنا فيما بقي من الرحلة.

و كانت طاولتنا في كل يوم عامرة بأنواع المآكل التي كانت في اليوم الأول.

و جاء في اليوم التالي القائمون على خدمتنا يتلفون رغباتنا فيما نود أن يقدم لنا في الفطور كما لو أننا كنا في بيوتنا، و يقوم على خدمتنا خدمنا الخاص. و كان جوابنا، أننا لا نأكل في الصباح إلا قليلا؛ فقدموا لنا في صحون صغيرة الحجم و جبة طعام خفيفة من الزبدة الفاخرة، و الجبن الطازج القليل الملح، و الفواكه، و الزيتون، و العسل الفديد، و تشكيلة من المربيات

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۳

من كل الأنواع تم تحضيرها في منزل الشريف الأكبر بعناية نسائه. إن الرقيق في الشرق، و خصوصا الحبشيات، ماهرات جدا في هذا المجال، و تشرف السيدات/ ۲۴۱/ عادة على عمليات الإعداد المهمة. و هذه واحدة من أكثر وسائلهن براءة لتنفيسة الوقت، و هو أمر مهم لهؤلاء السيدات اللواتي لا يقمن بأي عمل. و تنافس الحريم في هذا المجال بعض الأديرة الإيطالية حيث تكشف الراهبات عن مواهب جليلة في هذا النوع من الأعمال، و يتمتعن بشهرة مستحقة. و إن راهبات دير لامارتورانaMartorana في بلرم Palerme ، و أخريات غيرهن، يتركن ذكريات لطيفة في ذاكرة كل المسافرين. و إن للرهبان اختصاصاتهم أيضا؛ إذ يصنع كثير منهم، كما هي حال رهبان دير غرونوبل الكبيرLa Grande -Ghartreuse de Grenoble ، ماء ورد لا نظير له.

يقيم الشريف الأكبر في قصر يبعد نصف ساعة عن المدينة، بناه في عمق الصحراء، و كان لا يكاد يغادره، و أرسل لنا خيولا لتحملنا إليه. كان اسم حصاني «صبير» باسم المنطقة التي جلب منها، و كان فحلا رائعا أسود اللون، يشتعل حيوية و نشاطا، و كان وديعا، شأنه شأن الخيول العربية كلها، و يستطيع الطفل ركوبه. أما السرج الذي كان مكسوا بالصوف الأزرق، و موشى بخيوط ذهبية رفيعة، حسب الطريقة التي يستخدمونها في إستانبول، فقد كان ذا ثمن باهظ و روعة تليق بالأمراء حقا.

كان الجندي الانكشاري يسير في مقدمة الموكب، و هو يحمل عصاه الطويلة ذات المقبض الفضي، و كان يرافقنا عدد كبير من الحراس؛ منهم الفارس و الراجل. و كان سائس خيل الشريف يسير أمامي، و هو يرتدي الثياب الخاصة بالمناسبة. إن لسائسي الخيول عند العرب منزلة عالية، و تحضر وظيفتهم الأساسية في الحرب/ ۲۴۲/ على أقدامهم أمام حصان السيد أو هجائه، و مهما كانت سرعة الحصان أو الهجان فإنه لا يرتضي لنفسه أن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۴

يسبقه، و قد اعتاد السائس الذي أتحدث عنه أن يسير أياما طويلة أمام هجان الشريف الأكبر.

إن قوة هؤلاء الرجال عجيبة، و إن لهم قدرة على السير خارقة، و رئتين من فولاذ. و يضرب الناس مثلا في القوة و السرعة بأحد ساسة محمد علي الذي جرى بلا انقطاع أمام هجان الباشا طوال الطريق من القاهرة إلى السويس، ثم سقط ميتا عند الوصول. عبرنا السوق (البازار)، حيث كنا بالطبع محل اهتمام فضول العامة. لقد كنا أول الأوروبيين الذين قدموا إلى الطائف علنا باستثناء، فضل فرنسي مريض جاء إلى الطائف للاستشفاء بدعوة من الشريف الأكبر. و كان فيها أيام حرب الوهابيين عدد لا بأس به من الأوروبيين من أطباء أو غيرهم في خدمة باشا مصر . و قد جاء إليها بسبب أعمالهم المتنوعة عدد من الأوروبيين في ذلك العصر، و لكنهم كانوا جميعا يرتدون زي العثمانيين، و يحتفظون بهم. أما أنا فقد كانت هويتي المسيحية شبه ظاهرة لأنني احتفظت بالزي الأوروبي، باستثناء الطربوش، و ارتديت فوق الزي الأوروبي لكي أبدو أكثر احتشاما، عباءة فضفاضة سوداء، كنت قد اشتريتها في جدة.

خرجنا من المدينة عبر باب الريع، و قدم لنا الحرس التركي/ ۲۴۳/ التحية العسكرية، كما حصل عند وصولنا. و ما كدنا نتجاوز أسوار المدينة حتى وجدنا أنفسنا نسير بين خرائب ضاحية قديمة تهدمت، و لم يعد بناؤها أبدا ، ثم نبدأ الصحراء بعد ذلك، و يقوم غير بعيد على قارعة الطريق مسجد

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۵

متقرد ترتفع فوقه مئذنة بيضاء.

إن لمظهر قصر الشريف بعض الأناقة، و لا ترى العين فيه أي تناسق.

و هو ليس ضخما و لا أنيقا، إنه خليط غير متناسق من الأبنية المتجاورة بدون نظام، و التي أقيمت بلا مخطط، و لكن يحيط بها سور واحد، و من المؤكد أنه واسع من الداخل إذا احتكمنا إلى العدد الكبير من السكان الذين يضمهم بين جنباته.

ليس للشريف الأكبر إلا امرأة واحدة شرعية، كما هي العادة اليوم بين المسلمين، و لكن حرمه يعج بما يقارب ستين جارية من السود أو البيض، و عدد لا يقل عن ذلك من الخدم الذكور، ناهيك عما يقارب مئة من الخصيان أو غيرهم مكلفين أعمالا مختلفة. أجهل عدد أبنائه، إلا أنني لمحت أحدهم و كان جيئذ يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، و الذي وافته المنية بعد ذلك الحين، و كان يرتدي ثوبا من الحرير الأصفر. يمتلك الشريف الأكبر ثروة ضخمة؛ لأنه استرد ثروة أبيه غالب كلها، و يزعم الناس أن في خزانته مئة مليون فرنك، ناهيك عن أنه يتلقى منحة سنوية من إستانبول تتجاوز ۴۰۰ ألف فرنك، و يزعمون أيضا أنه، و هو بعيد بناء قصر والده الذي دمره/ ۲۴۴/ محمد علي، وجد بئرا مليئة بالذهب أخفاه فيها جده الشريف مساعد.

و لمّا وصلنا إلى القصر كان يجتمع هناك أكثر من ثلاث مئة بدوي، يرتدون قمصانا زرقاء، هي لباسهم الوحيد، و كان أطفيهم قد وضع فوق الثوب على الكتف و شاحا أرجوانيا، و كانت أخرجتهم من الجلد، و حمائل سيوفهم مزينة بصفائح الفضة، و عماماتهم مزينة بالأصداف، لقد كانوا يشبهون في كل شيء بدو هذيل الذين رأيناهم في جبل كرا، و كانوا مثل أولئك يحملون خناجر معقوفة، و رماحا، و ينادي من ذوات القبائل، و كانوا جميعا حفاة، يميلون إلى النحول. و لكنهم كانوا عموما ذوي قامات ممشوقة، يتمتعون بالرشاقة و كأنّما قلوا للسير و التعب، و كان بينهم كثير من السود، الذين لا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۶

تكاد تلحظ سواد العرب أمام سوادهم. اصطف هذا الجيش المتعدد الأعراق على جانبي الطريق لتحيتنا، ليس كما يصطف الجيش النظامي، و لكن بنوع من الفوضى التي تسود بين الرجال غير المنظمين. رددنا لهم التحية حسب تقاليد البلد، دون أن نرفع أيدينا حتى الرأس لأن مثل هذا التقدير لا ينبغي إلا للأمراء، أو الأقران الذين نود تشريفهم. إن كل شيء، في الجزيرة العربية، كما في الشرق كله، له قوانينه المحددة، و كل شيء يحكمه العرف، و إن بين أبسط أمور/ ۲۴۵/ الحياة فوارق دقيقة ينبغي التقاطها للالتزام بها.

نصعد إلى القصر عبر مدخل له درج مؤلف من سبع أو ثماني درجات، استقبلنا عنده كلّ من إبراهيم آغا الذي كنا قد عرفناه من قبل، و كبير الخدم، و بقية العاملين في بيت الشريف الأكبر. و وجدنا بينهم صديقنا القديم ظاهر آغادي الذي كان لباسه الأوروبي يتباين ثابتا واضحا مع الأثواب الفضفاضة، و المخطورة، و البهية التي كان يلبسها الآخرون. كان المدخل يعج بالخدم، و خلعنا أحذيتنا فيه كما تقتضي الكياسة. إن آداب اللياقة في هذه النقطة محكومة بقوانين هي عكس قوانيننا تماما: إن الرجل الذي يأتي المجالس في الشرق متعلاّ حذاءه، حاسر الرأس، يترك الانطباع الذي يتركه الأوروبي إذا دخل الصالون حافي القدمين و القمحة على رأسه. و لكنني في هذه العادة أرى أن الحق مع العربين الذين يكشفون القسم النبيل من جسدهم (الرأس) و يغطون القسم الأدنى (القدمان).

أدخلونا مجلسا صغيرا، بسيطا كل البساطة؛ كان سقفه مطليا، أما الجدران الداخلية فقد كانت عارية تماما، إلا من حسام تركي رائع، أهداه السلطان للشريف، مرصع بالأحجار الكريمة، و كان معلقا على الجدار و كأنه لوحة. لقد كان الزينة الوحيدة في ذلك المجلس.

كان السجاد نفيسا/ ۲۴۶/ و الأرانك من الحرير الأخضر الموشى بخيوط الذهب، كتلك التي كانت موجودة في المنزل الذي نقيم فيه، و التي أتت بالطبع من المصدر نفسه.

لم يكن الشريف في المجلس عند ما دخلناه، و إليكم السبب؟ إن كونه الشريف الأكبر، و أمير مكة المكرمة يحتم عليه ألا ينهض لأحد إلا للسلطان

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۷

الأكبر الذي ينهض هو بدوره له. و إذا أراد الشريف إكرام أحد زواره فإنه يحرص على ألا يكون موجودا في المجلس عند دخول الزائر، لكي لا يستقبله جالسا؛ فهو لا يدخل إلا بعده، محافظا بهذه الطريقة على أصول اللياقة، و محتفظا أيضا بما يتميز به.

و قد جرت الأمور معنا بهذه الطريقة؛ لقد خرج بعد لحظات قليلة من الغرفة المجاورة، يرافقه عدد من الأشراف الذين جلسنا و لجسوا مثله، و الشريف أيضا، على كراس أوروبية كانت، و الحق أقول، غير مناسبة بعض الشيء، في مثل هذا المكان. إن بداية الزيارة في الشرق تكون على الدوام صامتة، تدخل، و تجلس، و تسلّم، و كل ذلك دون أن تنبس ببنت شفة، و بعد أن تتناول القهوة، و ليس أبدا قبلها، يبدأ الحديث بالمجاملات المتبادلة، و هي على الدوام المجاملات نفسها التي لا يمكن إغفالها، و إلاّ تخالف أصول الكياسة. و ما إن انتهى هذا القسم الأول من الزيارة حتى انسحب الأشراف، و بقينا وحدنا مع الشريف الأكبر، و نحن ندخن جميعا غلايين طويلة في نهايتها العنبر؛ أحضروها لنا بعد القهوة، من غير أن يمنعهم ذلك من توزيع الحلويات التي تلت القهوة، و التي كان يطاف علينا بها طوال وقت الزيارة./ ۲۴۷/ كان حسين عبد المطلب بن غالب هو الشريف الأكبر، و كان شيخا جليلا يبلغ

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۸

السنين من العمر، طويل القامة، نحيلا، تلمس النبل في تصرفاته، و النميز في كل جواب شخصيته. كان لون بشرته غامقا جدا، يكاد يكون أسود، و عيناه تتوقدان حيوية، و أنفه مستقيما، و له لحية خفيفة، و محياه لطيفا جدا. كان يتوشح و شاحا كشميريا، و يلبس ثوبا أزرق فاتحا، و يزين خنصره خنجر رائع مطلي بالذهب، تلمع عليه الأحجار الكريمة التي يحفظ لمعانها الأبصار.

بدأت حديثي بأن شكرت له كرم الضيافة الذي خصني به، و بالإشادة بما قام به الشريف حامد من أعمال ودية تجاهنا؛ فأجابني الشريف على ذلك بلطف بقوله: إنه اختاره لأنه كان يعرف حق المعرفة أننا سنكون مسرورين منه. كان الشريف قد علم منذ زمن بإزاحة عدوه باشا جدة من منصبه؛ و إلاّ فإنه كان على علم بالشائعات التي تسري بهذا الشأن. لم يكن بالإمكان أن أتغرب إليه بطريقة أفضل مما حدث، و قد خدمتني المصادفة كما أتمنى. و على الرغم من أن العرب يحسنون السيطرة على أنفسهم، و لا يتركون مشاعرهم تبدو على وجوههم، فإن وجه الشريف تهلل لهذا الخبر بعلائم الفرح، و سواء كان يريد أن يبدو ذلك عليه أم لا فإن علائم السرور بدت على قسمات وجهه كلها.

ثم بدأ الحديث بعد ذلك عن الشؤون اليومية، و عن مطامع روسيا، و عن التحالف بين فرنسا و بريطانيا/ ۲۴۹/، و عن موقف أوروبا عموما و النمسا على وجه الخصوص. كان يصغي بانتباه شديد إلى كل المعلومات التي كنت أخبره بها، و كان يطرح على أسئلة تظهر حسن اطلاعه على الأمور، و فهمه العميق

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۴۹

للوضع. لقد بدا لي منفتحا بقدر ما هو مستقل، و إن كان لدى ما أخذه عليه فذلك أنه كان مدينا أكثر مما ينبغي، و متأوربا أكثر من اللزوم. و لعل سبب ذلك أنه قضى أربعة و عشرين عاما من حياته في إستانبول قبل أن يسمح له الباب العالي بالعودة إلى الجزيرة العربية، و أن يعيد إليه لقب أبيه غالب، و على الأقل، قسما من ثروة أبيه و سلطته.

لم أنس أبداً، و أنا أحمده، و أستمع إليه، أنني أتعامل مع عربي، و ليس مع تركي؛ و أنه لا. يستطيع باعتباره عربياً، أن يرجو صادقا انتصار الجيش العثماني، بل إنه على العكس تماما كان يأمل انـدحار غزاة وطنه، و أنه باختصار كان في دخيلته أميل إلى الروس منه إلى البريطانيين أو الفرنسيين.

و حاولت أن ألمح تلميحات بعيدة و غير مباشرة إلى موقفه الخاص، و موقف بلده؛ و لكنه لم يكن يود التنبه إليها، و ظل متمسكا في هذا الخصوص بتحفظ لم ينحل عنه و لو لحظة واحدة. و قد أثبتت الوقائع التالية أنني، و على الرغم من حذره و صمته، استطعت التعرف على ميوله الحقيقية.

كان بكل تأكيد قد بلغت أسماعه أخبار انقلاب الثاني من ديسمبر (كانون الأول)، و قد بدا كثير/ ۲۴۹/ التفصيل ليعرف مني حول هذا الحدث تفاصيل شاملة. لقد أشبعت فضوله بالإجابة عن كل أسئلته، و بإخباره خلال ساعتين كاملتين، و باعتباري شاهد عيان، بالقصة الكاملة تقريبا لتلك الواقعة المعاصرة. و لما انتهت زيارتنا الأولى عدنا إلى الطائف بطريقة القدوم نفسها، و لقينا الاحترام نفسه من البدو الذين كانوا ما زالوا متجمهرين حول القصر، و من جنود الحرس التركي على باب المدينة. لقد كنت، بخصوص الحرس

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۰

التركي، مندهشا من أنهم كانوا يقدمون لنا التحية خلال مدة إقامتنا كلها، و هم تابعون للباشا، و ليس للشريف الأكبر الذي كان يتجنب أي احتكاك بهم.

إذا، لم يكن الشريف هو الذي يأمرهم بأداء التحية لنا، و أجهل لمن كنت أدين بذلك التميز الذي لم يكن من حقي، و لا أطمح إليه.

أقيم منزل أسرة شمس الذي نزلنا فيه على نمط منازل مكة المكرمة، إلا أنه أكثر صلابة و أناقة، و يتألف من ثلاثة طوابق. الطابق الأرضي الذي سبق أن تحدثت عن موقعه، و هو يستخدم في الأحوال العادية لاستقبال الزوار، و لا تزل فيه النساء أبدا. أما الطابقان الأخران فيألفان من غرف ضيقة، و سيئة الإضاءة، و هي مخصصة حصرا للحريم و لكل ما/ ۲۵۰/ يتعلق بهن من عبيد و خدم، الخ. و يعلو البيت سقف محاط بجدار على شكل دارزين، تشرف منه على المدينة كلها؛ و هي ليست ضخمة، ينتشر فيها عدة منات من البيوت، كثير منها نصف مهدمة، و قد أقيمت دون نظام حول ساحة تأخذ شكل مربع طويل؛ و هناك عدد من الدروب الضيقة المغبرة، يطلق عليها اسم شوارع، و تخترق تلك المتاهات غير المنظمة.

كان هناك منزل واحد؛ هو منزل الشريف السابق ابن عون الذي كان جنها يعيش في إستانبول، أقيم حسب مخطط معماري بسيط، و هو، مقارنة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۱

بالمنازل التي تحيط به، يستحق اسم القصر. و في أحد الأطراف القصية للساحة، ينتصب قصر مربع، له أبراج تحصينية في جوانبه الأربعة، و قد أقامه قبل بضع سنوات الشريف غالب لتعزيز أمنه الخاص ، أصبح بعد ذلك، و بعد بضع سنوات، سكنا لمحمد علي الذي أزال سطوة غالب .

إن بساتين الطائف التي تجعلها مشهورة في الحجاز كله منتشرة حول المدينة، و تبدو كأنها واحات في وسط الرمل. إن البساتين صغيرة على العموم، و فيها قليل من النباتات، و لا تدين بشهرتها إلا للقحط الشامل الذي يسود الجزيرة العربية، و تسد الأفق من كل الجهات سلسلة من الجبال، مستدة، كثيرة التشققات، تتخذ أشكالا متنوعة؛ من شكل السهم المذنب للنواقيس المسيحية، إلى شكل القبة المدورة لمساجد المسلمين. و إليكم أسماء أكثرها ظهورا كما أملاها علي مستفيفي/ ۲۵۱/: في الغرب و في الشمال الغربي من جهة مكة المكرمة و المدينة المنورة، جبل برد، و جبل الهدا، و جبل السكاري؛ و في الجهة المقابلة محز الشاش ، و الثمامي،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۲

و أخيرا ربع الشهداء. إن الطبيعة قاسية هنا على الرغم من انتشار البساتين، و إن مبزنها العامة هي القحط؛ إذ لا نجد فيها قطرة ماء، واحدة. إذا احتكمنا إلى الصعود الصعب الذي واجهنا في جبل كرد و الذي يتلوه نزول قصير و سهل، فإن الطائف مرتفعة جدا عن سطح البحر . و كان علي فيها أن أحترس من البرد بعد أن عانيت من الحر الشديد في جدة قبل ثلاثة أسابيع.

اشتق اسم الطائف في العربية من «الطواف»، و هناك بخصوص هذا الاشتقاق حكاية محلية فيها بعض الاعتلاط، و قد رويت لي في الساحة، و أعرف أنني نسيتها . و يروى أن النبي محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم لمّا لم يلق آذانا صاغية في مكة المكرمة جاء إلى الطائف يدعو أهلها للإيمان به، و لكنه لم يجد فيها من يصغى إليه أيضا؛ بل قام أهلها بطرده و سخروا منه، و هددوه، و وجد نفسه مضطرا للعودة مسرعا إلى مسقط رأسه . يسكن الطائف بدو قبيلة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۳

ثقيف باستثناء بعض الأسر القليلة القريبة، هندية أو غيرها. لقد أصبح بدو ثقيف حضريين، بل صناعا و تجارا. إنهم يصنعون بأنفسهم غالبية الأحذية، الضرورية للحياة العامة، كما يصنعون أسلحتهم، و أحزمتهم و حمالات سيوفهم الجلدية، و سجاد عفر متقن الصنع/ ۲۵۴/ مصنوع من وبر الجمال، و المجوهرات المصنعة التي تزين بها نساؤهم. و لا يحتاج كل ذلك إلى حيفرية صناعية كبيرة، و لا إلى عمليات فنية معقدة. أما المحال التجارية ففي باتساء، و يديرها الرجال كما هو الحال في الشرق كله. و لا أذكر أنني لمحت امرأة واحدة خلال إقامتي في الطائف، مع أن الفرصة سنحت لي لرؤية عدد كبير من الناس عند ما صادف وجودي فيها أحد أيام السوق، و قد كان كل شيء هناك تقريبا يباع بالمزاد، و اشتريت بنفسي، أو طلبت أن يشترى لي، بهذه الطريقة،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۴

على سبيل الذكرى، بعض المنتجات البسيطة كل البساطة من الصناعات المحلية.

رافقني إلى السوق أسودان و سيمان من خدم بيت الشريف، مسلحين بالرماح و الخناجر، و لم يكونا يسمحان لأحد بالاقتراب مني. و لم يكن السكان على أية حال مزعجين. و لست أدري كيف كانوا سيعاملون مسيحيا منفردا إلا. يتمتع بحماية الشريف الأكبر؛ و لكنهم كانوا يحترمون كوني ضيف أميرهم، و يظهرون لي احتراما كبيرا، و اعتبارا واضحا.

كان التجار يدعونني إلى الجلوس في حوانيتهم، و يسرعون في الإجابة عن أسئلتي. كان الجميع يحيونني بأدب جم، و لما خرج أحد الشباب في السوق (البازار) عن حدود اللياقة معي، رده إلى الصواب أحد العيدين اللذين كانا يرافقانني بطريقة لن يعود معها في المستقبل إلى مثل ذلك. و لما اعتدت بي الزمة إلى/ ۲۵۳/ الريف، لاحظت مسجدا جميلا جدا يكاد يلتصق بالأسوار، و فيه ضريح عبد اللّه بن عباس؛ ابن عم النبي صلّى اللّه عليه و سلّم. إن هذا المسجد الذي يسمّى باسمه باب المدينة القريب منه، هو الصرح الديني الوحيد في الطائف الذي يسمح أن يولي بعض الاهتمام، و قد هدمه الوهابيون ، كما فعلوا بكل هذا النوع من المعالم المقامة على أضرحة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۵

الأولياء إجلالا لهم، و حتى تلك التي أقيمت على ضريح النبي صلّى اللّه عليه و سلّم نفسه؛ لأن صرامة عقيدتهم، كما رأينا سابقا، لا تبيح مثل ذلكنا فهم يتكرون كل البدع، و يحظرون تقديس الأولياء. فالله وحده أهل للعبادة، و ينبغي أن تكون عبادته روحية و ليس لها أي جانب مادي. و قد أعيد بناء مسجد عبد اللّه بن عباس مرة أخرى بعد انسحاب الوهابيين من الطائف؛ و لكنه ظل بالكاس الأبيض من أعالي إلى أسافله، فأصبح له مظهر حديث لا يتناسب تاريخيا مع زمن بنائه المتقدم. و غير بعيد عن المسجد هناك معلم من عصر مختلف تماما، و من طبيعة مختلفة أيضا: إنه حجر طبيعي، و لكنه مدوّر، أبقعل الزمن أم يبد الإنسان؟ إنه صنم من عصور الوثنية، و يسمونه: اللات. و هناك في منطقة غير بعيدة عن الطائف صنم آخر اسمه: العزى . و قد أشار هيرودوت He ?rodote

إلى أن سكان هذه البلاد كانوا يعبدون حجارة الصحراء ، و قد

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۶

كانوا ما يزالون في جهلهم يعبدون/ ۲۵۴/ عند ما بعث النبي صلّى اللّه عليه و سلّم ليثقل إليهم المفاهيم الصحيحة عن المعبود. إذا، يعد القرآن الكريم نقطة تحول جذرية في تاريخ الشعب الذي دوّنه، و كان أول من اتبع تعاليمه.

أرسل لنا الشريف الأكبر في اليوم التالي الخيول و المرافقين لزيارة المناطق المحيطة بالمدينة. لم يكن عدد أفواد حاشيتنا كبيرا إلا عند ما كنا نذهب إلى القصر؛ و لكن سائس الشريف الأكبر و العيدين المكلفين بحمايتي

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۷

كانوا على الدوام ضمن الحاشية. ناهيك عن أننا اصطحبنا معنا عددا من خدمنا الخاص، و لم تر الشريف حامد كثيرا مدة إقامتنا في الطائف؛ إذ لقد وصلناها، و انتهت مهمته، أو خلّفت على الأقل، و لم يكن عليه أن يعود للسفر مرة أخرى إلا عند مغادرتنا إلى جدة، فقد كان لديه أصدقاء يزورهم، و أعمال يصرّفها، و لم يكن معنا إبّان الجولة. و قد حل محله الشريف سليم الذي أرسل لملاقاتنا عند جبل كرد؛ لم كلف أن يرينا مدينة الطائف. ليس لدي ما أقوله بخصوص هذا الشريف إلا القليل؛ إذ لم أقض معه إلا فترة بسيطة. لقد بدا متحفظا، و لكنه قليل التواصل، مما جعلني أسف على صداقة الشريف حامد و لطفه و مودته. كان الشريف سليم يركب فرسه البيضاء، و كان وجودها يثير أحصنتنا، و يجعلها ضعية المراس. كنت لحسن الحظ أمتطي حصاني «عسير»، و كان على الاقباط لذلكه لأن قوة شكيمته أنقذتني من حادث مؤلم؛ كنا على مسافة من المدينة، نسير في منطقة ضيقة/ ۲۵۵/، تحيط بها من كل جهة هوة عمقها من ۶ إلى ۷ أقدام، و لا حظت متأخرا أن شجرة ضخمة ذات أشواك تعترض طريقي، كانت على مسافة قريبة جدا مني، و لئا حاولت تلافيها كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار: إذ قمت بحركة خاطئة جعلتني أسقط مع الحصان في قعر الهوة؛ و لحسن الطالع، سقط الحصان على قدميه، و لم أسقط عن صهوته، و لكن كيف السبيل إلى الخروج من الهوة؟ لقد تكفل عسير بذلك وحده، و نهض من الكبوة بجهده، دون مساعدة أحد، و دون أن أحثه بالمهماز على ذلك؛ لقد تسلق الهوة عموديا بقائمتيه الأماميتين، ثم حرك عرقوبي الخلفيتين حركة قوية، و بقفزة واحدة كنا معا على الطريق.

كان فرح الناس بلا حدود، و متناسبا مع الخوف الذي اعتراه؛ لقد قتلني ميتا، أو على الأقل مهشما لأنه، بحكم مهامه، مسؤول عن أمني، و لو أصابني مكروه لكان أول المطعونين، و لئا كان سيده مهتما بنا فإنه كان سيدفع غاليا ثمن أي حادث يصيبني، و لو كان بسيطا. كنا حتى الآن نسير على الرمال، وسط سهل مجدب، دون أن نجد ماء و لا خضرة. لقد وجدناهما أخيرا عند ما و لجنا وادي المشاة الذي ترتفع على جانبه تلال، قممها جرداء،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۸

و أسافلها مغطاة بالبساتين المسورة التي تساب منها جداول الماء بعد أن تسقيها و تخصبها/ ۲۵۶/، و تتجاوز الأشجار التي تظللها حدود الأسوار.

لقد كان هناك مسجد جميل يمتح مدخل هذا الوادي الزاهي نميزا و جلالا، ثم ينفتح الوادي على ريف تكسوه أشجار التين و الأكاسيا، و تحيط به عن قرب جبال جرداء، أما الأرض فإنها غير مستوية، تخللها و هاد عميقة، و تنتشر فيها المتحدرات الوعرة. و تقع في هذه الأرض الجبلية الحجرية قرية بدوية هي الوهط ؛ و لكنني لم أر فيها ساكنا واحدا. قطعنا ترهتا هنا، وعدنا على أعقابنا حتى حديقة الباطنة التي يملكها الشريف الأكبر حيث كان ينتظرنا هناك غداء ريفي.

ليس لهذا المكان ما يميزه إلا ماؤه الصافي الذي يجري في قناة من الحجارة، و أشجاره المثمرة المعطاء، و خصوصا أشجار التين التي تكتسب هنا أهمية كبيرة، و تنتج ثمارا فاخرة، و ليس أشجار السفرجل و الرمان بأقل جودة من أشجار التين، و لكن الزهور نادرة، باستثناء الورد الجوري المشهور في

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۵۹

الحجاز كله. و قد كان في البستان سرادق يتكون من عدة من الغرف يقصده المالك في أوقات فراغه بحثا عن الهدوء، و البرودة.

و يوجد أمام هذا البستان بستان آخر يشبهه تماما و اسمه: الشريعة. و هو للشريف الأكبر أيضا، و قد كان قبل عدة شهور مسرحا لمنجار دام، و إليكم السبب. لئا جاء باشا جدة لزيارة الطائف رافقه حاشية/ ۲۵۷/ تتكون من مفرزة من الباشي بوزوق الذين يتصفون بصلفهم المعتاد، و قد وصلت عصبة من أولئك اللصوص، الذين كان أفلهم من الأرناؤوط، إلى بستان الشريف، و كانوا يستولون على كل ما يقع تحت أيديهم، و خصوصا الفاكهة التي يحبها الأتراك بشراهة ، و أرادوا الدخول عنوة إلى بستان الشريعة. و كانت نساء الشريف الأكبر موجودات في البستان، بحرسهن عدد من الخدم، و لم يكن الأرناؤوط يأخذوا في الحسبان، لا وجود النساء، و لا منزلة المالك، و اضطر الخدم الذين قاض بهم الكيل إلى مواجهة القوة بالقوة؛ و دارت إثر ذلك معركة سالت فيها دماء الجانبين؛ و لقا علم بدو الحوار بالأمنة التي لحقت بأميرهم سارعوا إلى المكان مسلحين، و لو لا أن الأرناؤوط و لوا الأدبار مسرعين قبل وصول البدو لما نجا أحد منهم.

و لقا وصل خبر الحادثة إلى أسماع الباشا الرعديد، كما يبدو، حل به الخوف و الاضطراب، و هرب من الطائف إلى جدة على وجه السرعة، معتقدا أو مدعيا وجود ثورة عامة وسط البدو. و لم يفلح أي شيء في إقناعه بالعودة إلى الطائف، حتى الحاج الشريف الأكبر نفسه الذي لم يجد نفعا، و لم يكن وقوع هذا الحادث إلا ليقاقم العداوة المعلنة من قبل بين العدوين .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۰

عدنا إلى المدينة عبر طريق أخرى، ليتاح لنا رؤية أكبر قدر من البلد.

/ ۲۵۸/ إن أول ما أثار فضولي، و نحن في طريق العودة، بستان كبير، و جميل، محاط بسور من الطين. و لكننا للأسف لم نستطع إلا السير بحذاء؛ و لكن مجرد رؤيته كانت تبعث في النفس شعورا بالبرودة؛ فقد كانت أشجاره شديدة الخضرة، و الظل كثيفا، و الأعشاب وافرة. ثم تأتي بعد ذلك حقول الشعير التي تكتسب أهمية كبيرة، و لكنها لا تثير الإعجاب. تبدأ بعد ذلك بحور الرمال التي تمتد حتى أبواب المدينة. لقد التقينا في جولتنا عددا من البدو و الجمال.

هناك منطقتان أخريان من أراضي الطائف فيها بساتين تماثل بساتين وادي الشاة و هما: وادي شمال، و وادي السلامة؛ و الحق أنه لا هذه البساتين، و لا تلك، تستحق الشهرة التي تالتهاء و إن التباين وحده (مع البيئة المحيطة) هو الذي يمنح هذه الأمكنة قيمة مبالغا فيها. و إنه لمن الطبيعي أن يبالغ العرب المعادون قحط الصحراء، و وحشتها، في الحديث عن كل ما يمنحهم السكينة:

قليل من الماء يرونه بحرا، و قليل من العشب يرونه مروجا، و دوحة من الأشجار يرونها غابة. إذا، احترسوا من أوصافهم (التي يطلقونها على الأماكن)، و أسقطوا بحرأة النصف الأكبر من مبالغاتهم الإعجابية .

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۱

أما بقية اليوم فقد انقضت في استقبال الزوار، فقد جاء لزيارتنا على التوالي خازن الشريف الأكبر، و كبير خدمه، و غيرهما من موظفيه، و لست أدري إن كان سيدهم قد أرسلهم أم أنهم قاموا بذلك متطوعين. ثم جاء بعدهم أصدقاء أسرة شمس و جيرانهم، و أشخاص آخرون من المدينة دفعهم الفضول إلى المجيء./ ۲۵۹/ تتوارد في الشرق دون سابق معرفة، و هناك تسامح كبير في هذا المجال. فعالما لا يتبادل الزائر و المزور كلمة واحدة، و لكن المجاملة هي القانون، و لن يخطر ببال أحد، أيا كان، أن يسأل زائرا، و إن كان غير معروف، لا من يكون؟ و لا لماذا يأتي؟

لقد كان شمس العجوز، و خصوصا ابنه عبد الله، يقضيان معنا وقتا أكثر مما يقضيانه في منزلهما، و قد أمدينا لنا بطيبة خاطر خدمات جليلة، و زوّدانا بمعلومات عن أشياء تثير فضولنا، لقد كانا باختصار ينتهزان كل الفرص ليكونا مفيدين لنا، و لطيفين معنا. و خطر ببالهما أن يأتيا بشخص من الجوار يقوم بدور المهرج، أملا في أن تستطيع حماقاته تسليتنا.

إن للعرب ميلا واضحا لهذا النوع من الترويح عن النفس، و يبدو أنه ليس من الصعب إرضاؤهم في اختيار الطرف التي تكاد تكون في غالب الأحيان رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۲

إياحية. أما أنا فقد كان هذا النوع من الترويح يبدو لي في الأيام الأغلب مضجرا، خصوصا أن القسم الأعظم من فكاهات المهرج كانت تتناول أشخاصا أو أشياء غريبة علي، و لم تكن في غالب الأحيان إلا نوريات لم أفهمها في أصلها، و حينما ترجم تفقد روح الدعابة كلها.

لقد أتيح لي بذلك مخالطة عدد كبير من السكان الأصليين، و سنحت لي الفرصة في الطائف كي أتأكد من أمر كنت لاحظته في جدة، و هو: أن العرب أكثر تباهة و أكثر ظرفا من الأتراك، و لا نجد/ ۲۶۰/ لديهم، كما هو الحال في عدد من مناطق الشرق، تلك التصرفات الاستعراضية و الحمقاء، التي تجعلهم يرون أن مترلتهم مرتبطة بلا مبالاتهم.

زرت أسرة شمس في بيتهم الذي انتقلوا إليه ليتركوا لنا منزلهم الذي يسكنونه عادة؛ و بدا لي ضيقا جدا لاحتواء أسرة كبيرة مثلهم؛ و قد ازداد تقديري للإزعاج الذي عانوا منه بسببنا. ليس للبيوت في الطائف طابق أرضي كما هو الحال في بيوت مكة المكرمة، و يستقبل الزوار في الطابق الأول.

و لست بحاجة للحديث عن الاستقبال الذي لقيته في منزل شمس، فقد بالغوا في إكرامي؛ كانت القهوة و الشراب و الحلويات تتابع دون انقطاع، و خصوني بأجمل شيشة في المنزل. و بينما كنت هنا أدخن و أطرح الأسئلة، دخل علينا شخص يغلو البياض من الرأس إلى القدمين؛ لحية بيضاء، و ثوب أبيض، و وشاح أبيض، كل شيء، باختصار أبيض، هذا الوجه و اليدين التي تكاد تكون سوداء. كان رجلا وقورا، و حكيما، عالما بالشريعة الإسلامية، و معروفا بورعه و تقاه. لقد كان حديثه موشى بسلسلة لا تنقطع من آيات القرآن الكريم، و الحكم الشائعة في الشرق، و إليكم إحدى الحكم التي أتحفني بها، و التي يمكن أن تعطي فكرة عن الحكم الأخرى: «الصبر مرّ كالسم، و لكن ما يتلوه حلو كالعسل». إن فهم هذه الحكمة يقتضي/ ۲۶۱/ فهم التورية التي تقوم عليها؛ لأن الكلمة العربية: الصبر، تطلق على صحوق شديد المرارة، شائع

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۳

في بلادهم، و يمكن أن يكون مأخوذا من النبتة التي تسميها العامة: عنب الذئب Douce -Ame ?e .

ذهبنا عشية مغادرتنا الطائف لزيارة الشريف ليأذن لنا بالانصراف، و سارت الأمور كما كانت عليه في الزيارة الأولى تماما، باختلاف بسيط، هو أن جيش البدو الذي كان متجمعا حول القصر كان أقل عددا، و استقبلنا بأبهة أقل، و لكن باللياقة نفسها، و الاحترام نفسه. كان الشريف الأكبر في تلك الأمسية يرتدي عباءة خضراء كشميرية راقعاء مزينة بسعفات حمراء. و لما كنا قد تعارفنا فإن الحديث كان أكثر دفئا، تحدثنا عن الكوليرا التي تجتاح مكة المكرمة، و تتجنب الطائف، و عن مصر و محمد علي الذي كان الشريف يتحدث عنه باعتدال شديد، مع أن هذا الباشا الذي كاد أن يصبح ملكا هو الذي قوض السلطة شبه المطلقة التي كان يتمتع بها والده غالب. كان أكثر قسوة على جياش باشا، و كان يدين أفعاله الخاصة و العامة.

تحدثنا أيضا عن المعرض الصناعي الكبير الذي كان يعدّ له جيتند في باريس، و لثيا دعوت الشريف الأكبر إلى أن يرسل إلى المعرض نماذج من المصنوعات المحلية مؤكدا له أنها يمكن أن تلقى هناك بعض الرواج؛ «أجابني ضاحكا: نعم إنه رواج إثارة الخريفة./ ۲۶۲/ إن نظري الذي أكاد أفقده تماما لحظة إملاء حكاية آخر رحلاتي كان جيتند في أسوء حال، و قد أظهر لي الأمير بأصدق العبارات، تمنياته بصحة أفضل، و أعرب عن تعاطفه معي، و اهتمامه بي، مؤكدا لي بصدق أن قلبه ينفطر لحالتي. و قال لي على سبيل المواساة: إن واحدة من أصغر نساء حرمه أصيبت بالداء نفسه، و إن لها أن تتشكى من حالها أكثر مني؛ لأنها لا تملك لمداواة ذلك ما تملكه نحن في أوروبا من وسائل، و من أطباء مهرة. و قد قطع علي وعدا صريحا أن أرسل إليه أخباري، و أن أكتب إليه بمجرد عودتي إلى فرنسا، و قد وفيت بذلك الوعد بإخلاص.

أضيف لكي أنتهي من حديث الزيارة الأخيرة أن الشريف الأكبر كان إثناء إقامته الطويلة في إستانبول على علاقة مستمرة بالسفير البريطاني هناك

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۴

اللورد ستراتفورد كانينغStratford Canning، و هو اليوم يحمل لقب دو ردكليف De Redcliffe: و قد سأل رفيقي في الرحلة عن أخبار كانينغ، لأن رفيقي كان، كما سبق لي القول، بريطانيا، و قد أكد رفيقي للشريف الأكبر أنه يعرف ذلك الدبلوماسي معرفة وثيقة؛ «اعتمادا على ذلك كلفه الشريف بحمل رسالة منه إلى اللورد، و قد قام السيد كول بلا شك بإرسالها إلى عنوانه.

و لا أستطيع هنا التعبير عن مدى/ ۲۶۳/ استيائي، باعتباري أوروبيا و إنسانا، من التصرف الوضيع الذي قام به رفيق رحلتي في حضرة الشريف:

ليست المرة الأولى التي تسنح لي الفرصة فيها لإبداء مثل هذه الملاحظة على الإنجليز هم نموذج الغطرسة، و قد صورهم كذلك جان- جاك روسو Rousseau J.- J نفسه في شخصية البيلورد إدوارد Milord Edouard، و قد ثبت على الزمن و التجربة، صحة ذلك الحكم المسيئ. عرفت أنا كثيرا من

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۵

الإنجليز، و من كل المستويات، سواء في البلاد الأجنبية، أم في بلادهم، و رأيتهم في كل الأماكن يخضعون خضوعا مطلقا للقوى الحاكمة سواء كانت مقضية أم شرعية. و ليس لهم في هذا المجال أي نوع من الاستقلالية أو الرونة، و يطمون كل الطبقات تقديس المراكز الاجتماعية، و التفاخر بأنفه الأشياء، حتى لو كان فيها بعض الدناءة، و قد تحدث عن ذلك بموضوعية، و أنهم عليه بكثير من الظرف مواطنهم ثاكري Thackeray في روايته «معرض الخيلاء» Foure aux Vanits. إن الثروة هي التي جعلتهم كذلك، و يقيهم الرونين في هذه الهوة. لقد ولدوا و نشؤوا على أرض الإقطاعيين، و شربوا مع حليب أمهاتهم روح الطبقية التي هي أساس تشريعهم الاجتماعي و مبدؤه. إن لدى الإنجليز خيلاء يحادل خيلاء الفرنسيين الذين ذكر دانتي Dante و مكيافيلي Machiavel أنهم أكثر الشعوب زهوا، و هم الإنجليز) يجهلون أبسط مفاهيم المساواة/ ۲۶۶/ كم أفضل على ذلك عزة النفس الفطرية لدى بدو الصحراء، الذين يقتربون من أكبر الشخصيات بثقة، و يحدثونهم بحرية، و لا يتنازلون، أمام أي كان، عن الأنفة المشروعة التي تليق بالرجال. و يبدو ذلك واضحا في علاقتهم مع شيوخ القبائل، فهم لا يذهبون إلا إلى خيامهم لطلب الضيافة، و هم يفعلون مثل ذلك مع الشريف الأكبر نفسه؛ إذ يعدّون قصره مثل بيوتهم، و مخازن غلاله مثل مخازن غلالهم. يشيع في الشرق كله كما نعلم تقليد تقديم الهدايا، و لم يستثنا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۶

الشريف الأكبر من هذا التقليد؛ فأرسلها لنا مع أمين خزانته؛ فتلقيت أنا عباءة بيضاء راقعة، مصنوعة من الصوف البغدادي، و موشاة بالذهب الخالص، و تلقى السيد دوكيه عباءة سوداء، و تلقى رفيق رحلتي قماش سرج موشى بالفضة. أما نحن فقد أبدينا كرما فياضا إزاء أشخاص منزل الشريف كلهم، ممن أدوا لنا بعض الخدمات، دون أن ننسى بالطبع أفراد أسرة شمس؛ لأننا كنا نظن أنه ينبغي مقابلة الإحترام الذي أبدوه لنا بالحشيش. و قد طلب السيد دوكيه من الشريف حامد النصيحة في ذلك، فقام الشريف بتحديد حصة كل واحد من خدم البيت؛ و مع أن المبلغ الذي حدده الشريف حامد كان معقولا، لكنني كنت أرى أن تضاعفه، و شاركني رأيي رفيق رحلتي/ ۲۶۵/ الذي كنت أتقاسم معه نفقات الرحلة. و أيا كانت التضحيات التي فرضها علينا ذلك، فإنه كان يلبي بالمكانة التي منحونا إياها، و فيها حفاظ على شرف الأوروبيين، و كان ينبغي، في حدود الممكن، أن يكون كرمنا مساويا للضيافة التي حظينا بها. و أستطيع القول دون أي ادعاء: إن ما رأيناه باعتبارنا مجرد أشخاص عاديين، كان عظيما، و يمكن أن يذهب بعض الأوروبيين إلى الطائف بعدنا دون أن يخرجهم الخجل من الذكريات التي تركناها هناك. و لئا لم يكن معي أي شيء، مادي يمكن أن يهدي لأسرة شمس، وعدت حفيده الصغير عبد القادر بأن أرسل له فيما بعد تذكارا مني، و وفيت بكلامي، و أرسلت له من الإسكندرية بوساطة السيد اللطيف أوتري M .Outrey الذي عين بعد فترة من وصولي إلى الإسكندرية قنصلا لفرنسا في جدة، ساعة لميذ، و تلقيت إثر ذلك من والده رسالة أثبت هنا ترجمتها الحرفية (إلى الفرنسية طبعا) نموذجا للأسلوب التراسلي لدى العرب المعاصرين.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۷

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عين النبلاء، و فخر أقرانه صديقي السيد شارل دبديه، هداه الله العلي إلى طريق السلام الأبدي! بعد التعبير عن الاحترام اللائق/ ۲۶۶/ بمكالمتكك، أعلمكك أنني لا أنى أسأل عن أخباركك. استلمت رسالة من السيد دوكيه، و معها الساعة التي أرسلتها لابني عبد القادر. سلمتها له، و قلها مع الاعتراف بالجميل؛ و لئا كانت الأمور قد جرت بيننا على أساس من التسامح، و عدم الاهتمام بالرسميات، فلم يكن من الواجب أن تجثم نفسك هذا العناء.

و رأيت من المناسب في النهاية أن أكتب إليكك هذه الرسالة لأخبرك بذلكك.

والدي و ابني عبد القادر يتنهزان هذه الفرصة، و يعبّان إليكك تحياتهم و احترامهم.

الطائف في ۲۰ جمادى الأولى ۱۲۷۱ ، ۱۵ فبراير (شباط) ۱۸۵۵ م

التوقيع: عبد الله بن محمد سيد شمس الدين

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۶۹

الفصل الحادي عشر من الطائف إلى جدة

غادرنا الطائف في ۲ مارس (آذار)، في الخامسة مساء، للعودة إلى جدة، و عبر طريق أخرى، صالحة لسير الهجن في كل مراحلها، و هي تختوف عن مكة المكرمة أكثر من الطريق الأولى. كان يوم السفر يوم خميس أيضا، و هو أكثر أيام الأسبوع مناسبة للسفر كما ذكرت سابقا. كانت قافلتا/ ۲۶۷/ كما في القدوم: الهجن نفسها، و الأرحل نفسها، و المرافقة نفسها، و لم يكن ينقصها إلا العبد أبو سلامي الذي لم تكن راضيين عن تصرفاته. و يبدو أنه شكى للشريف الأكبر فأبعده عن الطائف خلال وجودنا فيها، و استبدل به في العودة عبدين آخرين من خدمه هما: علي و مرزوق، و كانا مختلفين كل الاختلاف عن أبي سلامسي، و كانا طوال الرحلة يتسابقان لأداء الخدمات، و إشاعة البشاشة و الابتهاج. و كان الشريف حامد و رئيس الحمالة أحمد حمودي قد عادا إلى وثيقتهما بمرافقتنا.

و انضم إلينا شريفان آخران لحظة الانطلاق، أحدهما أرسله الشريف الأكبر لمصالحة قبيلتين في حالة حرب، و الآخر اسمه عبد المطلب، و هو عجوز عمره ۷۵ عاما كان عائدا إلى بيته في وادي فاطمة الذي كان ينبغي علينا عبوره. كانا يمتطيان هجانتين، بينما كانت فرساهما تجتان بحزبة في وسط

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۰

القافلة. لم يكن بالإمكان بكل تأكيد أن تسافر برفقة أشخاص أكثر تقديرا من هؤلاء، على أرض الإسلام المقدسة.

خرجنا من المدينة عبر الباب المقابل للباب الذي دخلنا منه، و قدمت

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۱

لنا هنا أيضا، و للمرة الأخيرة، التحية العسكرية من الحرس العثماني. و لم نكد نتجاوز الأسوار، حتى وجدنا على يميننا قصرا ضخما أبيض، تحيط به حديقة خضراء/ ۲۶۸/ كثيفة الأشجار، اسمه شبرا مثل اسم قصر خالد باشا الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من القاهرة. لم دخلنا بعد ذلكك في مراع فسيحة حيث أدركنا الليل هناكك. و كانت تبدو من بعيد في الظلام باقات من أشجار النخيل، و كان ضجيج قطعان الماشية يختلط بعواء الكلاب. و استمر بنا السير على تلكك الحال حتى وصلنا إلى قرية تقيم التي كانت المحطة الأولى في هذه المرحلة.

و كان أحد تجار الطائف، و اسمه قاري Kari، و هو عدو لأسرة شمس، يمتلكك في هذه القرية منزلا هيأه لنزولنا، و جاء بنفسه إلى القرية لاستقبالنا مع بعض أقاربه. لقد أراد، و بعد أن استضافتنا أسرة عدوه شمس في الطائف على خير ما كان بتمناه، و تعهدنا عما حصل، أن يستقبلنا في بيته الريفي. لقد أدى واجبه على الوجه الأكمل، و إن كان لي ما آخذه عليه فهو أنه جعلنا ننتظر خروف الضيافة المعتاد حتى بعد منتصف الليل. كان يشرف على العشاء، و لكنه رفض المشاركة فيه؛ حسبما تقتضي أصول الياقة. نمنا كما ينام المسافرون، أي بكامل ثيابنا، في غرفة كبيرة في الطابق الأول، و قد فرش فيها من أجلنا السجاد بعضه فوق بعض. و لئا أطللت في الصباح برأسي من النافذة، بل من الكوة التي تسمح للضوء، بالدخول إلى الغرفة، وقع ناظري على بركة ماء كبيرة تحيط بها حديقة تغطيها أشجار الرنقال/ ۲۶۹/ و الرمان و الليمون.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۲

قدم لنا القطور في سرادق مفتوح، غارق في حضن الخضرة، و جعلنا سحر هذا المكان الرطب نيقى فيه أكثر مما ينبغي للمسافرين، ثم غادرناه متأخرين. كان علينا بادي، ذي بدء أن نعبر أحد المراعي أو ما يسمى بذلكك في الجزيرة العربية، و هو سهل رملي فسيح، تنتشر فيه طاقات من الأعشاب التي كانت في ذلكك الوقت يابسة من الشمس، و نجد في تلكك المراعي بعض الأغنام و الماعز التي ترعى وحدها. و تبدو هنا أو هناكك قرية للزراعة المستقرين تنتشر بيوتها في ذلكك السهل. و ينتهي هذا البلد كله حزم القمح . و ينتهي السهل قريبا، و تدخل في منطقة جبلية جرداء، فيها أودية مثل: وادي طلخ، و يتلوه وادي النبعة. و كلما توغلنا في المسير أصبح المكان أكثر

وحشة و كآبة؛ فيتموج الطريق بين المرتفعات الجرانيتية القاحلة التي أحرقتها الشمس، أما الصخر فهو قاس، و يكتسي لونا أسمر، و تلتمع فيه الميكا Mica و كأنها شذور الجوهرة. و مع أن الشعب كثير الحجارة فإن السير فيه كان في البداية سهلا، و لكنه ينخفض فجأة، و يصبح الطريق محتدرا احتدارا عموديا إلى قعر هوة كان هذا الممر المسمى ربع المنحوت يفضل الله قصيرا، و لكنه كان من الصعوبة بمكان. و لم تكن الهجن لتستطيع السير فيه إلّا بصعوبة كبيرة، و كانت تتزلق في كل خطوة على/ ۲۷۰/ الصخور الثابتة أو المتحركة مع ذلك فإنني لم أعن سحابة، و هو اسم الهجان الذي كنت أركبه، بالنزول من على ظهره، بل بقيت بتشجاعة على الرحل، و لم أندم على ذلك.

وصلنا كلانا، الهجان و أنا، سالمين إلى أسفل الهوة، و لم تكن بقية القافلة أقل حظا منا، و لما تجاوزنا تلك العقبة، دخلنا في ربع أكثر تناسبا مع

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۳

قدرة الإنسان هو: ربع الزلاقة. و قد كان هذا المكان في سالف الأيام يثير رعب المسافرين، الذين كان بدو قبيلة عتيبة يهاجمونهم فيه، و يسلبونهم أمتعتهم؛ و عتيبة قبيلة قوية، و محبة للحرب، تنتشر في الجبال الممتدة جنوب الطائف، حتى المدينة المنورة. و يمكن لها أن تستنفر ثمانية آلاف فارس عليانيهم مسلحون بتنادق الفتيلة، و هي لاتني تغزو جيرانها. و على الرغم من أنها ما زالت تتقاضى خوة من القوافل التي تعبر أرضها، فإن سلطتها لم تعد تمتد إلى هذه المنطقة، و لم يخطر ببالي أبدا أن يعرض لنا عارض خطر لأننا كثر أولا، و لأننا ضيوف الشريف الأكبر، و نحن في حمايته، سواء كنا في جنابه أم بعدين عنه.

ينتهي الربع بواد واسع يسمى السيل؛ و هو قاحل، و رملي، و قد أحرقته الشمس. و كانت تنتظرني فيه مفاجأة: إذ ما كدنا ندخله، و نسير فيه بعض الأميال تحت شمس حارقة، و جو خانق، حتى وجدت نفسي دون سابق إنذار، و كأنما بفعل السحر على حافة/ ۲۷۱/ نبع غزير و صاف، ينجس من الرحل و يتدفق بغزارة، و تنتشر حوله نضارة عذبة. و يوجد بالقرب منه نطاق واسع من الصخور المنحوتة بزوايا مستقيمة، و لا تكاد تظهر على وجه الأرض، و مرئية بتناسق و كأنها مدرجات.

و إنا لنخال أن يد الإنسان امتدت إليها بالتنقيب، و سيكون من السهل، بقليل من الخيال الممزج أو حسن التبة، أن نرى في هذا المدرج الطبيعي عمل شعب باد من العصالفة الذين كانوا قبل الطوفان. و لم نكن لنعفي أنفسنا من التوقف في هذا المكان المعدّ أحسن إعداد: لقد توقفنا فيه وقتا أطول مما ينبغي، و أخرجنا للمرة الأولى المؤنة التي حملوناً إياها في الطائف. و لما أذّن العصر هب الأشراف إلى الوضوء، و الصلاة وسط القوم، و كانوا على سجاجيدهم الصلاة يركعون و يسجدون بخشوع كما لو كانوا وحدهم. و لا يخجل

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۲

المسلمون من ذلك في هذا الخصوص؛ فهم يبادرون إلى ممارسة أركان دينهم في أي مكان كانوا، و مع كائن من كان. و انضم إلى الشريفين اللذين رافقانا من الطائف ثالث، و لم أعد أدري في أي مكان حصل ذلك، كان ما يزال حدثا، لم يكد يتجاوز سن الطفولة، و ليس له من العمر أكثر من أربعة عشر عاما؛ كان اسمه أحمد، و كان يمتطي جوادا أشهب جميلا. و لم تقم بيني و بينه أي علاقة، و لست أدري هل هو الخجل؟ أم كوني نصرانيا، هو الذي أبقاه بعيدا عني. أما العجوز عبد المطلب فقد كان أقل عزلة، و عددا/ ۲۷۳/ بالتوقف في منزله عند ما نمر به، و اتفقنا على أن نمكث لديه يوما كاملا، و عرض أن يدعو على شرفنا عددا من جيرانه الأشراف. و لكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح، كما سنرى بعد قليل.

إن وادي السيل محاط بالجبال في كل الاتجاهات، و يحمّله من الغرب هرم ضخم من الجرانيت المقوض بعضه فوق بعض، و الذي تتراكم صخوره فوق بعضها، راقدة هنا منذ آلاف السنين، و كأنها خرائب الصروح الصلاة.

رأيت في هذا المكان راعي الصحراء الحقيقي، و أعني قطيعا من النوق مع صغارها، و كان أحدها، و قد ولد في اليوم نفسه، محمولا كالطفل الصغير بين ذراعي أحد الرعاة. لقد استقبلنا هؤلاء الرجال الشجعان استقبالا حافلا، و قدموا لنا لبنا كثيرا في صحفات من خشب. و كان وسط السهل بدوي أرخى العنان لجواده و اقترب من هجني، ليس ليضربني بسيفه، و لكن من أجل أن يلمس يدي، و مددتها له بطيبة خاطر، و لقد قبض عليها حياني على الرغم من كوني غير مسلم بقوله: السلام عليكم، و هي تحية يتبادلها المسلمون بينهم.

و لعل القراء الفرنسيين قد تعرفوا في هاتين الكلمتين العربيتين (السلام عليكم) الأصل الاشتقاقي للكلمة الفرنسيةSalamalec (بمعنى السلام عليكم).

كنا في هذه الأثناء، نسير بحذاء أسافل جبل/ ۲۷۳/ في غاية القحط؛ إنه جبل يسومين ، و كان هناك جبل آخر ليس أقل قحطا منه هو أم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۵

الخصف Khassaf -El -Em -Djebel الذي كان يسد الأفق أمامنا. و لكننا لما التففنا حول هذا الجبل الأخير، بدا ممتدا أمامنا واد ضخم؛ و مع أننا كنا نسير، و الشمس توشك على الغروب، فإنها كانت تنع أمام عيوننا مما كان يضايقني على الرغم من أنني كنت أضع كلية للاحتماء منها، و لم أكن أرجو إلّا رؤيتها تغرب. لقد غربت أخيرا، و عند الغروب كنا ندخل في وادي اليمون أحد أشهر أودية هذه المنطقة من الحجاز. و لم أكن أستطع الحكم سلفا إن كان يستحق هذه الشهرة، لأن الليل لم يتأخر في إدراكنا، و لم يتركني أرى إلّا المظهر العام المظلم للجبال على خلفية ملتمعة من النجوم.

كنا نسير منذ اثنتي أو ثلاث عشرة ساعة، و بدأ البشر و الحيوانات يشعرون بالحاجة إلى الراحة. توقفنا لقضاء الليل قرب قرية الزبمة التي لم يكن أي شيء، لا و ميض ضوء، و لا أي ضوضاء، يدل على أنها في جوارنا، و لئا لم يكن معنا خيام فإننا خيمنا في العراء فوق الرمال، كما لو أننا جنود في حملة عسكرية، و ذهب العرب الذين يرفقوننا ليأتونا بالحطب، و جاؤوا بما يكفي الجميع.

و بدأ غاصابرو في ممارسة مهنته للمرة الثانية منذ أن غادرنا جدة، و لم يتأخر العشاء بفضل المؤنة التي حملناها من الطائف. و بعد وقت قصير كانت القافلة كلها نغط في نوم عميق، و مع أنا كنا/ ۲۷۴/ ثلاثين رجلا، و ستة عشر

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۶

جملا أو هجانا، و ثلاثة أو أربعة أخصنة في مكان ضيق، فقد نام كل واحد حيثما توفر له المكان. كان الصمت مطبقا، و حسبت نفسي وحيدا. كنت مستلقيا على سجادتي، و ملتفا بعباءتي، كنت آخر من تسلل النوم إلى جفونه، و بانتظار أن يطلق النوم جفني أرخيت العنان لبصري ليجول في قبة السماء الواسعة المتلألئة التي لم تكن قد انطفأت بعد في تقربي، كما هي الحال عليه اليوم. و منذ أن انطفأ نور السماء أمام عيني، في الوقت الذي تصبي، للآخرين، فإنني أعود بتذاكرتي برقة خاصة، مشوبة بالحزن، إلى ليالي الجزيرة العربية التي طالما أسعدتني بروعتها، و أحب أن أرى بنور البصيرة ما لم أعد أستطيع رؤيته بطريقة أخرى.

و لئن كنت قد حرمت للأبد من أكثر المشاهد التي يمكن للإنسان تأملها روعة، مشهد هو أكثر مهابة أيضا في تلك المرتفعات المميزة، فإنني أمتح من ذكريات الماضي ما يعزيني في الحاضر، و يمنحني للمستقبل شجاعة و قوة، كي لا أضعف وسط الظلمات التي تحيط بي، و حتى أستطيع، و أنا أحتضر في ظلمتي، و أنا أعيش مستسلما لهذا أن أردده مع أحد الشعراء:

لقد غرقت، و صرت اليوم في لجيجين الظلام و لا أرجو شواطئها

و عالم النور قد سدت منافذه‌أمام عيني و لا شيء يداويها

و إن روحي تضاء اليوم آملةأن السلام من الخسرات يتجيها

و إن علمي أن المرء مختبرأعطى الحياة كثيرا من معانيها

/ ۲۷۵/ كنت في الفجر صاحيا. و اكتشفت المشهد الطبيعي نفسه أول حزم الضوء، في الصباح؛ ذلك المشهد الذي لم أستطع رؤيته في مساء اليوم السابق. كان قعر الوادي ضيقا جدا في هذا المكان، تغطيه الرمال الفاحلة، و لكن الجوانب مزروعة بالأشجار، يكسوها العشب الأخضر الكثيف على مدى امتدادها، و تتضح الأرض عيونا في عدد من الأماكن مما يحافظ على النضارة و الخضوبة على الجانبين. و تختفي كل أنواع النباتات على علو الأشجار؛ فجوانب الجبال العالية و قممها جرداء تماما.

لقد كان هناك عدد من البيوت الباسة المنفردة، المفصول بعضها عن

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۷

بعض، و التي تنتشر على أطراف المنطقة الخضراء، و منها تتكون قرية الزبمة التي يسكنها بدو متحضرون، يتصرفون إلى زراعة الأرض الصالحة للزراعة، و تربية قطعان الماشية. و ينتصب على تنوء صخري، في مكان يشرف على القرية، حصن بني في سالف الأيام للدفاع عن المكان و حمايته؛ و هو مهدم منذ زمن طويل، و لا يخطر ببال أحد أن يعيد بناءه.

ما كادت القافلة تصبح على أهبة الاستعداد حتى تدفق علينا الحليب من كل حدب و صوب، لقد جاء من البدو، و يتهم بدويات يقين مقيمات بإحكام احترازا للأشراف، و لو لا وجودهم لكنّ أكثر تهاونا، و لكنّا رأينا وجوههن بلا صعوبة. و لكنني أعتقد أنا لم نخسر شيئا إذ لم نر وجوههن؛ لأن هيأتهن لا توحي بأنهن في سن الصبا، و أثواب القطن الأزرق التي تتلفع بها كل/ ۲۷۶/ نساء المنطقة بعيدة عن إضفاء الأناقة عليهن. طالما لا حظت فيما مضى أن روح المساواة تسود بين العرب، و وجدت هنا دليلين آخرين على ذلك: أولهما يكمن في الطريقة التي تعامل بها العرب مع الأشراف و معه؛ إنها طريقة عفوية و آبية، و لكنها على الدوام مؤدبة، و ثانيا الأدلة يكمن في النسة السلوكية التي أذكرها لكم: كان الشريف حامد يأكل معنا عادة، و لكنه كان يمتنع عن ذلك في بعض الأحيان، و في هذا الصباح على سبيل المثال، تناول فطوره قبل الانطلاق مع أحمد حمودي، رئيس الجمّالة، و آخرين ممن ليسوا من طبقته.

لم يكن يتصرف كذلك متعمدا، و لا سعيا إلى أن يكون له شعبة لديهم؛ لقد كان يقوم بذلك ببساطة فطرية، و لأن ذلك كان يبدو له أمرا عاديا، متأصلا في سلوك البلد.

لقد تأخر انطلاقنا بسبب حادث مؤسف: إذ أصيب الشريف العجوز عبد المطلب بنوبة حمى شديدة جعلته غير قادر على الانطلاق، و لا على مغادرة سجادته. كان التغير الذي اعترى قسماته يدل على اضطراب عميق في أعضاء الجسد و وظائفه. و كان هو نفسه يظن أنه يعيش ساعته الأخيرة؛ و لكنه لما كان مستسلما لمصيره، فلم يكن يصدر عنه أية شكوى أو أنين، و لم يكن يرجو من الله إلّا أن يمنحه القوة كي يستطيع الوصول إلى أهله ليموت بينهم. كان يقول

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۸

بصوت خافت: خمسة و سبعون/ ۲۷۷/ عاما، و أنا على ظهر البسيطة؛ لقد حان الوقت كي ألحق بأسلافي. و أود أن أموت في بيتي بين أهلي و عشيرتي، و إن كان القضاء غير ذلك فلتتحقق إرادة الله؛ و إنني راض بما قدره من قبل.

أينما يمت المسلم فإنه يذهب إلى الجنة؛ إذا كان قد التزم خلال حياته بما شرّعه الله في القرآن الكريم، و أنا التزمت بذلك طوال حياتي بقدر ما يستطيع الإنسان الضعيف أن يفعل ذلك، و إن حصلت مني مخالفة فذلك بسبب ضعفي، و ليس أبدا بنية عصيان الله، و أرجو إذا أن يرحمني، لأنه الرحمن الرحيم.

لم يقل المريض هذا الكلام متتابعا، و بصورة خطاب كما ذكرته، و لكنه كان في الغالب متقطعا بآلام المرض. كنا نحيط به، و الحزن يملأ نفوسنا لحاله، و لكن لم يكن بوسعنا القيام بأي شيء لمساعدته؛ إذ لم يكن معنا طبيب و لا صيدلي، و لعل ذلك بالتحديد ما أنقذه، و لئا تراجعت نوبة الحمى قليلا أصبح بالإمكان وضعه على ظهر هجانه في وضعية مريحة، ليستطيع تحمل و عناء السفر. كان الشريف الصغير الذي أنقذه من أقربائه المقربين، يرافقه مع بعض رجال مرافقتنا. و كنت في نهاية الرضا عند ما علمت في اليوم التالي أنه وصل إلى منزله في حالة أفضل بكثير من حالته عند ما غادرنا، إذ لم يكن قد شفي تماما. و بذلك فشل/ ۲۷۸/ مشروع زيارته في بيته خلال مرورنا بدينه.

و كان الشريف الثاني الذي جاء معنا من الطائف قد غادرنا لتنفيذ مهمة المصالحة التي كلفه إياها الشريف الأكبر، و لم يبق معنا من الأشراف الأربعة الذين كانوا يرفقننا في مساء اليوم السابق إلّا الشريف حامد الذي ظل حتى ساعة الرحلة الأخيرة، كما كان عليه في ساعتها الأولى، رجلا لطيفا، و ظريفا، و حريصا، و أكثر الرجال كياسة.

انطلقت القافلة أخيرا، و لكننا لم نسر وقتا طويلا لأننا بعد ساعة على الأكثر توقفنا في سولة، و هي قرية أحسن بناء من الزبمة، و بيوتها أكثر تجمعا من بيوت الزبمة. يبدأ هنا وادي فاطمة المشهور في الحجاز، و هو ينتج الخضار التي تستهلكها مكة المكرمة و جدة. إنه منبع كل الاسماك، و بدين

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۷۹

باسمه لفاطمة بنت محمد. صلّى الله عليه و سلّم و رضي الله عنها؛ إذ يروى أن النبي صلّى الله عليه و سلّم قدمه لها صدقة عند ما زوّجها عليا رضي الله عنه. و لئا كان الأشراف يتحدرون منها عبر ولديها الحسن و الحسين رضي الله عنهم فإنهم يكون لهذا الوادي الغني، و الخصب، و للريف الذي يتبعه، و يستعير منه اسمه، اعتبارا خاصا. و يتخذ منه كثير من الأشراف دار إقامة، و مهم الشريف اللطيف حامد. ترجمنا من على ظهور المطايا عند باب أحد المنازل الذي كان أصحابه ينتظرونا، و لكنني لم أدخله لأن الشريف حامدا قادني مباشرة إلى بستان مجاور، اسمه النصEl -Noss ، حيث هيأ لي مفاجأة.

لقد كانت مفاجأة سارة، و من ألطف ما يمكن أن يكون، لأن/ ۲۷۹/ المشهد لم يكن البتة منتظرا، و لم أكن قد رأيت أجمل منه منذ زمن طويل، و فيه بعض أوصاف الجنة كما يبهها الله تعالى في القرآن الكريم. و لم يكن ينقص هذا المكان إلّا الحوريات لكي يستوفي كل أسباب الكمال. كان يتموج عبر هذه الجنة الصغيرة جدول ماء غزير و صاف، على أرض مملوءة بالحصى الأبيض، و كانت تعرجات الجدول الأنيقة تختفي في كثير من الأماكن تحت العشب الطويل المتشابكة. و تزدهر فيه برودة، و تتألف بدقة، أشجار الرتقال، و النخيل، و الموز، و غيرها من أشجار المناطق الاستوائية؛ إنها تخلط، و يقترب بعضها من بعض، حتى إن أشعة الشمس القائظة لا تستطيع اختراق ظلالها لشدة كثافتها و عدم نفوذيتها، و تسود فيه في قلب الظهيرة برودة لذيذة.

لم يكن هناك ما يمكن أن ينتزعني من محيط الخضرة الذي أستمتع فيه، كنت مستلقيا قرب جدول الماء، تحت شجرة موز كانت أوراقها العريضة بمثابة مظلة فوق رأسي، و تتدلى من حولي كما لو أنها عدد من المراوح، كنت أرى تناول طعام الغداء تحتها، و البقاء هنا طوال النهار. و نفهم عند ما نرى هذه الشجرة التي لا مثيل لها، لماذا يجلّها الهندوس إجلالا عظيما، و لماذا

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۸۰

يمارسون في ظلها طقوسهم، و يقدمون تحتها قرابينهم، و لماذا يجعلون منها المكان الذي يضعون فيه أكثر آلهتهم تبجيلا، جانبا

Ganesha ، إلههم الكبير/ ۲۸۰، الذى تجتمع فيه كل الصفات، و يجمع بين وظائف أبولون Apollon و ميركور Mercure فى التقاليد الهيلينية.

كان يقوم على خدمتى ولد صاحب هذا البستان أو حفيده، و عمره بين ۱۴ و ۱۵ عاما، كان يفعل ذلك دون أن يرجحنى، فيحمل إلى النارنج؛ و هو نوع البرتقال الوحيد الذى ينبع فى هذه البلاد، و يقوم بتبريد الماء فى زجاجة معلقة بالأغصان، كان باختصار، يقدم لى ألطف ما يمكن أن يقدم من واجبات العناية بالضيف، و يفعل ذلك بابتهاج هو من خصوصيات سن الشباب.

كنت متوترا بفعل القحط، و حر النهار القاسى فى اليوم السابق، استرخت أعصاب جسدى كلها بالتدريج بتأثير ذلك الجو الرطب المنعش.

كانت كل طاقات الحياة تستعيد فى ثدوتها. كنت أتنفس بارتياح شديد، و كان الدم يجرى فى عروقى بحرية أكبر، و فوت عيناى عند ما وقعتا على الكثباء الأخضر الفضفاض الذى كان يرقرف من حولى، بعد أن كانتا متعبتين من اتساع الرمل و الصخور، لقد شعرت بالجملة برغد العيش المادى و المعنوى الذى لم أكن عرفته، أو أننى كنت أظن ذلك. لقد انتهى بى الأمر بفضل

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۸۱

الراحة المطلقة، و الاستراحة الطويلة، و استمرارية الإحساس الفريد و انفراده، الإحساس نفسه على الدوام، بفضل ذلك كله، انتهى بى الأمر إلى الغوص فى حلم يقظة عميق، منسلخا عن العالم الخارجى، و ناسيا له تماما، و انتهى بى أيضا إلى فقدان الإحساس بالزمان و المكان، و كنت لأيا/ ۲۸۱/ واهيا بذاتى.

من أين أتيت، و أين أنا، و أين أمضى؟ و لم أكن أعى ذلك كله إلّا بصورة ضبابية مختلطة.

كانت تتراءى أمامى و تعود إلى التراقى أحداث الرحلة التى قمت بها و مراحلها، و الأماكن، و الصروح، و الأشخاص، كما لو أنها أضغاث أحلام.

و لم أكن أمسح العودة إلّا من خلال ضباب كثيف فى مكان بعيد سديمى. و إن حدث لى فى اللقاءات أن أفكر بأوروبا و باريس، و بأصدقائى و أعدائى الذين تركتهم هناك، و بالصراع المرير الذى كان على فى الماضى أن أخوضه هناك، و بسوء الحظ المرير الذى كان يلازمنى هناك، و بالخيانات الغادرة، و بالمصائب المتنوعة التى حلت بى، كل هذه الأشياء، كانت تعبر ذاكرتى كما لو أنها ذكريات مبهمة لحياة سابقة لم تنته أبدا: كان الندم و الآلام، حتى أكثر المشاعر شرعية، كل ذلك، قد ضاع فى غمرة النعاسى فيما يفوق الوصف من سكينة و سلام.

استمرت هذه السعادة البالغة، هذا الكيف، بالعبارة المخيلة المناسبة لوصف حالة الجسد و الروح التى كنت فيها حينئذ، سبع ساعات كاملة، و قد مرت هذه الساعات السبع كما لو أنها ثانية واحدة. لقد أعادنى إلى الواقع نفير الاطلاق، لأنه كان ينبغى فى نهاية الأمر أن تنطلق، و بينما كنت منغمسا فى الملذات الهانئة لذلك المنتجع الريفى ، كان يجرى على بعد خطوات أمام البيت الذى نزلنا فيه مشهد/ ۲۸۲/ مختلف تماما؛ لقد كان عمل الشريف حامد يقتضى منه أن يكون أعى ذلك كله إلّا أنه كان يقيم، كما سبق لى القول، فى وادى فاطمة، و له فيه بيته و حريمه، و كان يقضى هناك كل الوقت

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۸۲

الذى تتركه له أعماله. لقد كان بالتالى معروفا هناك، و محترما، و الناس كلهم يحيونه، و لما ذاع بأ وصوله إلى سولة جاء بدو الجوار زرافات، بعضهم للسلام عليه فقط، و الآخرون لمذاكرته فى شؤونهم. وجدته هناك فى وسط حلقة من البدو، يجلسون القرفصاء حوله، و كلهم آذان صاغية. كان يوجه للجميع كلاما لطيفا؛ إنها محكمة فى الهواء الطلق، تثير الإعجاب حقا، و كنت على الخصوص مأخوذا بالباقة و بالهدوء، اللذين كانا يسودان هذا الجمع الغفير.

نهض كل الحاضرين لدى وصولى، و حيونى بلطف كبير. و لما كنت ضيف الشريف، فإن احترامى من احترامه، ناهيك عن أننى ما زلت ضيف الشريف الأكبر الذى كان، على الرغم من بعد المسافة، يسبغ طى حمايته بعد أن سارت الركبان بخبر استقباله لنا. كان وجودنا يثير خيال العرب فتعددت الروايات و شاعت حول هدف رحلتنا. علمت فيما علمت، عند عودتى إلى جدة، أن بعض الناس حسبونا اثنين من الباشاوات أرسلهما السلطان للقبض على الشريف الأكبر؛ كان بعض أولئك البدو (من أتباع الشريف) يرافقوننا/ ۲۸۳/ فى الذهاب، و قد كان بإمكانهم إطالة الطريق لو أن الشريف حامدا أراد ذلك.

كنا نسير فى واد يشبه الوادى الذى قطعناه فى الصباح؛ كان محاطا مثله من كلا الجانبين بسلاسل، و تغطيه فى الوسط الرمال الجرداء التى تنتشر فيها بعض الحبيبات الشوكية. و لا يمكن لشىء، أن يعطى فكرة عن هذا النوع من الأودية أفضل من تخيل نهر عريض يجرى بين شطين تنتشر عليهما الخضرة، و تخيل ذلك الوادى تستبدل بالماء رملا. سيكون من التكرار المسجوح القول:

إن الجبال الجانبية جرداء تماما لأنها تتشابه فى هذا الجانب، و كان فى آخر الوادى جبل مميز بشكله من الجبال الأخرى كلها: فبدلا من التوءات و القبب التى تتوج الجبال الأخرى كانت قمة جبل الحرة، و هو اسمه، مسنوية تماما حتى إن قطعها يحتاج إلى أربعة أيام. كنا قد انطلقنا متأخرين، و كان الليل سيدركنا قريبا، ليل هادىء، و مضاء، كما هو حال كل الليالى فى هذا الجو

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۸۳

البهيج. كنا مستريحين بفضل التوقف الطويل فى سولة؛ لذلك كانت القافلة تسير بسرعة و خفة، و كان الجميع فى أحسن حال، و خصوصا العبد مرزوق الذى كان يسليا بحيويته و بسروره الدائمين. كان مكلفا بخدمتى حصرا، و كان يمشى إلى جانب هجانى، و كنت من وقت إلى آخر أردفه ورائى، و قد بدا متأثرا كل التأثر بهذا الاهتمام/ ۲۸۴/ الذى قابله بمضاعفة اهتمامه بى. و لما اقتربنا من الريان؛ و هى قرية فى وادى فاطمة حيث يسكن الشريف حامد، و كان عليا النوم فيها، سمعنا من بعيد صوتا منغما، و أجابه صوت مماثل. ابتعث من وسط القافلة؛ ثم ساد الصمت، و بعد لحظات قليلة وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع جماعة من الناس؛ منهم من يمشى، و منهم من يمتطى الهجن؛ لقد كانوا من أسرة الشريف حامد و من خدمه؛ الشريف حامد الذى تقدمنا، و لم تتأخر فى الوصول جميعا معا إلى منزله.

يقع منزل الشريف فى مكان قليل الجاذبية؛ محروم من أى ظل، و يرتفع على بعد خطوات منه جبل من الجرانيت، ليس فيه أى خضرة، تسكنه نسور من النوع الكبير. كان المنزل مؤلفا من عدد من البيوت المربعة، المنخفضة، و غير المتصلة، و يفصل بينها أفنية و جدران: كان يسكن فى أحدها الخدم من الرجال، و فى آخر، أكبر من الأول تسكن الحريم، و كان بيت ثالث يستخدم ديوانا، و يجلس فيه رب البيت خلال النهار، و يستقبل فيه الأجانب و الزوار، و يصرف شؤونه؛ و قد أعدوا لنا هذا البيت. نمنا فيه، و مكثنا الصباح كله فيه؛ و كان يتألف من غرفة واحدة فى الطابق الأول، و من مصطبة/ ۲۸۵/ تعرفها.

و قد أقيم حول الغرفة ديوان للجلوس، و كانت هناك عدة فتح من البورسلين، و الزجاجات البيضاء معروضة فى طاقات محفورة فى قلب الحائط. كان السجاد النفيس و العديد هو الفرش الوحيد فى المنزل: لقد عددت منها ما لا يقل عن خمس عشرة سجادة ممدودا بعضها فوق الآخر. كانت تلك الغرفة الوحيدة تطل على الفناء الرملى، و السور بجدار من الحجر.

كان جانبا الباب مزينين من الخارج بسلسلة من الدوارق الجميلة جدا، الموضوعة على دعامات صغيرة من الخشب المطلى بألوان زاهية، و جرت

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۸۶

العادة أن تعطر تلك الدوارق قبل ملئها بالماء، و ليس ذلك مناسبا، لأنها تجعل الماء طعما غريبا لا يستسيغه الذوق.

و اعتمادا على ما قاله و أعدت القول فيه، عن لطف الشريف حامد فإنه يمكن أن تخيل الطريقة التى استقبلنا بها فى بيته. إن أولى فروض الضيافة لدى العربى، هى أن يجعل ضيوفه يأكلون كثيرا، و ينبغى على الضيوف مجاملة، و الأكل من كل أصناف الطعام التى يقدمها لهم، و لو كان عليهم أن يرتكبوا عشر مرات فى اليوم خطيئة الشره، و قد أفرط الشريف فى الالتزام بتلك العادة.

كان الخروف المحتو بالرز و اللوز الذى قدموه لنا فى العشاء، هائلا؛ و لم يكن خروفا للفطور و الغداء، بأقل من ذلك، ناهيك عن عدد كبير من الأكلات المحلية، و الحلويات، و المربيات، و مسكة ختام كل ذلك كمية ضخمة من الأرز و اللحم و التوابل (اليلاف)./ ۲۸۶/ كيف السبيل إلى الأكل بشهية فى مثل هذه المأدبة؟ قدموا لنا الطعام على الطريقة المعتادة فى هذا البلد، أعنى على الأرض، و إلّا فعلى طاولة مستديرة ترتفع عن الأرض مقدار ست أصابع، و يغطيها طبق من النحاس يسمّى: صينية، يتحلق المدعوون حولها، و لم أجد ذلك مريحا، و أقل منه راحة أيضا أن تجد نفسك مجبرا على الأكل باستخدام أصابعك دون صحون و لا فراش. و كان الإريق يؤدى مهمته بانتظام، لأن كل واحد من الحاضرين يغسل يديه بعناية قبل الطعام و بعده.

أجبرت مستضيفنا على أن يأكل معنا على الرغم من أنه كان يمتنع عن ذلك باعتباره ربّ المنزل، كان لأتباعه و عبيده و خدمه مظهر حسن، كانت تبدو عليهم جميعا علامات النظافة، يلبسون ثيابا جميلة جدا، و كان بعضهم يتنقل، و هو يقوم بعملاء الخناجر. كانوا يقومون بخدمتنا بلطف نادر، مقتدين فى ذلك بسيدهم.

كان صباح اليوم التالى قائظا، قضيته فى راحة تامة. كنت قريبا جدا من الحريم، و كنت أسمع بوضوح جلبة النساء، و لكن دون أن ألمح أيا منهن. لا يتطق الشريف بكلمة واحدة عن أسرته، و العرب لا يتحدثون أبدا عن حياتهم الأسرية، و إنه لمن غير المناسب أبدا أن تتحدث معهم عن ذلكة. إلّا أننى فى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۸۵

مقابل ذلكة تعرفت على عدد من أشراف المنطقة جاؤوا لزيارتنا. كان بعضهم ما يزال يافعا، و بعضهم الآخر/ ۲۸۷/ فى سن متقدمة. كان لأحد هؤلاء، المتقدمين فى السن لحية بيضاء، موقرة كل الوقار، و إذا حكمنا بما لقيه من الاحترام، فقد كان من ذوى الاعتبار، إلّا أننى لم أستفد منه، و لا من أضرابه أى فائدة. إن العرب متحفظون كل التحفظ مع الأجانب، بل هم كذلكذ بينهم أيضا، و نتج عن ذلك أن حديثنا لم يكد يخرج من إطار المجاملات و العموميات. أعرفون ما الذى يدهشهم عندنا؟ إنها أقلامنا التى تكتب بلا مداد، و كبريتنا الكيميائى الذى يشتعل بلا نار.

لقد ألمح مستضيفنا الكريم إلحاحا كبيرا ليجعلنا نبقى فى ضيافته إلى اليوم التالى على الأقل، و لكن لطفه كان يقتضى الفطنة منا، و ألححت لكى نتطلق فى اليوم نفسه. و انطلقنا بالفعل فى الثانية ظهرا، فى أكثر أوقات النهار قيظا. لم يستطع الشريف حامد أن ينطلق فى الوقت نفسه بسبب بعض الزيارات، و بعض الظروف القاهرة، و استقر الأمر على أن يلحق بنا فى المغرب.

و ما كدنا نخرج من المنزل حتى سلكنا مضيقا منحدرا وعرا، يضيق شيئا فشيئا بين جبلين عموديين، و هناك أرصفة صخرية ضخمة على وجه الأرض تجعل الممر شاقا و زلقا، و لجنا فى آخر النهار سهلا واسعا، سيّء، السمعة، مما جعل أحمد حمودى الذى كان يقود القافلة فى غياب الشريف، و يظل حلفها، يلتحق بنا/ ۲۸۸/ عند ما اقتربنا من قرية: أبو شعيب التى يتباع أن سكانها لصوص مهرة؛ إنها مثل الزبمة تتألف من عدد من البيوت المتفرقة التى يشرف عليها حصن صغير متهدم، و هناك على جانب الطريق بئر مطوية، كانت بعض النساء يمتحن الماء منها؛ لأنهن فى الصحراء المسؤولات عن هذا العمل، و نرى فى الكتاب المقدس (العهد القديم) أن الأمر كان كذلكذ فى عهد آباء الجنس البشرى؛ فعلى البئر قابل يعقوب راحيل Rachel ، و موسى

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۸۶

صفورة، لم تر أحدا آخر فى هذا المكان المشؤوم، و لم أر رجلا واحدا، لا فى القرية و لا فى نواحيها. و تأتى بعد هذه القرية، قرية أخرى اسمها بوجاريBougari ، سيئة السمعة كسابقتها، و هناك أدركنا الشريف حامد يسوق هجانه مسرعا. و استمر بنا السير إلى وقت متأخر فى وسط الظلمة التى كان الهلال يخفف منها بضوئه السحرى، و قضينا الليلة فى مقهى حدثة. كنا بذلكذ قد وصلنا إلى النقطة التى يلتقى بها طريقا الطائف بعد التفافه طويل لكى تتجنب الاقتراب من مكة المكرمة أو رؤيتها حسب التعاليم الإسلامية.

أغمضت عينى بعض الوقت لأننا كنا محاصرين بالجرذان و غيرها من زوار الليل التى لم تكن أقل إزعاجا منها، لأنها كانت تختبى، فى حصر المقهى، و كنت أسمع طوال الليل أصوات مرور القوافل التى يقل بعضها أجراسا بأعناق رواحلها، و هى عادة وجدتها بعد ذلكذ/ ۲۸۹/ فى سمرن Smyrne ، فى موسم جنى العنب. كانت هذه الطريق هى طريق جدة إلى مكة المكرمة، و كانت القوافل كلها تتوقف، و لو لحظة فى حدة، و قد كان فيها عند ما طلع النهار عدد كبير من المسافرين، و كان بينهم مفرزة من جنود المدفعية الأتراك، و قد كان السيد دوكيه يعرف قائدهم: قدمت له قهوة الصباح، و علمت منه أنه يتوجه إلى مكة المكرمة لإحباط أحد المدافع الحربية و يتوجه بها إلى الشريف الأكبر، و كان هذا الأخير قد طلبه من الباشا لاستخدامه فى تأديب إحدى القبائل المتمردة.

و لئن كان الشريف الأكبر لا يملك لا مدفعية، و لا فرسانا، و لا جنودا منظمين فإنه كان مجبرا، على غير رغبته كما نظن، أن يطلب ذلكذ من السلطة العثمانية كلما كان بحاجة إليه لإخضاع القبائل التى يحكمها أو من المفترض أنه يحكمها، و التى تتمرد عليه، و ينتج عن ذلكذ أنه لا يلجأ إلى القوة إلّا عند الحاجة الشديدة، و بعد أن يستنفد كل وسائل الصلح.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۸۷

كنت فى أرض أعرفها، و لم يحدث فى اليوم التالى ما يهمنى. لقد رأيت من جديد خلال مرورنا خيام الباشى بوزوق، و قد وجدنا أنفسنا بعد مسافة قصيرة وسط زمرة منهم كانت تعود إلى معسكرها، و كان الشريف حامد لا يود لقاءهم، و لكن تجنبهم كان مستحيلا/ ۲۹۰/ و لم يكن فى اللقاء، على أية حال ما أزعجنا: فقد كانت علاقم الذل تبدو عليهم، و هم عادة متغطرسون، و بدوا مؤدبين و لو قليلا. و يبدو أن سبب ذلكذ ما أخبرونا به من أن ستجفهم (قائدهم) كرد عثمان أغا قد عزل؛ إذ كانت عداوته للعرب عموما و للشريف الأكبر خصوصا معروفة، و كان عزله بالنسبة إليهم نصرا حاسما. كان الخبر صحيحا بدليل أننا قابلنا فى مقهى الباشة، و هو المكان الذى أعمت فيه بالحمى فى بداية الرحلة، بديل عثمان، و كان يذهب لاستلام منصبه على صوت الطبلة التى يستخدمها الجنود غير النظاميين فى مسيرتهم، و كانت حاشية ضخمة و باهرة ترافق القائد الجديد. و لمحنا عند الظهيرة البحر فى الأفق. كان الحج قائظا مع أن الهواء كان عاصفا؛ و لم يكن ليحمل أية برودة، بل كان يلفح وجوهنا بلفح النار، و يثير حولنا سحابات من الرمال. و مع أننا كنا قريبين كل القرب من المدينة فإننا توقفنا طويلا فى الرخامة حيث ودعنا قبل اثنى عشر يوما أصدقاءنا فى جدة. و الرخامة مكان كئيب كل الكآبة، و قبيح كل القبح، و لكن المصادفة جعلتنا نجد فيه لنا لذيذا منعشا. و كان هناك أحد الجنود غير النظاميين، تأخر عن زملائه ليريح حصانه، و قد لقينا منه/ ۲۹۱/ و هو أمر غريب، عناية فائقة.

إن عزل كرد عثمان أغا قد أذلّ أولئك الأجلاف. أدى الشريف حامد بالقرب منى بخشوع صلاة العصر، ثالثة الصلوات؛ و لما انتهى من صلاته حملنا عصا الترحال، و دخلنا جدة قبل الرابعة عبر باب مكة المكرمة. كنت فى اليوم التالى حريصا بالطبع على زيارة

الشريف حامد في بيت مصطفى أفندي، وكيل الشريف الأكبر، و قد وافقا على دعوتي لهما لتناول العشاء، ليودع بعضنا بعضا، و ذلك في سكنى المؤتمن، و دعوت أيضا السيدين كول و دوكيه، و صديقي خالد بيكه بن سعود الذي كانت سعادتي حقيقية برؤيته من جديد.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۸۸

تكفل غاسبارو بإعداد الطعام، عدا الخروف المحنّط الذي لم يكن يعرف طريقة تحضيره كما ينبغي؛ لذلك عهدنا بتحضيره إلى طباخ محلي مشهور في جدة بمهارته في ذلك، فحضّره في بيته، و جاء إلينا به في الوقت المحدد، و قد أتقن تحضيره كل الإتقان. يشوى هذا الخروف الذي يعد الوجبة الرئيسية لدى الشرقيين مطمورا في فرن محفور في الأرض لهذه الغاية، و أعرف أن اللحم المشوي بهذه الطريقة يبلغ حدا من الإتقان غير معروف في فن الطهو الغربي .

لقد شهد عشاؤنا اضطرابا غير عادي؛ فقد وصل خالد بيكه بن سعود، و علامات الأسى بادية عليه، و قد احمرّت عيناه من الدموع. لقد أخفى سبب هذا الحزن الشديد عنّا باعتبار أن الأمر حدث أسري، و العرب كما سبق لي القول، لا يتحدثون أبدا عنّا يحدث لنسائهم. و لكنني علمت من/ ۲۹۲/ مصدر آخر سبب الحزن الذي كان يعتريه و إليكم ما علمته.

في مرحلة من مراحل حياته التي أجهلها، قامت إحدى النساء العربيات بإنقاذ حياته، و ذهب أخوها ضحية ما قامت به هذه المرأة، و قد تزوجها خالد بيكه بن سعود اعترافا بجميلها، و كان يحبها و يحنو عليها. كانت حينئذ مريضة، و كان قلقا كل القلق على حالتها، و لذا ألححت عليه لبي دعوتي خوفا من أن يكدرني بغيابه. و لم أكن قاسيا كي أفوّت في استغلال لطفه الشديد، بل سارعت إلى إخباره أنه في حلّ من دعوتي، فانتهز ذلك للعودة فورا إلى منزله، و قد أثبت لي تسليمه على عدم المغادرة كم كان متأثرا بحسن تصرفي.

و قد تلا هذا الظرف الطارئ، ظرف طارئ آخر؛ فقد انتظرنا الشريف حامدا و مصطفى أفندي ساعتين كاملتين، و عند ما وصلا أخيرا كان يرافقهما

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۸۹

ثمانية أشخاص غير مدعوين، منهم أحمد حمودي، مما أحدث بعض الاضطراب في الخدمة. و بعد هذا التأخير، أدركنا المغرب في وسط العشاء، و غادر مدعوونا الطاولة لئلا سمعوا نداء المؤذن لأداء الصلاة في غرفة مجاورة.

إنني، باختصار، لم أر في حياتي عشاء أكثر نهافتا، و أكثر/ ۲۹۳/ اضطرابا.

لا يمكن إتقان الأمور إلّا في بيئتها المناسبة. كانت لحظة الوداع حرجة؛ إذ لم يحصل رئيس الجنالبة و من رافقونا إلى جدة على بخشيشهم في الطائف، و قد وزعنا عليهم تذرات تتناسب مع طول بقائهم معنا، و التعب الذي اعتراهم من خدمتنا، و أضفنا إلى بخشيش رئيسهم ليرة أحمر طارت له نفسه فرحا، و لبسه على الفور، و جاب السوق لشراء المدينة كلها.

لم يكن يوسفا نسيان الشريف حامد نفسه، فقدمنا له تذكارا هو و شاح كشميري، ثمنه ألفا قرش، و قد بدا راضيا عنه كل الرضا، و وعدنا أن يلبسه إكراما لذكرانا. و قد علمت، بكل أسف، أنه لم يلبسه طويلا؛ لأن هذا الرجل النبيل، الأنموذج الكامل للسيد العربي، توفي بعد بضعة أشهر من تاريخ عودتي إلى فرنسا.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹۱

الفصل الثاني عشر بعض التأملات

لقد قصصت بالتفصيل، بلا زيادة، و دون أية مبالغة، كيف/ ۲۹۴/ استقبلني الشريف الأكبر. لم أكن بالتأكيد أنتظر مثل ذلك الاستقبال الذي يذكّر بأجمل أيام الكرم العربي التي تحدثت عنها قصص «ألف ليلة و ليلة» الرائعة.

لئن وصلنا إلى جدة كنا تحدّثنا أنفسنا بزيارة الطائف كما فعلنا عند ما وصلنا إلى الطور، و زرنا جبل سيناء. لقد طلبنا، أو رجونا أن يطلب لنا، السماح من الأمير- الشريف لزيارة مكان إقامته؛ لأننا كنا نظن أننا بذلك نقوم بإجراء شكلي لا يمكن تجاهله، كما نفعل في أوروبا عند ما نطلب من السفراء وضع تأشيرات البلاد التي ستجوبها على جواز السفر؛ و وضعنا في حسباننا أن استقبالنا سيكون للإجابة بأنه يسمح لنا بمجرد الزيارة، شرط ألا نبالغ في ذلك، و أن زيارتنا ستكون على مسؤوليتنا الخاصة، و على حسابنا، و كما يحلو لنا أن نقوم بذلك. و قد رأينا أن الأمور سارت على خلاف ما كنا نخيّل تماما.

لقد سئلت في بعض المرات، و سألت نفسي، عن سبب مثل ذلك الاستقبال الذي حظيت به و رفيق رحلتي؛ لأن الأمير- الشريف لم يكن في واقع الأمر يعرف أحدا منا، و إذا قبلنا فرضا أنه أراد أن يكون لطيفا مع القنصل البريطاني الذي نقل إليه رغبتنا فبماذا من أوصاه بهم القنصل معاملة جيدة، فقد كان بإمكانه أن يحقق ذلك بأقل مما فعل.

لقد كان السيد كول (القنصل البريطاني) نفسه متدهشا من تلك الطريقة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹۲

الرائعة في السلوك. و معاذ الله أن تكون غايتي من البحث عن السبب هي التقليل/ ۲۹۵/ من قيمة ذلك الكرم الرفيع، لكي أتريح عن كاهلي أعباء الاعتراف بالجميل، و لن يكون في بحثي عن الأسباب أي نوع من أنواع إنكار الجميل.

إن العرب حذرون بطبعهم، و خصوصا من الأوروبيين، و العرب يرون بواعث سرية تكمن وراء تصرفات الأوروبيين كلها، حتى لو كانت غير ذات بال. و الحال أنه من الطبيعي، في الحالة السياسية التي كانت الجزيرة العربية تعيشها آنذاك، أن يكون وجود بريطاني و فرنسي بجوار الحجاز مدعاة للشك، و أن يظنّ أن حكومة كل منهما أرسلت مواطنها لدراسة الوضع في البلد، و استطلاع مدى ارتباطه بالباب العالي، و موقفه منه. و على الرغم من أن ذلك غير صحيح، فإنه غير مستبعد، و لا مانع فيه بسبب الظروف، و إن شك الشريف الأكبر بذلك جعله يعاملنا تلك المعاملة، باعتبار أنه كان لذلك الشك أساس متين. و حتى لو كان الأمر كذلك، فإنني أكرر أن اعترافي بالجميل لا تشوبه شائبة. كان الشريف الأكبر حريصا خلال حديثه معنا على ألّا يظهر أي تحيز لصالح روسيا، بل بدا قاسيا بأحكامه عليها، معاديا لها، ذا موقف هجومي؛ مع أنه من المستحيل أن تجد عربيا، بله الشريف الأكبر، لا يكن عاطفا خفيا لأعداء تركية. و لا ينبغي أن ننسى أنه ليس للأتراك حق في الجزيرة العربية أكثر مما للنمسا في إيطاليا على سبيل المثال، و أكثر مما لروسيا في بولونيا، و أن الأتراك يسيطرون على الجزيرة العربية بالقوة بعد/ ۲۹۶/ أن أسقطوا حكومة الأشراف الوطنية، و بعد أن وقع غالب والد الشريف عبد المطلب ضحية خياتهم المشهورة، و مات في المنفى بعد أن نقوه إلى أراض تابعة للدولة العثمانية، و قضى ابنه عبد المطلب نفسه أربعا و عشرين سنة من عمره في ذلك المنفى، و لئما عاد في النهاية إلى وطنه و منصبه الوراثي لم يكن له إلّا ظل سلطة محدودة.

إن كمل ما يضعف الباب العالي لا بد له أن يلقى قبولا في نفوس العرب عموما، و في نفس الشريف الأكبر خصوصا، و أن يستجمهم آملا مشروعا في

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹۳

التخلص من الأتراك. و على العكس، إن كل ما يجعل الأتراك منبى الجانب يحزنهم بالضرورة، و يزيد من أمد خضوعهم لهم.

و لست أرى سببا وجيها للكيل بمكيالين؛ بأن ننكر على العرب تطلعهم للاستقلال، و نجد ذلك عدلا عند الإطاليين و البولونيين، و عند كل الشعوب الأوروبية التي تعاني من السيطرة الأجنبية. إن الأصل يظل على الدوام أصيلا، و ينبغي ألا يجعله كونه بالطبع أقل ذكاء، و قيما سقوتا من أولئك الذين يستبد بهم، و إن وصوله بنفسه إلى مرحلة التهالك يجعله يحافظ على ما اغتصبه بالمكر و الفساد و مساعدة الأجنبي.

تلك هي بالتحديد، و بالاختصار حال الأتراك مع العرب، كما هي حالهم أيضا مع اليونانيين و السوريين، و مع كل الشعوب التي خضعت لهم في الماضي. لم يعد/ ۲۹۷/ باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم، و يقمعون الآخرين، و إن ذلكك، مهما يمكن أن يقال: وضع خاطئ، و مخالف لقوانين، و ينبغي أن يوضع حد له، و لا يمكن أن يستمر زمنا طويلا، و إن كل الميثولمرات و البروتوكولات لن تجعل تركية تنبعث من جديد، لقد انهارت، و كان يمكن أن يزول اسمها منذ زمن طويل من على الخريطة لو لا أن الغرب اتفق على اقتسام تركتها. إن كل خطط الإصلاح التي تباهى بها في هذه الأيام، و التي ليست في واقع الأمر إلّا أطماعا، هي أوهام و أكاذيب. و يمكن أن استشهد بتلك الشخصية التركية المرموقة التي أرسلت إلى مؤتمر السلام في باريس، و الذي كان أول الساخرين من الأمر السلطاني المشهور في شهر فبراير

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹۴

(شباط) الماضي، و صرح علانية أنه لا يمكن قبوله أبدا.

إننا لا نصلح من مات، و لكن ندفنه؛ و إن لم يقم جيلنا بهذا الواجب فإن الجيل القادم سيقوم به. و نكمن في هذه المسألة الشرقية التي سبق طرحها، و التي عالجها مونتسكيو Montesquieu قبل أكثر من قرن، و تحدث عنها مستخدما الكلمات نفسها التي نستخدمها اليوم، و اقترح لها الحلول نفسها التي نطرحها اليوم.

إن الأتراك أنفسهم، و أعني هنا عددا قليلا منهم ممن لديهم بعد نظر، لا يخدعون أنفسهم، و يفمضون عيونهم عن الوضع المتهافت للإمبراطورية العثمانية. إنهم يعرفون حق المعرفة، المصير الذي ينتظرها في المستقبل، و يعرفون أن تناقس القوى الأوروبية هو الذي يجعلها تحافظ على توازنها المصطنع الذي يمكن أن ينهار انهيارا لا قيام بعده، عند أول مواجهة/ ۲۹۸/ حقيقية بين تلك القوى.

لا. تخيلوا أن الأتراك يكنون لفرنسا و بريطانيا أي اعتراف بالجميل؛ إنهم مقتنعون أن البلدين يقفان في وجه القوة الروسية سعيا لمصالحهما الخاصة، و ليس لمصلحة تركية. إن الحماية التي تجعلهم تبعا تحظم كبرياءهم، و إن كان ضعفهم يجبرهم على إخفاء حقدهم، فإن هذا الحقد عميق، و عاجز، و منكمش على ذاته. أما عامة الشعب التي لا تعرف شيئا، و لا تفهم شيئا مما يحدث فإنهم يحدونهم بحكايات سخيفة: فيجعلونهم على سبيل المثال يعتقدون أن السلطان أجبر فرنسا و بريطانيا على مساعدته ضد الروس دفاعا عن العلم التركي، و قد سمعت بنفسي هذه الحماقة تتكرر مئة مرة في كل أنحاء تركية التي زرتها.

لنفترض أن الأتراك استطاعوا في القرن السادس عشر، أو بعد ذلك في القرن السابع عشر، و قبل انتصار سوبيسكي Sobieski، أن يفتحوا أوروبا،

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹۵

و لو أنهم استقروا فيها كما في بيزنطة، كيف كان يمكن أن يعاملوا آنذاك؟ لن يكونوا بالتأكيد، و لو حصل ذلك، ليهتموا بالتحديث، و لا بالتسامح، و لكانت المقابر غصت بموتى النصارى. كانت الحرب في غير صالحهم، و انتصر العنصر الغربي، و إن الأتراك اليوم تحت رحمة أوروبا، كما أن أوروبا كانت ستكون تحت رحمتهم لو أن الهلال انتصر على الصليب. و لا أطلب أن/ ۲۹۹/ نحقد عليهم، و لا أن نتقم منهم؛ لأن مثل هذه الوسائل لم تعد مناسبة لروح العصر و طباعه، و الإنسانية تنكرها. و لكنهم، و دون أن نعمل فيهم حد السيف كما فعلوا ذلكك دون رادع بأعدائهم، و كما كانوا سيفعلون بنا لو كنا تحت رحمتهم، لا يستحقون في آخر الأمر هذا القدر من المراعاة و رحابة الصدر؛ و لئن/ كانت تركية، كما يتردد بحق، ليست إلّا مخيما عسكريا في أوروبا، فما عليها إلّا أن تطوي خيامها و تذهب لتنصبها في مكان آخر؛ و إن آسيا واسعة لتوطنها من ذلكك. عند ما يصبح الأقوى هو الأضعف فإنه يساعلة بخسر كل ما كان يدين به لقوته. و إن كل شعب عاجز عن الدفاع عن نفسه ينبغي ليس أهلا للحياة، و محكوم عليه بالفناء.

لم تعد اليوم تحترم هذه المقاييس العظيمة التي تحل وحدها كبريات المسائل، و التي تجعلها الضرورة حتما لا بد منه، و كلما أجلنا الحلول كان تطبيقها أكثر صعوبة، و في بعض الوحيان أكثر هولا»، و نجد أنفسنا بعد ذلكك، لأننا لم نوجه الضربة الحاسمة في الزمن المناسب، مضطرين لتوجيه ألف ضربة لا نصيب في الغالب هدفها، و تكلف أكثر بكثير. إن اليونان، أو على الأقل قسما صغيرا من هذه القارة المجيدة، كسرت قيودها بتشجيع متعاطف من أوروبا و بمساعدتها. و إن الإمارات الدانوبية/ ۳۰۰/ ستفعل مثل ذلكك

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹۶

قريبا، بانتظار أن تستعيد بلغاريا و صربيا، و تساليا، و مقدونيا، و كل البلاد التي يسلبها الأتراك حريتها.

لقد جاء دور الجزيرة العربية أخيرا؛ هي أيضا ينبغي أن تسترد شخصيتها الوطنية، و لا يمكن بالتأكيد لأحد أن يجد سبيلا إلى ذلكك منكرا. إن الأمة العربية متفوقة على الأتراك في كل المجالات. فإذا أردت الحديث عنها باعتبارها أمة محاربة، فإنا نعرف إلى أين وصلت فتوحاتها؛ إلى آسيا، و إفريقيا الشمالية كلها، و صقلية و إسبانيا، و خضع جنوب فرنسا لسلطانها في بعض الفترات. إنها تلقت و نشرت في أقاصي الأرض دينا عمره اثنا عشر قرنا، و لن يزول حتى نهاية الزمن.

إنها أمة عالمة و مثقفة؛ نبغت في العلوم قدر ما نبغت في الفن و الحروب. لقد كانت خلال أمد طويل أمة مبتكرة حينما قادها حماسها الديني. لقد كان لها مدارس تزدهر فيها دراسة الطب و العمارة و الرياضيات و الفلك، و في هذه المدارس تعلم الغرب، و أبدعت هذه الأمة روائع أدبية ما زالت حتى اليوم متعة العقول المثقفة كلها. ماذا لدى الأتراك في موازاة ذلكك؟

الجهل و الوحشية.

و إن انتقلنا من الماضي إلى الحاضر فإننا نلحظ التفوق نفسه لدى العرب، و خصوصا في الجانب الأخلاقي. إنهم يتحلّون بفضائل عظيمة، فالشجاعة و الكرم/ ۳۰۱/ و الاستقامة تقيم معهم في خيامهم، يجاربون بإنسانية، و بشرف، و يحترمون العهود و المواثيق، و تسود بين أسرهم صفات الشرف و الوئام و الإخلاص، و يجهلون العبودية و السفالة؛ فكل رجل، مهما كان مقامه، يحافظ، و في كل المناسبات، على إحساسه بالأنفة، و إن حاجاته المحدودة لا تجعل الفقر ينال من أخلاقه.

إن الصحراء صرح المساواة، و إن البساطة الوحيدة الرئيسية لدى البدو هي جهم الكثير للمال، أو لما يمثله؛ و لكن عدرهم في الفقر؛ و لماذا نأخذ عليهم

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۲۹۷

ذلكك، و أي شعب في أوروبا كلها لا يبدي نهما للذهب يفوق بكثير ما نجده عند أولئكك البدو من حب المال: و الفارق الوحيد بين الحالتين هو أننا في أوروبا نخشى بمهارة، و نغش، و نبيع المرء ضميره و شرفه، بينما يفرض العربي المال على القوافل، و يفرز أعداء قبيلته من القبائل الأخرى عنك، و يغرض حياته للخطر، و يقترن كل ذلكك في ذهنه بمصادفات الحرب، و أخطارها، و قوانينها، و تكون تلك الأفعال مطبوعة في الوقت نفسه بطرب من السمو لا تجده بالتأكيد في الاختلاس الصامت و الخفي الذي يمارسه الأوروبيون.

ليس لدى الأتراك ما يقدمونه مقابل هذه المناقب و المثالب إلّا المثالب الخالصة، و مناقب لم تعد موجودة؛ فالشجاعة التي كانت

مصدر قوة أسلافهم و نجاحهم لم تعد موجودة لديهم إلّا فى الحكايات؛ فلا يكاد أحد يحجر من شراستهم، و لا يعادل عنفهم/ ۳۰۲/ إلّا غدرهم؛ و هم فاسدون بلا رادع:

فالجنح الذى لا يشبع، و الارتشاء بلا خجل يتشران فى كل الأعمال العامة و الخاصة، من أعلى موظفى الإمبراطورية إلى أدناهم. إذا، إن العرب يتفوقون عليهم إن فى الجانب الأخلاقى، و إن فى الذكاء، و العقلية، و الثقافة.

و ليس بالغريب انطلاقا من ذلك كله أن يعانى العرب معاناة مضاعفة من تبعيتهم للأتراك؛ لأن ذلك طغيان أجنبى، و لأن الذين يمارسونه هم زعماء محليون. لقد حاولوا فى وقت قريب التخلص من نير الأتراك، و لكن المشروع كان يفتقد الانحاد فشل. جرى القتال فى مكة المكرمة، و خرجت من العرب صرخى فى المواجهة الأولى، و استولى الأتراك على المدينة المقدسة، و استعادوا الطقاس التى كانت قد أغلقت استقلالها عنهم، و الله وحده يعلم ماذا فعلوا بعد تصرهما! أتعرفون من كان على رأس الحركة؟ إنه الشريف عبد المطلب الذى نعرفنا إليه فى هذه الرحلة، و الذى استدعت خصاله باستغراد، و الذى استطعت على الرغم من تحفظه، الوصول إلى ميوله الحقيقية. و لما كان مقتنعا بضرورة الثمرد فقد قام السلطان بتزع صلاحياته، و استبدل به ابن عون الذى كان عبد المطلب نفسه قد حل محله قبل خمس أو ست سنوات، و هو يقيم فى إستانبول. و قد وقع عبد المطلب بعد زمن بأيدى الأتراك فحملوه

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۹۸

إلى إستانبول/ ۳۰۳/، و نفوه منذ وقت قليل إلى سالونيك Salonique كما نفى إلى هناك قبله والده، غالب الذى مات هناك بالطاعون منذ أربعين سنة .

و لا يستطيع أحد التنبؤ بالمصير الذى ينتظر الان على هذه الأرض الغريبة؛ و لكن مهما كان مصيره، و إن كان سقوطه نهائيا، أو أن الحظ سيعيده إلى السلطة مرة أخرى، فإننى أعدّ نفسى سعيدا إذا أتيح له أن يعلم، و هو فى منفاه، أننى أحمل له كل الامتنان و التعاطف، و أننى أنذر النذور لكى تستقل أمته التى هى واحدة من أشرف الأمم التى تبوأت مكانتها فى التاريخ، و التى فرضت على احترامها عند ما عرفتها.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۲۹۹

الفصل الثالث عشر مغادرة جدة

عند عودتى إلى جدة، كان عزل الحاكم أمرا مفضيا، أو على الأقل شائعا بين الناس؛ لكنه لم يكن قد غادر بعد موقعه الذى كان عليه البقاء فيه حتى وصول خليفته. و أدى عزله إلى عزل عثمان آغا معه، و كان يعدّ صديقه، و قد كان كذلك حقيقة. و كان أحمد عزت يتأى بنفسه، باعتباره من أكبر باشاوات الإمبراطورية العثمانية، عن زيارة أحد، حتى قنصلى بريطانيا و فرنسا اللذين كانا ضعيفين،/ ۳۰۴/ و يحتملان منه هذا الغرور.

لم يقى، و الحالة هذه، برة الزيارة التى خصصت بها عند وصولى إلى جدة، و لم أتلق منه إيّان إقامتى كلها فى تلك المدينة أى آيات المجاملة، و لعله كان بذلك يود إفهامى أن أكتفى بما كان، و أن أذهب، و ألا أعود إليه.

إلّا أنه، لما كان حريصا على إظهار تهذيبه، مع الاحتفاظ بخيلائه، فإنه أرسل إلىّ فى اليوم الذى تلا يوم عودتى إلى جدة أحد أقربائه ليهنئنى باسمه لنجاح رحلتى. و قد غبرت هذه المجاملة الطباعى الأول، و خصوصا أننى رأيت أنه من مبادىء الذوق السليم ألّا أعتب على موظف معزول. فقمت برفقة السيد دوكيه بزيارة استذان مرت كالزيارة الأولى، يفارق طفيف هو أن الباشا بدا أكثر عجلة، و أكثر إقناعا، و أظنّنى باعتراضاته التى لم أعرها كبير اهتمام. لم يكن ينبغى أن أذكر كلمة واحدة عن رحلتى إلى الطائف، و لا أن يصدر عنى أى تلميح للشريف الأكبر، و إن مثل ذلك الصمت يدل كل الدلالة على الحقد الشديد الذى يكنه للأمير الشريف.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۰

و لئن؛ لم يعد لدى ما أفعله فى جدة فلم أكن أفكر إلّا فى مغادرتها فى أسرع وقت ممكن، لكى أعود إلى القاهرة، و لكن، عبر أى طريق؟ ترددت بعض الوقت، لأن الاختيار لم يكن سهلا. و ينبغى أن أقول فى هذه المناسبة إن الشريف الأكبر فى الطائف عرض على أمرا مغريا: لقد عرض على/ ۳۰۵/ و إن بتلميح دون تصريح، و بوساطة أحد أعوانه، أن يرسلنى إلى البصرة و بغداد عبر نجد إذا كانت رحلتى تنقصنى فى هذا الاتجاه. و قد كان للأمر بعرض علىّ السير فى الاتجاه المعاكس: كنت أود المرور مرة أخرى عبر مصر، و لم أفكر بالذهاب إلى المدينتين المذكورتين، و على الأقل بغداد، إلّا فى وقت متأخر عبر دمشق و حلب و صحراء الرافدين الواسعة، لأصل بعد ذلك إستانبول عبر طرزون Trbizonde .

تماسكت إذا أمام الإغراء المذكور، و بقيت على مخططى السابق. و قد أصابنى فى الصيف الماضى زحار شديد لم يسمح إلّا بانجاز مرحلة صغيرة من تلك الرحلة، و قد منعنى فقدان بصرى إلى الأبد من القيام بالرحلة كاملة.

كان يوسعنى العودة من جدة إلى القاهرة كما أتيت؛ و قد كان أمين يكف يستعد فى تلك الفترة بالتحديد لإرسال سفينة شراعية مصرية إلى القصير، و كنت أستطيع من هناك خلال بضعة أيام أن أذهب لركوب النيل فى قنا. و قد تفضل بوضع السفينة تحت تصرفى؛ و لكن هذه الوسيلة التى تبدو فى الظاهر سهلة كانت تبدو لى مستحيلة التنفيذ عند ما فكرت فيها. لقد كان على فى البداية أن أسلك مرة أخرى طريق العودة من جدة إلى ينبع، بل أبعد من ذلك، لأن السفن تسير بحذاء الشاطىء، أطول وقت ممكن، قبل أن تنحر عباب البحر لتدرك الجانب المصرى. إن الرحلة التى لم تستغرق فى القدوم/ ۳۰۶/ إلّا عددا قليلا من الأيام، بفضل الرياح الموسمية الشمالية التى تكاد تهب على الدوام على البحر الأحمر، تحتاج فى العودة خمسة أو ستة أضعاف ذلك الوقت، و غالبا أكثر من ذلك، و تراجعت أمام عبور يحتمل أن يستغرق ثلاثين

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۱

أو أربعين يوما، قررت إذا عبور البحر الأحمر بخط مستقيم من جدة إلى سواكن. و كنت أنوى أن أذهب من هناك لركوب النيل، سواء من النوبة أم فى منطقة أبعد من ذلك فى الخرطوم، و من هناك أهبط إلى القاهرة عبر النيل. و قد زودنى أمين يكف الذى سلكت تلك الطريق بمعلومات مفصلة عن البلد، و لما كان علينا التخييم كل مساء فى تلك الصحراء فقد اشتريت خيمة بدل الخيمة التى احترقت فى السويس. و لما اعتمد رفيق رحلتى الطريق المذكورة نفسها قام السيد دوكيه فى اليوم نفسه باستئجار متبوعته من سواكن كان جاهزا للعودة إليها، و بمبلغ تافه بلغ خمسين فرنكا.

كان ينبغى أن نغادر فى يوم ۹ مارس (آذار)، و لكن مغادرتنا تأجلت حتى يوم ۱۲ من الشهر نفسه بسبب ظرف سأتحدث عنه.

كان قنصل فرنسا فى جدة جينتد، كما ذكرت ذلك سابقا، هو روشيه المدعو دريكور؛ و هى نسبة و هبية أضافها إلى اسمه ليجعله فى الظاهر أكثر أرستقراطية. بدأ حياته عاملا فى دباغة الجلود، و قد كان كل شىء، فيه، لغته، و طباعه تدل على بداياته. ثم ذهب بعد ذلك للبحث عن الثروة فى الحبشة، و مضى/ ۳۰۷/ فى رحلته حتى وصل إلى مملكة خوا Choa ، ثم عاد إليها مرة أخرى مع هدايا الملك لويس - فيليب إلى مليك الحبشة. و قد ظهرت قصة هاتين الرحلتين موقعة باسمه ، و لا يمكن أن يكون هو المؤلف: لأنه عاجز عن أن يكتب مجرد رسالة، لقد استعان لكتابتها بقلم أحد الكتاب، أعرفه، و أستطيع ذكر اسمه. و انطلق من ذلك ليُعين قنصلا من الدرجة الثانية و فارسا، ثم حصل بعد ذلك على و سام جوقة الشرف برتبة ضابط، و لكن ذلك لم يغير شيئا من كونه دباغ جلود.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۲

لم يكن له أى حظ من الثقافة، و لا من التعليم، لم يكن مهيأ ليعطى العرب عن فرنسا فكرة إيجابية، و لم يترك فى جدة إلّا ذكريات محزنة. كان بلا أسرة، و لم يكن اجتماعيا، و يعيش منعزلا تماما فى منزل ضخم فى حى اليمن، و كان قد أذاق السيد دوكيه المنزجم و موتى العقود فى القنصلية الأمرين، مما دعا هذا الرجل الرائع إلى مغادرة المنزل القنصلى، و الإقامة فى منزل خاص ليستطيع العيش بسلام و حرية، تاركا عن أنه ناصب القنصل البريطانى السيد كول العداء علانية، و بدون أى سبب، و هو زميله، و الأوروبى الوحيد المقيم فى جدة على الدوام؛ مما دفع أهل جدة بالطبع إلى الاستنتاج أن حلول الوئام بين الأوروبيين النصارى أمر مستبعد، لأن الأوروبيين الوحيدين المقيمين فى جدة يكنان العداوة لبعضهما.

لم أسترح لذلك الشخص، و لم أزره خلال إقامتى فى جدة إلّا زيارات قصيرة/ ۳۰۸/ للمجاملة، و الحق أنه كان مريضا جدا، و لم يكن يغادر سريره إلّا قليلا. و لما عدت من الطائف وجدت أن حاله تفاقمت، و بدا لى أنه يعيش أيامه الأخيرة. لقد كانت تلك الأعراض أكيدة: إذ توفى بعد ثلاثة أيام، و شاركت فى وضعه فى تابوته. و أقام السيد دوكيه فى القنصلية ليصرف شؤونها بالوكالة، و تحدد موعد الدفن على أن يكون فى اليوم التالى. و قد وعد الباشا بإرسال مفرزة لائقة من الجنود التظامين، و عدد من القواسين Cawas يكفى لأن يكونوا فى أول الموكب و آخره. و لكنه بدا فى اللحظة الأخيرة أنه قام بالأمر على مضض، و بمنتهى السوء، و كنت و السيد كول متفقين على رفض كل ما قدمه من القواسين Cawas و الجنود. لقد كنت متزعجا كل الإزعاج من عدم التقدير الذى يلقاه ممثل فرنسا من ذلك التركى، فى الوقت الذى تبذل فيه فرنسا دماء أبنائها و ذهبها من أجل تركيا؛ و قد كان السيد كول مساء، و أطن بصوت عال أن الإهانة لا تمس فرنسا فقط، و إنما تمس بريطانيا نفسها، و العالم المسيحى كله، و رفعت شكوى إلى إستانبول و باريس كما ينص

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۳

القانون فى مثل هذه الحالات؛ و لكننى لا أعلم أن الحكومة التركية قامت بالاعتذار عما حدث.

و مهما يكن من أمر فإن جثمان قنصل فرنسا حمل إلى مثواه الأخير، كما لو أنه من عامة الناس، على أكتاف/ ۳۰۹/ أربعة من العرب كانوا، حسب تقاليد البلد، يجرون بالجنازة مسرعين. كنا نتبعهم؛ أنا و رفيق رحلتى، و السيد كول، و السيد دوكيه، و الإخوة ساوة، كانت هذه الحفنة الصغيرة من النصارى الذين جمعتهم المصادفة حول تابوت، يشكلون وحدهم الجماعة التى تشيع هذا المسيحى الذى قضى نحبه فى ديار المسلمين. لقد حذرونا من تطرف العامة؛ و لكنهم (العامة) بدوا على العكس خلال مرورنا هادئين، و محتشمين، و نكاد نبدو عليهم علائم الوقار .

خرجنا من باب اليمن، و بعد أن اجتزنا سهلا رمليا يغمره البحر فى حالة المد، وصلنا إلى مقبرة صغيرة مسوّرة، و مخصصة للأوروبيين الذين يدركهم الموت فى هذه البلاد البعيدة. و كان يتقص مراسم التشييع الوقار و الخشوع. لم يكن المتوفى إيّان حياته محترما أو محبوبا، و مع أن الموت يطهر الذكريات، و يخمد الأضغان، فإن مصير القنصل لم يكن فى ساعة الموت يوحى بالرثاء الذى يستحقه. و مهما يكن الدور الذى أديناه فى الحياة

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۴

فإنه مصير محزن أن يدركنا الموت بعيدا عن الوطن و الأهل، محاطين بمن لا يهمهم أمرنا و بالأجانب، و أن نقول و نحن نلفظ الأنفاس الأخيرة: «أموت بعيدا و ليس حولى صديق ليطق جفنى، و يبكى على».

مات القنصل فى يوم ۹ مارس (آذار)، و دفن فى اليوم العاشر من الشهر نفسه، و فى اليوم الحادى عشر، و بعد أن قمت بآخر واجباتى تجاهه، كما يليق بأحد مواطنيه أن يفعل، أبحرت/ ۳۱۰/ فى الساعة التاسعة مساء، مع رفيق رحلتى فى مركب ليلتقلنا إلى السنيوك الذى استأجرناه، و الذى كان يرسو بعيدا فى عرض البحر. و كانت أمتعتنا و مرافقونا قد سبقونا إليه.

كان البحر فى أقصى الجزر، و خاص مركبنا فى الرمل وسط قنوات الملاحة، و قد كان من المستحيل إخراجه منها؛ و كان علينا أن نقتل منتصرين فى مكاننا خمس أو ست ساعات بانتظار المد. كان القيل راغدا، و القمر بدرا؛ و لكن البرد كان قاسيا، و لما لم يكن معى معطف أو غطاء، فإنى وجدت نفسى مضطرا لأن أتلفع بالشراع حتى لا أقاسى من البرد كثيرا. ثم تحمل السنيوك إلّا نحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحا، و فى الثامنة أبحرنا، و نشرنا القلوع باتجاه سواكن.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۵

فهرس الأعلام

- إبراهيم آغا (خازن الشريف الأكبر)، ۲۴۰، ۲۴۶.
- إبراهيم باشا بن محمد على باشا، ۱۳۲، ۲۱۱، ۲۱۲.
- ابن عون، محمد (الشريف)، ۲۵۰، ۲۹۷.
- أبو بكر الصديق، ۲۲۴.
- أبو سلامى (من خدم الشريف الأكبر)، ۲۲۲، ۲۲۳، ۲۳۰، ۲۶۹.
- أبولون (أحد آلهة اليونان)، ۲۸۰.
- أبيستيموس (القديس)، ۹۰.
- أحمد (شريف)، ۲۷۴.
- أحمد يكت (تاجر هندى ولد فى كابول)، ۱۷۲.
- أحمد حمودى (رئيس حمالة الشريف الأكبر)، ۲۱۷، ۲۳۳، ۲۹۶، ۲۷۷، ۲۸۵، ۲۸۹.
- أحمد عزّت باشا (حاكم جدة)، ۱۶۳، ۲۱۷.
- آدم عليه السلام، ۱۴۶.
- أرباغون (بحّال مولير)، ۱۰۰.
- أرزينوى (أخت بطليموس فيلادلف)، ۴۹.
- الإسكندر الأكبر، ۴۹.

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۶

- إسماعيل يكت (قائد ثكنة أقامها محمد على باشا فى جدة)، ۱۴۵.
- آلان (ضابط إنجليزى)، ۱۱۵.
- أمين يكت (قائم بأعمال محمد على باشا فى جدة)، ۱۶۹، ۱۷۰، ۱۷۲، ۳۰۰، ۳۰۱.

- آوترى (قنصل فرنسا فى جدة)، ۲۶۶.
- إيليا (النبى)، ۹۲، ۹۳، ۹۵، ۹۶.
- بخروش، ۲۱۱.
- بدر الدين حسن (من شخصيات ألف ليلة و ليلة)، ۲۴۱.
- بركات (بن حسن بن عجلان)، من أمراء مكة، ۱۸۲، ۱۸۵.
- بطليموس فيلادلف، ۴۹.
- البقوم (عرب)، ۲۰۷.
- بنو سعد (قبيلة)، ۱۸۱.
- بوركهارت، ۱۳۴.
- بيترون (كاتب و شاعر لاتينى)، ۳۴.
- بيرتون (برتشارد)، ۴۰، ۴۱، ۴۵، ۵۶، ۵۷، ۱۵۷.
- بير (الأب)، كبير الرهبان فى دير سانت كاترين فى سيناء) ۹۷، ۱۰۱.
- تاضورة (الإمبراطورة) ۸۴، ۸۶.
- تيبريوس (إمبراطور رومانى)، ۳۴.
- تيزياس (عراف ضرير فى الأساطير اليونانية)، ۱۰۲.
- ثيرى (خورى)، ۱۶۲.
- ثاكرى (أديب بريطانى)، ۲۶۵.
- ثقيف (قبيلة)، ۲۵۳.
- ثيودوسيوس (الإمبراطور)، ۸۸.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۷
- جان جاك روسو، ۲۶۴.
- جان داركت، ۲۰۸.
- جانيشا (أحد آلهة الهندوس)، ۲۸۰.
- جهينة (قبيلة)، ۱۲۰، ۱۲۸.
- جورج (القديس)، ۸۳.
- جوزيف (أحد رهبان دير سانت كاترين فى سيناء)، ۱۰۱. رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى ؛ ص۳۰۷
- جيروم (القديس)، ۸۷.
- حامد الشريف، ۲۱۵، ۲۱۷، ۲۱۹، ۲۲۲، ۲۲۷، ۲۳۰، ۲۳۳، ۲۴۲، ۲۴۸، ۲۵۷، ۲۶۶، ۲۶۹، ۲۷۷، ۲۷۸، ۲۷۹، ۲۸۲، ۲۸۳، ۲۸۴، ۲۸۵، ۲۸۶، ۲۸۷، ۲۸۸.
- الحسن (بن على)، ۱۷۹، ۲۷۹.
- حسن المرابط (مقام)، ۱۲۱.
- حسين (شريف من أقرباء الشريف مساعد، حكم بعده)، ۱۸۵.
- الحسين (بن على بن أبى طالب) ۱۷۹، ۲۷۹.
- الحضارمة، ۱۷۴.
- حواء، ۱۴۶.
- خالد باشا (صاحب قصر شبرا فى مصر، على بعد ثلاثة أميال من القاهرة)، ۲۷۱.
- خالد بن عبد الله بن سعود، ۱۷۵، ۲۸۷، ۲۸۸.
- خليل سلام (رئيس الستيوك الذى استأجره ديديه)، ۱۳۳.
- دانتى، ۲۶۵.
- داود عليه السلام، ۲۲۴.
- دوروثى (الاسم الأصلى للقديسة كاترين المنسوب إليها الدير فى سيناء)، ۸۷.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۸
- دوكيه (المترجم و مؤلّف العقود فى القنصلية الفرنسية فى جدة)، ۱۶۳، ۱۷۷، ۲۱۶، ۲۱۷، ۲۲۳، ۲۵۷، ۲۸۷، ۲۹۹، ۳۰۱، ۳۰۲، ۳۰۳، ۳۰۳.
- ديركور (روشيه)، (قنصل فرنسا فى جدة)، ۱۵۶، ۳۰۱.
- ديكام (رسام)، ۱۲۶.
- ذوو بركات (أسرة بركات)، ۱۸۲، ۱۸۵.
- ذوو زيد، ۱۸۵.
- راحيل (زوجة يعقوب عليه السلام)، ۲۸۵.
- رونجيت سنغ (ملك لاهور)، ۱۶۴.
- ريشليو (رجل دولة فرنسى)، ۱۸۶.
- الزيدون من قبيلة حرب، ۱۳۴.
- زبيدة (زوجة هارون الرشيد)، ۲۲۷.
- زيد (بن محسن)، ۱۸۵.
- سافونارولا (راهب و مصلح دينى إيطالى)، ۱۹۳.
- ساوة (الإخوة): (أسرة مسيحية فى جدة)، ۱۷۲، ۱۷۳، ۲۱۸، ۳۰۳.
- ستراتفورد كانينج (سفير بريطانيا فى استانبول)، ۲۶۴.
- سرور (الشريف)، ۱۸۶، ۱۸۷، ۱۸۸، ۱۹۰.
- سعود بن عبد العزيز، ۱۷۶، ۱۹۴، ۱۹۶، ۱۹۷، ۱۹۹، ۲۰۰، ۲۰۱، ۲۰۲، ۲۰۹.
- سفافور روزا (رسام)، ۸۱.
- سليم الأول (السلطان)، ۶۴، ۸۴.
- سليم (الشريف)، ۲۳۳، ۲۳۵، ۲۳۷، ۲۳۹، ۲۴۲، ۲۵۷.
- سليمان آغا (ضابط فى الجيش المصرى)، ۱۰۸.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۰۹
- سوبيسكى (ملك بولونيا)، ۲۹۴.
- سوفوكليس، ۱۰۲، ۱۰۳.
- شارل ديديه، ۲۶۷.
- شعيب عليه السلام، ۸۹، ۹۰.
- صالح عليه السلام، ۱۱۶.
- صفورة (ابنة شعيب التى تزوجها موسى عليهما السلام)، ۸۹، ۲۸۶.
- الصوالحة (قبيلة من بدو الطور)، ۷۳.
- صوفيا (القديسة)، ۲۱۳.
- طاهر أفندى (أحد العاملين لدى الشريف الأكبر)، ۲۲۳، ۲۲۵، ۲۳۵، ۲۳۷، ۲۴۶.
- طوسون بيكه، ۲۰۳، ۲۰۵، ۲۰۷، ۲۱۱.
- عباس باشا (الخديوى)، ۳۳، ۳۴، ۳۵، ۴۲، ۷۱، ۷۲، ۷۷، ۱۰۳، ۱۰۴، ۱۵۲، ۱۶۹، ۲۲۵.
- عبد العزيز (بن محمد بن سعود)، ۱۹۴، ۲۰۰.
- عبد الغفار (الشيخ مالك الستيوك الذى استأجره ديديه)، ۱۱۲.
- عبد القادر (ابن فراج يوسف)، ۱۶۲.
- عبد القادر بن عبد الله بن محمد سيد شمس، (و محمد سيد شمس تاجر مكى له بيت فى الطائف نزل فيه ديديه)، ۲۴۲، ۲۶۶، ۲۶۷.
- عبد الله (الشيخ، الاسم المستعار للرحالة بيرتون) ۴۵، ۵۷.
- عبد الله آغا (رئيس الشرطة فى جدة)، ۱۷۵.
- عبد الله (بن سرور)، ۱۸۷.
- عبد الله بن سعود، ۱۷۶، ۲۰۹، ۲۱۱، ۲۱۲.
- عبد الله بن عباس، ۴۵۴، ۵۵.
- عبد الله (بن محمد سيد شمس)، ۲۴۲.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۱۰
- عبد المطلب بن غالب (الشريف الأكبر، ورد: حسين)، ۲۴۷، ۲۹۲، ۲۹۷.
- عبد المطلب (شريف)، ۲۶۹، ۲۷۴، ۲۷۷.
- عبد المعين (شريف)، ۱۷۵.
- عتيبة (قبيلة)، ۲۷۳.
- عثمان باشا (أحد أثرياء جدة)، ۱۹۷.
- عطا بيكه (طبيب عسكرى تركى)، ۱۷۵.
- على (من خدم الشريف الأكبر، رافق ديديه عند عودته من الطائف إلى جدة)، ۲۶۹.
- على أفندى (ضابط فى الجيش المصرى)، ۱۰۸.
- على (بن أبى طالب)، ۲۷۹.
- العليقات (قبيلة من بدو الطور)، ۷۴.
- عمرو بن العاص (مسجد)، ۲۲۵.
- غمباردو مازاتى (طباخ رافق ديديه)، ۵۵، ۷۵، ۱۴۹، ۲۱۷، ۲۳۰، ۲۴۲، ۲۷۵، ۲۸۸.
- غالب (الشريف)، ۱۸۷، ۱۸۸، ۱۸۹، ۱۹۰، ۲۰۱، ۲۰۲، ۲۰۵، ۲۰۶، ۲۰۷، ۲۴۵، ۲۵۱، ۲۹۲، ۲۹۸.
- غالية (امرأة من عرب البقوم)، ۲۰۷، ۲۰۸.
- فاطمة بنت محمد صلى الله عليه و سلّم، ۱۷۹، ۲۷۹.
- فراج يوسف (تاجر هندى)، ۱۷۴، ۲۴۱.
- فرعون، ۶۱.
- فيصل بن تركى، ۲۱۳.
- فيصل بن سعود، ۲۱۰، ۲۱۳.
- فيفاس (مهندس فرنسى)، ۷۶.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۱۱
- قارى (اسم أحد التجار الهنود فى الطائف)، ۲۷۱.
- قتادة (بن إدريس)، ۱۸۱.
- كاترين (القديسة)، ۸۳، ۸۸، ۹۱، ۹۸.
- كاسيانى (القديسة)، ۸۸.
- كالفن (لاهوتى فرنسى)، ۱۹۳.
- كرد عثمان آغا/ عثمان آغا، ۱۶۶، ۱۶۷، ۱۶۸، ۱۷۱، ۲۱۹، ۲۲۰، ۲۸۷.
- كريون (خال ولدى أوديب، ملك طيبة)، ۱۰۲.
- كلوت بيكه، ۵۴.
- كورميه (الكابتن)، ۱۵۵.
- كوستا (يونانى كان يدير القنصلية الفرنسية فى السويس)، ۵۵، ۵۶، ۶۳، ۸۳، ۹۸، ۱۳۳.
- كوستانتدى (شيخ مدينة الطور، و هو من أصل يونانى)، ۶۳.
- كول (القنصل البريطانى فى جدة)، ۱۵۷، ۱۶۵، ۲۱۶، ۲۱۸، ۲۸۷، ۲۹۱، ۳۰۲.
- لويس الحادى عشر، ۱۸۹.
- لوثر (راهب و مصلح ألمانى)، ۱۹۳.

- لويس، فيليب (ملك فرنسا) ۳۰۱.
- مارسيال (رسام)، ۳۴.
- م. حسون، ۱۷۴.
- محمد صلى الله عليه و سلّم، ۸۴، ۹۵، ۱۷۹، ۱۹۵، ۲۲۷، ۲۵۲، ۲۷۹.
- محمد بن سعود، ۱۹۴.
- محمد بن عبد الوهاب (الشيخ) ۱۹۱، ۱۹۳، ۱۹۴.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱۲
- محمد علي (باشا)، ۳۱، ۴۲، ۷۲، ۱۲۳، ۱۳۵، ۱۷۰، ۱۷۶، ۲۰۳، ۲۰۴، ۲۰۶، ۲۰۷، ۲۰۸، ۲۱۰، ۲۱۱، ۲۱۳، ۲۲۰، ۲۴۴، ۲۴۵، ۲۵۱، ۲۶۳.
- محمود (السلطان العثماني)، ۱۶۸، ۲۱۳.
- المرابطون، ۲۱۴.
- مرزوق (من خدم الشريف الأكبر، رافق ديديه عند عودته من الطائف إلى جدة)، ۲۶۹، ۲۸۳.
- مريم العذراء، ۹۱.
- المزيتون (قبيلة من بدو الطور) ۷۴.
- مساعد (الشريف)، ۱۸۵.
- المسيح عليه السلام، ۹۵.
- مصطفى أفندي (وكيل الشريف الأكبر في جدة)، ۲۱۵، ۲۱۶، ۲۱۸، ۲۲۳، ۲۸۷، ۲۸۸.
- مصطفى بيكه (صهر محمد علي باشا)، ۲۰۴.
- المضايفي (عثمان)، ۲۰۵.
- مكيافيلي، ۲۶۵.
- الموري (المورسكي)، ۱۷۰.
- موسى عليه السلام، ۶۰، ۷۹، ۸۲، ۸۶، ۸۹، ۹۰، ۹۲، ۹۵، ۱۰۶، ۲۸۵.
- موشيليه (مهندس فرنسي)، ۷۶.
- موليير، ۱۰۰.
- مونتسكيو (أديب فرنسي)، ۲۹۴.
- مونتيني (أديب فرنسي)، ۳۰.
- ميركور (إله التجار و التجارة عند الرومان)، ۲۸۰.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱۳
- ميكيل أنجلو، ۸۶.
- نابليون بونابرت، ۵۱، ۶۰.
- نقولا (الإمبراطور)، ۸۶، ۲۳۴.
- هارون عليه السلام، ۹۰، ۱۰۶.
- هارون الرشيد، ۲۲۷.
- هاشم إبراهيم (ضابط تركي)، ۱۰۴.
- هذيل (قبيلة)، ۲۳۳.
- هرقل، ۱۶۷.
- الهوامح (قبيلة)، ۱۷۶.
- هومس (مصلح ديني تشيكي)، ۱۹۳.
- هيرودوت، ۲۵۵.
- يعقوب عليه السلام، ۲۸۵.
- يوستينيانوس (الإمبراطور)، ۸۶، ۸۷.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱۵

فهرس الأماكن

- أبروز (منطقة إيطالية)، ۲۳۵.
- أبو حرير، ۱۲۰.
- أبو شعيب، ۲۸۵.
- أبو هريرة، ۱۲۲.
- آتينا، ۲۹.
- إسبانيا، ۱۳۵، ۲۹۲.
- إستانبول، ۳۲، ۴۲، ۱۱۶، ۱۴۲، ۱۴۸، ۱۵۱، ۱۶۴، ۱۶۵، ۱۶۶، ۱۷۵، ۱۸۳، ۲۰۶، ۲۱۳، ۲۳۴، ۲۴۲، ۲۴۳، ۲۴۵، ۲۴۹، ۲۵۰، ۲۶۳، ۲۹۸، ۳۰۰، ۳۰۲.
- الإسكندرية، ۳۱، ۵۲، ۵۵، ۲۶۶.
- أسيوط، ۱۵۱.
- أم الجلجل (مكان)، ۱۳۵.
- الأناضول، ۲۳۴.
- إيطاليا، ۸۸، ۲۳۵، ۲۹۲.
- باب المتدب، ۱۵۲.
- باب اليمن (في جدّة)، ۳۰۳.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱۶
- باريس، ۲۹، ۳۰، ۳۱، ۵۴، ۱۵۶، ۲۶۳، ۲۸۱، ۲۹۳.
- البحر الأحمر، ۳۱، ۳۶، ۳۹، ۴۷، ۴۹، ۵۱، ۵۹، ۶۴، ۸۱، ۸۴، ۱۱۱، ۱۱۳، ۱۱۵، ۱۲۴، ۱۳۶، ۱۴۰، ۳۰۰.
- البحر المتوسط، ۳۱، ۱۱۵.
- البحر الميت، ۱۱۵.
- بحيرة طبريا، ۱۱۵.
- بركة فرعون، ۵۹، ۶۲، ۱۲۲.
- بركة موسى، ۵۱.
- بريطانيا، ۴۰، ۵۲، ۲۴۸، ۲۶۴، ۲۹۲، ۲۹۹، ۳۰۲.
- بستان الأربعين شهيدا (واحة في سيناء)، ۹۵.
- بسل، ۲۰۹، ۲۱۱، ۲۱۳.
- البصرة، ۱۳۹، ۱۷۳، ۲۱۲، ۳۰۰.
- بغداد، ۱۲۲، ۱۳۹، ۱۴۳، ۱۷۳، ۲۰۰، ۲۰۱، ۲۰۳، ۲۱۲، ۳۰۰.
- بلاد البربر، ۲۱۳.
- بلد كنعان، ۹۵.
- بلوه، ۲۴۳.
- بلغاريا، ۲۹۶.
- بنها العسل (من بلدات الوجه البحري في مصر)، ۳۵.
- بوجاري (قرية)، ۲۸۶.
- بولونيا، ۲۹۲.
- بومباي، ۴۰، ۵۴، ۵۶، ۱۱۲، ۲۳۰.
- البيامة (مقهى)، ۲۸۷.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱۷
- بيرينيان (منطقة فرنسية)، ۱۶۶.
- بئر السويس، ۴۷.
- بئر عجرود، ۴۶.
- بيزنطة، ۴۲، ۲۹۵.
- التبت، ۶۷.
- تركيا، ۲۹۲، ۲۹۳، ۲۹۴، ۲۹۵، ۳۰۳.
- تيسالي (مقاطعة يونانية)، ۲۹۶.
- الثمامي (مكان)، ۲۵۱.
- جبال الألب، ۸۱، ۲۳۵.
- جبال سربال، ۷۵.
- جبال سيناء، ۴۷، ۵۳، ۷۱، ۷۳، ۸۵، ۲۲۹.
- جبال صبر، ۱۸۹.
- جبال عتزة، ۶۳.
- جبال فزوان، ۲۳۶.
- جبال كاربات (بين جزيرة كريت وروديس)، ۸۱.
- جبال مزان، ۱۶۸.
- جبل أبو دراج، ۵۹.
- جبل أم الخضف، ۲۷۵.
- جبل برد، ۲۵۱.
- جبل بني أيوب، ۱۳۴.
- جبل جفر، ۶۲.
- جبل الجلجلة، ۱۰۲.
- جبل الحرة، ۲۸۲.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱۸
- جبل حسان (جزيرة)، ۱۲۰.
- جبل حفاف، ۶۶.
- جبل حوريب، ۹۰، ۹۱، ۹۲.
- جبل ثور، ۲۲۴.
- جبل دعد، ۶۲.
- جبل رضوى، ۱۲۳.
- جبل رعل (رهال)، ۱۱۹.
- جبل سربال، ۷۳، ۷۶، ۷۸، ۱۰۷.
- جبل السكارى، ۲۵۱.
- جبل سيناء (جبل الشريعة)، ۲۹، ۵۴، ۵۶، ۶۴، ۶۵، ۷۱، ۷۲، ۷۷، ۸۱، ۹۱، ۹۲، ۹۴، ۹۵، ۹۶، ۹۷، ۹۸، ۱۰۱، ۱۰۹، ۲۲۶، ۲۹۱.
- جبل شمر، ۱۲۲، ۲۱۲.
- (جبل) صبح، ۱۳۳.
- جبل الطور، ۱۰۳.
- جبل عاقلة، ۶۱.
- جبل عرفات، ۴۵، ۲۲۶، ۲۲۷.

- جبل غريب، ۶۲.
- جبل القديس أستيفوس، ۹۰.
- جبل كبكب، ۲۲۹.
- جبل كرا، ۲۲۹، ۲۳۰، ۲۳۲، ۲۳۳.
- جبل كركما، ۱۱۹.
- جبل الكرمل، ۱۱۵.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۱۹
- جبل المقطم، ۴۶، ۴۸.
- جبل المهر، ۱۲۲.
- جبل موسى، ۹۰، ۹۵.
- جبل الناقوس، ۶۶.
- (جبل) النباغ، ۱۳۴.
- جبل النور، ۲۲۱.
- جبل الهدا، ۲۵۱.
- جبل يسومين، ۲۷۴.
- جبل اليهود، ۹۰، ۹۱.
- جدة، ۲۹، ۵۴، ۵۶، ۱۰۹، ۱۱۲، ۱۲۴، ۱۳۳، ۱۳۶، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۴۰، ۱۴۱، ۱۴۲، ۱۴۳، ۱۵۲، ۱۵۵، ۱۵۷، ۱۵۸، ۱۵۹، ۱۶۲، ۱۶۴، ۱۶۹، ۱۷۱، ۱۷۳، ۱۷۴، ۱۷۵، ۱۷۶، ۱۸۳، ۱۸۷، ۱۸۸، ۲۰۲، ۲۰۵، ۲۰۸، ۲۱۰، ۲۱۸، ۲۲۱، ۲۴۲، ۲۴۴، ۲۵۷، ۲۵۹، ۲۶۲، ۲۶۶، ۲۶۹، ۲۷۵، ۲۸۲، ۲۸۶، ۲۸۷، ۲۸۸، ۲۸۹، ۲۹۱، ۲۹۹، ۳۰۰، ۳۰۲.
- الجديدة (مضيق)، ۲۰۴.
- الجزائر، ۱۲۱.
- جزيرة بوزبون، ۱۵۶.
- جزيرة تيران، ۹۴.
- جزيرة سيلان، ۱۴۶.
- جزيرة سيناء، ۱۱۳، ۱۱۵.
- جزيرة العباسي، ۱۲۴.
- جزيرة خواط، ۱۳۵.
- جزيرة كابري (جزيرة إيطالية)، ۳۴.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۲۰
- جزيرة لبانة (انظر لبانة)، ۱۲۰.
- جزيرة نعمان، ۱۱۴.
- الحبشة، ۳۹، ۳۰۱.
- حلذة، ۲۲۰، ۲۳۶، ۲۸۶.
- حزم القنبع، ۲۷۲.
- حصن (في جدة، قريب من الميناء)، ۱۳۶.
- حمام فرعون، ۶۶.
- حي الشام، ۱۳۸.
- حي اليمن، ۱۳۸، ۳۰۲.
- الخرطوم، ۳۰۱.
- خليج السويس، ۵۱، ۹۴، ۱۱۵.
- الخليج العربي ۲۰۱.
- خليج العقبة، ۹۴، ۱۱۳، ۱۱۵.
- خوا (مملكة خوا في الحبشة)، ۳۰۱.
- الدار البيضاء (قصر لعباس باشا)، ۶۳، ۷۱.
- الدار الحمراء (قصر لعباس باشا الذي غيره الى: الدار البيضاء)، ۶۳.
- دافور، ۳۹.
- الدرعية، ۲۰۰، ۲۰۹، ۲۱۱، ۲۱۲، ۲۱۴.
- دمشق، ۱۱۶، ۲۰۰، ۲۰۳، ۳۰۰.
- دير التجلي، ۸۷.
- دير جبل سيناء، ۶۵، ۷۳.
- دير سيناء، ۸۱.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۲۱
- دير غرونويل الكبير (فرنسا)، ۲۴۳.
- دير لامارتورانا (إيطاليا)، ۲۴۳.
- رابغ، ۱۳۵.
- رأس بريدي، ۱۲۳.
- رأس حفيف، ۱۳۵.
- رأس الخيمة، ۲۰۱.
- رأس صويرة، ۶۳.
- رأس محمد، ۱۱۳.
- الرغامة، ۲۱۸، ۲۸۷.
- روسيا، ۷۲، ۲۴۸، ۲۹۲.
- روما، ۸۷.
- الريان، ۲۸۳.
- ربع الزلازلة، ۲۷۳.
- ربع الشهداء، ۲۵۲.
- ربع المنحوت، ۲۷۲.
- زنجبار، ۴۱.
- زهران، ۲۰۸.
- زيلع، ۱۵۶.
- الزيمة، ۲۷۵، ۲۷۷، ۲۷۸، ۲۸۵.
- سالونيك، ۲۰۷، ۲۹۸.
- سدوم، ۳۴.
- سفخة (مكان)، ۱۱۹.
- سمرن (مكان في تركيا)، ۲۸۶.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۲۲
- سهل العكيشة، ۲۲۱.
- سهل معبرة (المعابدة)، ۲۲۱.
- سواكن، ۳۰۱، ۳۰۴.
- السودان، ۴۶، ۴۸، ۱۰۸، ۱۴۲، ۲۰۳.
- سورية، ۴۰، ۷۲، ۹۵، ۱۲۵، ۱۳۸، ۱۸۸، ۲۰۱.
- سؤلة (قرية)، ۲۷۸، ۲۸۲، ۲۸۳.
- السويس، ۳۱، ۳۶، ۴۷، ۴۸، ۴۹، ۵۰، ۵۱، ۵۲، ۵۳، ۵۵، ۵۶، ۵۷، ۶۰، ۶۸، ۷۱، ۷۳، ۷۶، ۸۰، ۹۴، ۱۱۵، ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۳۶، ۲۴۴، ۳۰۱.
- سيناء، ۶۳، ۸۰، ۸۱، ۹۴، ۹۶، ۹۹، ۱۰۳، ۱۰۴، ۱۰۶، ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۱۳، ۱۱۵، ۱۳۶، ۱۴۵، ۲۲۰.
- سيوب (ميناء تركي أسيوي)، ۷۲.
- شرا (قصر الطائف)، ۲۷۱.
- الشريعة (بستان)، ۲۵۹.
- الصحراء الليبية، ۲۰۹.
- صحراء نعمان، ۲۱۳.
- صربيا، ۲۹۶.
- صخرة موسى، ۹۶.
- صفلية، ۲۹۶.
- ضبا، ۱۱۴.
- الطائف، ۲۹، ۱۵۷، ۱۷۱، ۱۸۳، ۲۰۲، ۲۰۴، ۲۰۵، ۲۰۹، ۲۱۵، ۲۲۱، ۲۲۵، ۲۳۳، ۲۳۶، ۲۳۷، ۲۳۹، ۲۴۲، ۲۴۴، ۲۴۹، ۲۵۱، ۲۵۲، ۲۵۳، ۲۵۴، ۲۵۵، ۲۵۷، ۲۵۹، ۲۶۰، ۲۶۲، ۲۶۳، ۲۶۶، ۲۶۹، ۲۷۱، ۲۷۳، ۲۷۵، ۲۷۸، ۲۸۶.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۲۳
- ۲۸۹، ۲۹۱، ۲۹۷، ۲۹۹، ۳۰۰، ۳۰۲، ۳۰۲.
- طرابلس الغرب، ۱۲۵، ۲۱۳.
- طيرزن (مدينة تركية)، ۳۰۰.
- الطور، ۵۶، ۵۹، ۶۳، ۶۴، ۶۶، ۶۷، ۷۳، ۷۵، ۱۰۳، ۱۰۴، ۱۰۵، ۱۰۹، ۱۱۳، ۲۹۱.
- العباسة، ۷۱.
- الحبشية (بستان)، ۲۲۳.
- العجاني (مكان)، ۷۸.
- عدن، ۴۱.
- العراق، ۲۰۱.
- عرفات، ۵۷.
- العزى (الصنم)، ۲۵۵.
- عسير، ۲۴۳، ۲۵۷.
- عصيلة (آبار)، ۱۲۸.
- العقبة، ۹۴، ۱۱۳، ۱۱۵، ۱۱۶.
- عين السمر، ۷۸.
- عيون موسى (عين موسى)، ۶۰، ۶۶.
- الفانيكان، ۸۷.
- فارس، ۱۳۹.
- الفرات، ۲۰۱.
- فرساي، ۲۹.
- فرنسا، ۲۹، ۵۵، ۱۴۹، ۱۶۳، ۱۸۶، ۲۴۲، ۲۴۸، ۲۶۳، ۲۶۶، ۲۸۹، ۲۹۴، ۲۹۶، ۲۹۹، ۳۰۱، ۳۰۲.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر / تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۲۴
- فلسطين، ۱۱۵.
- فلورنسا، ۵۵.
- قوسينى (منطقة في جبال الأطلس الوسطى)، ۲۳۵.

- القاهرة، ۲۹، ۳۱، ۳۲، ۳۳، ۳۵، ۳۶، ۳۹، ۴۲، ۴۳، ۴۴، ۴۵، ۴۶، ۵۰، ۵۳، ۵۴، ۵۵، ۷۱، ۷۵، ۸۸، ۹۷، ۹۸، ۹۹، ۱۰۴، ۱۱۶، ۱۲۶، ۱۲۹، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۵۳، ۱۶۹، ۱۷۶، ۲۰۳، ۲۱۳، ۲۱۶، ۲۲۵، ۳۳۲، ۳۳۳، ۳۴۴، ۲۷۱، ۳۰۰، ۳۰۱.
- قصر دار البيضا، ۴۲، ۷۱.
- قصر العباسية، ۳۳، ۴۲.
- القصر (ميناء مصرى على البحر الأحمر)، ۱۲۴، ۱۲۶.
- القصير، ۲۱۱.
- القعد (القسم الأصغر من ينبع)، ۱۲۵.
- قمة سربال، ۶۴.
- قمة القديسة كاترين، ۹۱.
- قنا، ۱۲۴، ۳۰۰.
- القنفذة، ۲۰۸.
- كابول، ۱۷۲.
- الكر (مكان)، ۲۳۰.
- كردستان، ۶۶، ۱۶۷.
- كلكتا، ۵۲.
- كنيسة القديس بيير فى روما، ۸۷.
- كنيسة القيامة، ۱۰۱.
- كهف حوريب، ۹۵.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۲۵
- اللات (الصنم)، ۲۵۵.
- لاهور، ۱۶۴.
- ليلة (جزيرة)، ۱۲۰.
- لبنان، ۱۱۵، ۲۰۱.
- لقيم (قرية)، ۲۷۱.
- ليسبوس (جزيرة يونانية)، ۱۷۳.
- مجر الشاش، ۲۵۱.
- المحيط الهندى، ۱۵۲.
- مدينة صالح، مدائن صالح، ۱۱۶، ۱۶۴.
- المدينة المنورة، ۴۰، ۱۲۲، ۱۲۳، ۱۲۸، ۱۳۴، ۱۳۸، ۱۴۰، ۱۶۲، ۲۰۲، ۲۰۳، ۲۰۴، ۲۱۱، ۲۵۱، ۲۷۳.
- مرسيليا، ۱۱۲.
- مسقط، ۱۳۹، ۱۵۲، ۲۱۳.
- مصر، ۳۱، ۳۲، ۳۹، ۴۲، ۵۲، ۵۵، ۶۰، ۶۶، ۷۲، ۸۹، ۱۰۳، ۱۲۵، ۱۲۷، ۱۳۹، ۱۴۲، ۱۵۴، ۱۶۵، ۱۶۷، ۱۶۹، ۱۷۵، ۱۷۷، ۱۸۸، ۱۹۳، ۲۰۳، ۲۰۴، ۲۰۷، ۲۰۸، ۲۱۱، ۲۱۳، ۲۲۵، ۲۴۴، ۲۵۳، ۳۰۰.
- مصورة، ۱۵۲.
- مضيق الجديدة، ۲۰۴.
- المغرب، ۱۲۵.
- مقام النبى هارون (حجر هارون)، ۹۰.
- مقدونيا، ۲۹۶.
- المقطم (جبل)، ۴۰، ۶۶.
- مكة المكرمة، ۲۹، ۳۹، ۴۰، ۴۵، ۵۷، ۱۱۶، ۱۳۰، ۱۳۴،
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۲۶
۱۳۵، ۱۳۷، ۱۴۰، ۱۵۷، ۱۶۲، ۱۶۴، ۱۸۰، ۱۸۱، ۱۸۷، ۱۸۳، ۱۸۶، ۱۸۷، ۱۸۸، ۱۸۹، ۱۹۰، ۱۹۷، ۲۰۲، ۲۰۴، ۲۰۶، ۲۰۸، ۲۰۹، ۲۱۰، ۲۱۱، ۲۱۳، ۲۱۴، ۲۱۵، ۲۱۸، ۲۲۰، ۲۲۱، ۲۲۴، ۲۲۶، ۲۲۷، ۲۳۳، ۲۳۵، ۲۴۱، ۲۴۶، ۲۵۰، ۲۵۱، ۲۵۲، ۲۶۳، ۲۶۹، ۲۷۸، ۲۸۱، ۲۸۶، ۲۹۷.
- ممر سيملون (جبال الأب)، ۹۶.
- موسكو، ۲۳۳.
- نبط (جبل)، ۱۲۲.
- نبع الإسكافى، ۹۱.
- نجد، ۱۸۹، ۱۹۱، ۲۰۲، ۳۰۰.
- النص (بستان)، ۲۷۹.
- نقب حبران، ۷۸، ۸۱، ۱۰۷، ۱۰۸.
- النمسا، ۲۴۸، ۲۹۲.
- النيل، ۶۶، ۶۸، ۳۰۱.
- النيل، ۳۱، ۴۹، ۱۲۴، ۳۰۰، ۳۰۱.
- النيل الأبيض، ۴۱.
- الهدى (مكان)، ۲۳۳.
- الهند، ۳۱، ۱۱۲، ۱۳۹، ۱۴۴، ۱۵۵.
- واحة حمام، ۷۴.
- وادى حبران، ۷۵، ۷۶، ۷۸، ۸۱، ۹۸، ۱۰۵، ۱۰۷.
- وادى الدير (مضيق)، ۸۱.
- وادى السلامة، ۲۶۰.
- وادى السيل، ۲۷۳، ۲۷۴.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۲۷
- وادى شمال، ۲۶۰.
- وادى صلاطن، ۷۹، ۱۰۶
- وادى طلح، ۲۷۲.
- وادى فاطمة، ۲۶۹، ۲۷۸، ۲۸۱، ۲۸۳.
- وادى فيران، ۸۱.
- وادى القرن، ۲۳۶.
- وادى ليمون، ۲۷۵.
- وادى المشاش، ۲۶۰.
- وادى النيعة، ۲۷۲.
- الوجه، ۱۱۶.
- الوهط (قرية)، ۲۵۸.
- اليمن، ۱۳۸، ۱۷۴، ۱۸۵، ۱۸۸، ۱۸۹، ۲۰۰، ۲۱۱.
- ينبع، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۲۶، ۱۲۷، ۱۲۸، ۱۲۹، ۱۳۰، ۱۳۳، ۲۰۳، ۳۰۰.
- ينبع النخل، ۱۲۸.
- اليونان، ۲۹.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۲۹

المصادر و المراجع

أولا- اللغة العربية:

۱- القرآن الكريم.
۲- أبو علية، عبد الفتاح، تاريخ الدولة السعودية الثانية، دار المريخ، الرياض، ط ۴، ۱۴۱۱ ه/ ۱۹۹۱ م.
۳- أبو علية، عبد الفتاح، محاضرات فى تاريخ الدولة السعودية الأولى، دار المريخ، الرياض، ط ۲، ۱۴۱۱ ه/ ۱۹۹۱ م.
۴- إمام، إمام عبد الفتاح، معجم ديانات و أساطير العالم، مكتبة مدبولى، القاهرة، ثلاثة مجلدات، د. ت.
۵- الأنصارى، عبد القدوس، موسوعة مدينة جدة، القاهرة، ط ۴، ۱۹۸۲ م.
۶- بدول، روبن، الرحالة الغربيون فى الجزيرة العربية، ترجمة د. عبد الله آدم نصيف، الرياض ۱۴۰۹ ه/ ۱۹۸۹ م.
۷- ناصر الدين دينه و كتابه: الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة و وثائق و ترجمة مختارة، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ۷، ع ۱، ۱۴۲۲ ه.
۸- البلادى، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، عشرة مجلدات، تواريخ مختلفة من ۱۳۹۸ ه/ ۱۹۷۸ م إلى ۱۴۰۳ ه/ ۱۹۸۳ م.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۳۰
۹- البلادى، عاتق بن غيث، على طريق الهجرة (رحلات فى قلب الحجاز)، دار مكة، د. ت.
۱۰- بوركهارت، جون لويس، رحلات فى شبه جزيرة العرب، ترجمة عبد العزيز بن صالح الهلابى و عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ۱۴۱۳ ه/ ۱۹۹۲ م.
۱۱- بوركهارت، جون لويس، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، الرياض، ط ۲، ۱۴۱۲ ه/ ۱۹۹۱ م.
۱۲- بيرتون، ريتشارد فرانسيس، رحلة بيرتون إلى مصر و الحجاز، ترجمة و تعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج ۱، ۱۹۹۴ م، ج ۲، ۱۹۹۵ م.
۱۳- بيرين، جاكلين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة و العلم، نقله إلى العربية، قدرى قلعجى، قدم له الشيخ حمد الجاسر، دار الكتاب العربى، بيروت ۱۳۸۳ ه/ ۱۹۶۳ م.
۱۴- تاميزيه، موريس، رحلة فى بلاد العرب، الحملة المصرية على عسير ۱۲۴۹ ه/ ۱۸۳۴ م، ترجمه و علق عليه محمد بن عبد الله آل زلفة، الرياض ۱۴۱۴ ه/ ۱۹۹۳ م، و الجزء الأول من هذه الرحلة عدنا إليه بأصله الفرنسى.
۱۵- الجاسر، حمد، بلاد ينبع، لمحات تاريخية جغرافية و انطباعات خاصة، دار اليمامة، الرياض، ۱۹۶۶ م.
۱۶- ابن جريس الحنبلى، راشد بن على، منير الوجد فى أنساب ملوك نجد، تحقيق محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ۱۴۱۹ ه/ ۱۹۹۹ م.
۱۷- الحنبلى، عثمان بن عبد الله بن بشر النجدى، عنوان المجد فى تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ط ۴، ۱۴۰۳ ه/ ۱۹۸۳ م.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعى، ص: ۳۳۱
۱۸- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ۱۴۱۶ ه/ ۱۹۹۶ م.
۱۹- ابن خميس، عبد الله بن محمد، معجم أودية الجزيرة، الرياض، ط ۱، ۱۴۱۵ ه/ ۱۹۹۴ م.
۲۰- ابن خميس، عبد الله بن محمد، معجم جبال الجزيرة، الرياض، ۱۴۱۰ ه/ ۱۹۸۹ م.
۲۱- دحلان، أحمد زينى، خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام، الطبعة الأولى، مصر، المطبعة الخيرية، ۱۳۰۵ ه.
۲۲- ذهنى، إلهام محمد على، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ۱۹۹۵ م.
۲۳- الرويثى، محمد أحمد، الموانى السعودية على البحر الأحمر، دراسة فى الجغرافيا الاقتصادية، مؤسسة الرسالة، بيروت ۱۴۰۳ ه/ ۱۹۸۳ م.
۲۴- الزركلى، خير الدين، ما رأيت و ما سمعت، مكتبة المعارف بالطائف، ۱۳۹۸ ه.
۲۵- آل زلفة، دراسات من تاريخ عسير الحديث، ط ۱، الرياض، ۱۴۱۲ ه.
۲۶- الزيد، إبراهيم بن محمد، عثمان بن عبد الرحمن المضايفى أمير الطائف و الحجاز فى الدولة السعودية الأولى، إصدار لجنة المطبوعات فى النشيط السياحى، محافظة الطائف، ط ۱، ۱۴۱۸ ه/ ۱۹۹۷ م.

۲۷- السلمي، عرام بن الأصبغ، أسماء جبال تهامة و سكانها و ما فيها من القرى و ما ينبت عليها من الأشجار و ما فيها من المياه، مجلدان، دار الجيل، بيروت، ۱۴۱۱ ه/ ۱۹۹۱ م، (ضمن نوادر المخطوطات).
۲۸- شامية، جبران، آل سعود ماضيهم و مستقبلهم، ط ۱، لندن، رياض الريس، ۱۹۸۶ م.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۳۲
۲۹- شقير، نعوم بك، تاريخ سيناء القديم و الحديث و جغرافيتها، دار الجيل، بيروت، ط ۱، ۱۴۱۱ ه/ ۱۹۹۱ م.
۳۰- صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات الصناعية التاريخية، ط. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ۱۴۲۱ ه/ ۲۰۰۰ م.
۳۱- العجيمي، حسن بن علي بن يحيى بن عمر، إمداد اللطائف من أخبار الطائف، تحقيق يحيى محمود ساعاتي (ابن جنيد)، دار ثقيف للنشر و التأليف، الطائف، ط ۲، ۱۴۰۰ ه/ ۱۹۸۰ م.
۳۲- عسيري، علي أحمد عيسى، عسير من ۱۲۲۹ ه/ ۱۸۳۳ م إلى ۱۲۸۹ ه/ ۱۸۷۲ م، دراسة تاريخية، مطبوعات نادي أبها الأدبي، ۱۴۰۷ ه/ ۱۹۸۷ م.
۳۳- فراج، عبد الرحمن، أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية، قائمة ببليوجرافية مختارة (القسم العربي)، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ۴، ع ۲، ۱۴۱۸- ۱۹۹۸ م/ ۱۹۹۹ م.
۳۴- فيلبي، هاري سنت جون، أرض الأنبياء، مدائن صالح، تعريب عمر الديراوي، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ۱۹۶۲ م.
۳۵- فوجت، جوزيف، نظام العمودية القديم و النموذج المثالي للإنسان، تقديم و ترجمة و تعليق منيرة كروان، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ۱۹۹۹ م.
۳۶- القناص، مناحي ضاوي حمود، تاريخ الطائف قديما و حديثا، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، د. ت.
۳۷- آل كمال، محمد سعيد بن حسن، الطائف، جغرافيته- تاريخه، أنساب قبائله، مكتبة المعارف بالطائف، ۱۴۱۷ ه/ ۱۹۹۷ م.
۳۸- كوبر، لي ديفيد، ريتزر، جورج، الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، ترجمة و تعليق عبد الله ناصر الوليعي، الرياض ۱۴۱۷ ه/ ۱۹۹۷ م.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۳۳
۳۹- لورنس، هنري، و آخرون، الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ۱۹۹۵ م.
۴۰- مراد، محمد عبد الحميد، مدائن صالح، المكتبة الصغيرة، ۲۹، د. ت، ط ۲، ۱۳۹۹ ه/ ۱۹۷۷ م.
۴۱- موسل، أ، شمال الحجاز، نقله إلى العربية د. عبد المحسن الحسيني، الإسكندرية، ۱۹۵۲ م.
۴۲- نصر، أحمد عبد الرحيم، التراث الشعبي في أدب الرحلات، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدوحة، ۱۹۹۵ م.
۴۳- نواز، ملك أحمد، أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية (القسم الإنكليزي)، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ۴، ع ۲، ۱۴۱۹ ه/ ۹۸- ۱۹۹۹ م.
۴۴- هورخرونيه، سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، نقله إلى العربية على عودة الشيوخ، أعاد صياغته و علق عليه، محمد محمود السرياني، و معراج نواب مرزا، طبع دارة الملك عبد العزيز، الرياض، مجلدان ۱۴۱۹ ه/ ۱۹۹۹ م.
۴۵- هيوورد، ميشيل، ر، ورد الطائف، ترجمه بتصرف محمد عبد القادر الفقي، مجلة الفاقة، مج ۴۹، ع ۳، ربيع الأول ۱۴۲۱ ه/ يوليو (تموز) ۲۰۰۰ م.
۴۶- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ۱۳۹۹ ه/ ۱۹۷۹ م.
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۳۴

ثانيا- اللغة الأجنبية:

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۳۵

فهرس المحتويات

الكلمة الأولى ۵
مقدمة المترجم ۱۱
۱- لمحة تاريخية: ۱۱
۲- صاحب الرحلة: ۱۵
۳- أهمية الرحلة و مصادرها: ۱۹
۴- ملابسات الرحلة ۲۳
۵- عملي في الترجمة ۲۶
مقدمة الناشر الفرنسي ۲۹
الفصل الأول: صحراء السويس ۳۱
الفصل الثاني: السويس ۴۹
الفصل الثالث: الطور ۵۹
الفصل الرابع: جبل سيناء ۷۱
الفصل الخامس: البحر الأحمر ۱۱۱
الفصل السادس: جدّة ۱۳۷
الفصل السابع: لوحة نابضة بالحياة ۱۶۱
رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر/ تعريب محمد خير البقاعي، ص: ۳۳۶
الفصل الثامن: الأشراف و الوهابيون ۱۷۹
الفصل التاسع: من جدة إلى الطائف ۲۱۵
الفصل العاشر: الطائف ۲۳۹
الفصل الحادي عشر: من الطائف إلى جدة ۲۶۹
الفصل الثاني عشر: بعض التأملات ۲۹۱
الفصل الثالث عشر: مغادرة جدة ۲۹۹
فهرس الأعلام ۳۰۵
فهرس الأماكن ۳۱۵
المصادر و المراجع ۳۲۹
فهرس المحتويات ۳۳۵

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدُوا بِأَموالِكُم وَ أَنفُسِكُم فى سبيلِ اللّه ذلِكُم خَيرٌ لَكُم إنْ كُنتُم تَعلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قال الإمام علىّ بْنُ موسى الرّضا – عليه السّلام: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحيا أمرَنا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنا وَ يُعَلِّمُها النّاسَ، فَإنّ النّاسَ لَو عَلِمُوا مَحاسِنَ كَلامِنا لَاتَّبَعُونا... (بِنادِرُ البحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِضا(ع)، الشَّيخ الصّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمع" الفائزيّة "الثّقافيّ بأصبهانَ – إيران: الشهيد آية الله" الشمس آبادى – "رَحِمَهُ اللّهُ – كان أحداً من نجابهذهِ هذه المدينة، الذى قد اشتهَر بشّغفه بأهل بيت النبيّ (صلواتُ الله عليهم) و لاسيّما بحضرة الإمام علىّ بن موسى الرّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحب الزّمان (عَجّلَ الله تعالى فرجَهُ الشّريف)» و لهذا أنِسَ مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسّسةً و طريقةً لَم يَنطقِ بعباراتها، بل تَنَبّع بأقوى و أحسَنِ موقِفٍ كُلّ يوم.
مركز" القائمية "للتحرّى الحاسوبى – بأصبهانَ، إيرانَ – قد ابتدأ أنشطتهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامى – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من جَرَيحى الحروات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتِ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...
الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثّقلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهمُ السّلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخفيف المطالب الغامضة – مكان الإمكان المبتذلة أو الزّائدة – فى المحامل (=الهوامش المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ لثقافةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بأعلَى نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة لهواة برامج العلوم الإسلامية، إزالة الشبائع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...
- منها الفعالة الاجتماعية: التى يُمكن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعداً، على أنّه يُمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات– فى أكناف البلد – و نشر الثّقافة الاسلامية و الإيرانية – فى أنحاء العالم – من جهةٍ أخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:
الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القراءة
ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
ج) إنتاج المعارض الثّلاثيّ الأبعاد، المنطر الشامل (=بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...
د) إيداع الموقع الانترنتى "القائمية "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مواقع أخرَ
ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة
و) الإطلاق و الدّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)
ز) ترسيم النظام الثقافى و البدوى للبلوتوث، ويب كشكك، و الرسائل القصيرة SMS
ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جمكران و...
ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسة
ى) إقامة دورات تعليميّة عمومية و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السّنة
المكتب الرئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيد/ "ما بين شارع"بيج زَنجان "و"مفترق"وفائى/"بناية"القائمية"
تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمرية)
رقم التسجيل: ۳۳۷۳
الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com
المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۳۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاكس: ۲۲-۳۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مكتب طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التّجارية و التبعيات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمين ۳۳۳۳۰۴۵ (۰۳۱۱)
ملاحظة هامة:
الميزانية الحالية لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكومية، و غير ربحيّة، اقتُنِيت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافى الحجم المتزايد، و المتّسع للامور الدّينيّة و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحبَ هذا البيتِ (المُسمّى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجّلَ الله تعالى فرجَهُ الشّريف) أن يُوفّقَ الكلّ توفيقاً متزايداً لإعانتهم – فى حدّ التمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹